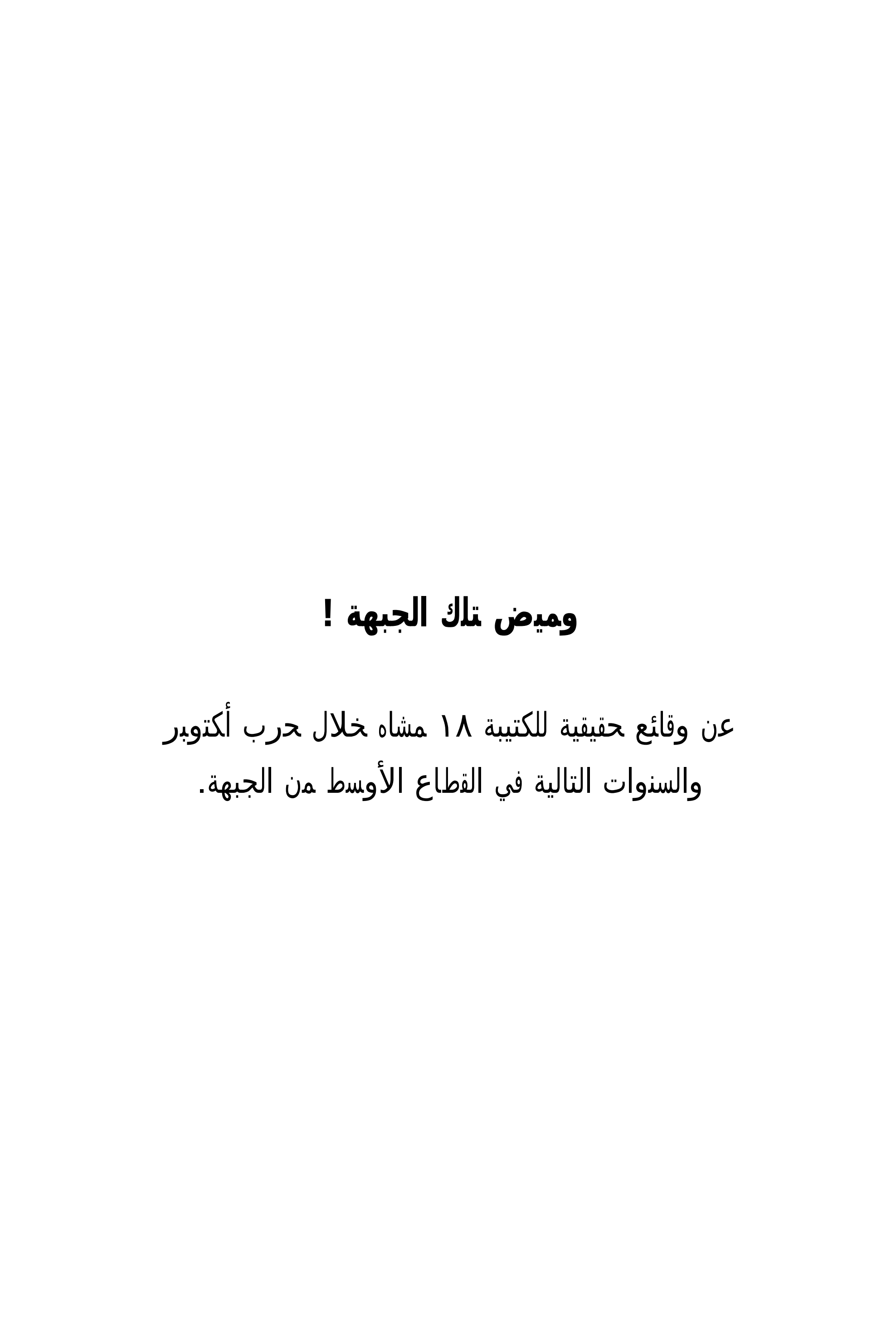

رواية
وميض تلك الجبهة
سمير الفيل

رواية

وميض تلك الجبهة

سمير الفيل



وميض تلك الجبهة !

عن وقائع حقيقية للكتيبة ١٨ مشاه خلال حرب أكتوبر
والسنوات التالية في القطاع الأوسط من الجبهة.

إهداء

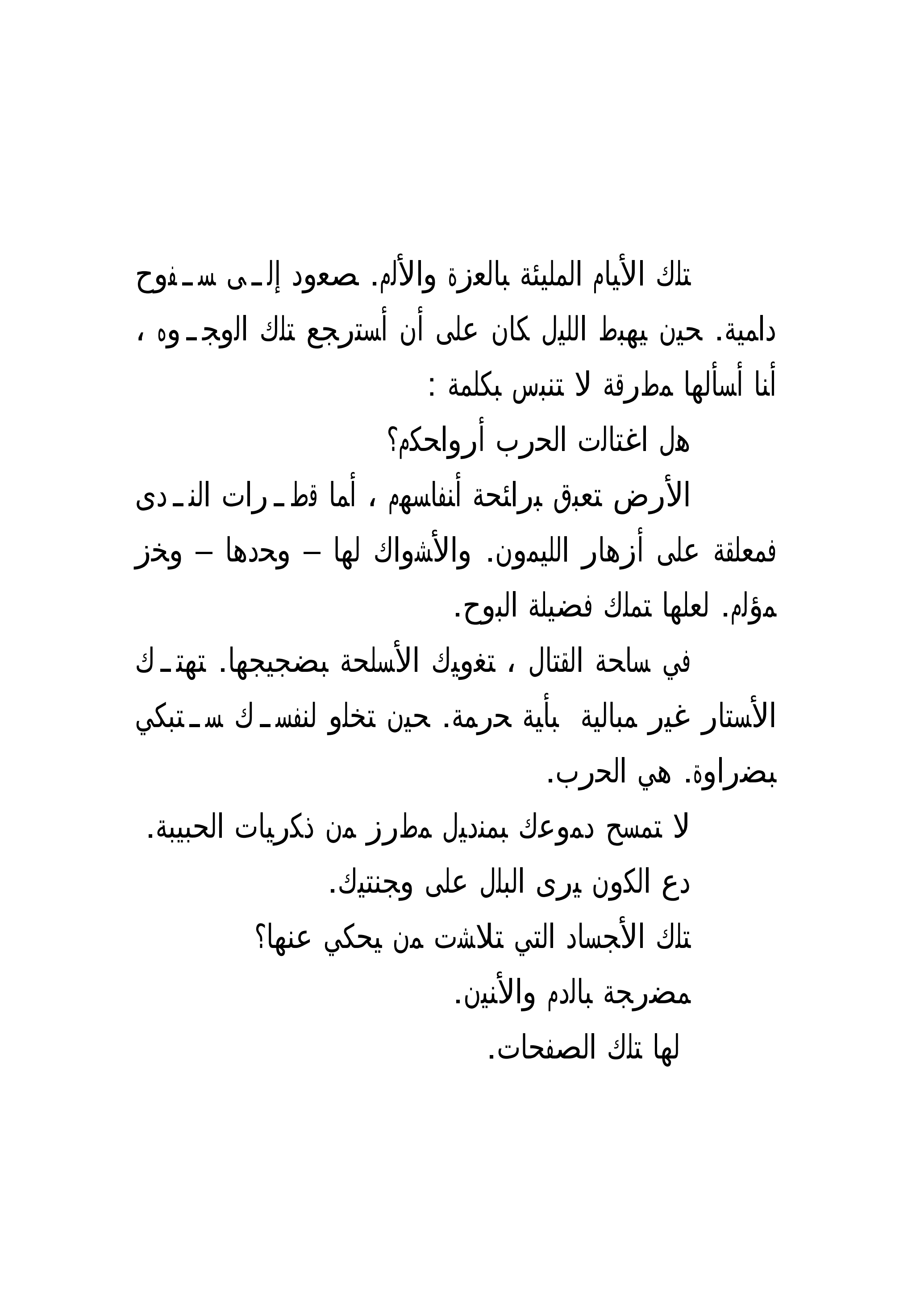
إلى شادي وهيثم ومحمد.

كان لا بد أن أجلس معكم. أحملكم بين ذراعي

لكن وجوه المحاربين المرهقة اختطفتني.

فرحت أستعيد ملامحها ، وأنصت لحديث

لم تبح به الشفاه.



تلك الأيام المليئة بالعزة والألم. صعود إلـى سـفوح
دامية. حين يهبط الليل كان على أن أسترجع تلك الوجـوه ،
أنا أسألها مطرقة لا تنبس بكلمة :

هل اغتالت الحرب أرواحكم؟

الأرض تعبق برائحة أنفاسهم ، أما قطـرات النـدى
فمعلقة على أزهار الليمون. والأشواك لها – وحدها – وخز
مؤلم. لعلها تملك فضيلة البوح.

في ساحة القتال ، تغويك الأسلحة بضجيجها. تهتـك
الأستار غير مبالية بأية حرمة. حين تخلو لنفسـك سـتبكي
بضراوة. هي الحرب.

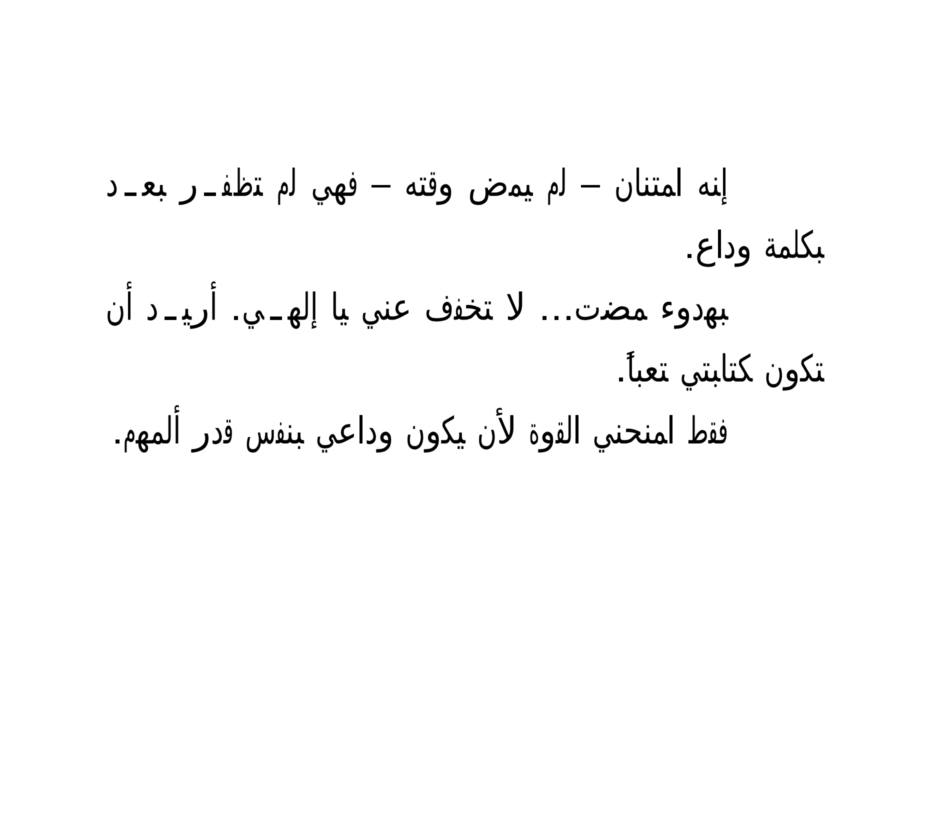
لا تمسح دموعك بمنديل مطرز من ذكريات الحبيبة.

دع الكون يرى البلل على وجنتيك.

تلك الأجساد التي تلاشت من يحكي عنها؟

مضرجة بالدم والأنين.

لها تلك الصفحات.



إنه امتنان – لم يمض وقته – فهي لم تظفـر بعـد بكلمة وداع.

بهدوء مضت... لا تخفف عني يا إلهـي. أريـد أن تكون كتابتي تعباً.

فقط امنحني القوة لأن يكون وداعي بنفس قدر ألمهم.

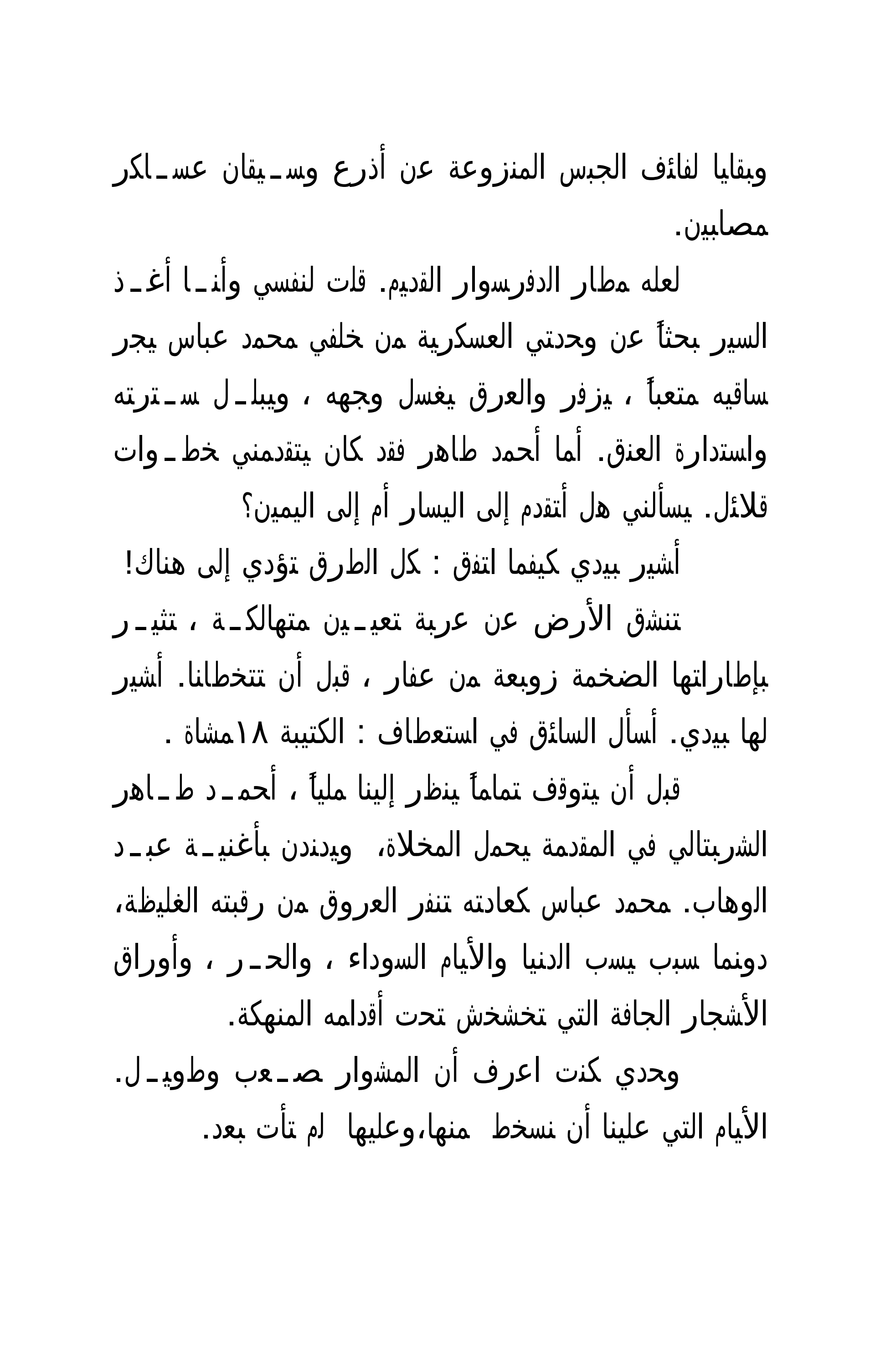
(١)

لم أحارب. لم أحارب قط. وجـدتني فجـأة وسـط مجموعة من المقاتلين الذين يحملون في دمـائهم همهمـات القذائف المكبوتة الغاضبة. وجوه تحمل مرارة الفقد وحقيقـة أنها رأت ما لا يمكن أن يُرى إلا في ميدان مشتعل بالبـارود والشظايا المتطايرة.

لم يغفر لي مشواري اللاهث ، ولا حنجرتـي التـي تطقطق من العطش ، ولا أصابعي المهترئة داخـل البيـادة الثقيلة سؤالي الساذج عن ك ١٨.

عند انحدار المدق الأسفلتي كانت بقايا علب كبريتهم وسجائرهم ، بل قارورات العطر متناثرة هنا وهناك، وسط فوضى الأسلاك الشائكة ، وفوارغ القذائف في علبها بلـون زيتي غامق مع استدارة الحروف المطبوعة باللون الفضـي المتغطرس.

حين رأيت أسقف القرميد الأحمر عاد بي الذهن إلى طفولتي التعسة ، وليال من الحرمان مضببة وغير محـددة. أسقف ملونة، بها تعرجات محسوبة. حدبات حظائر الطيران المهجورة ، وحدائق تكسو زهورها المتربة أوراقاً مهملـة ،



وبقايا لفائف الجبس المنزوعة عن أذرع وسـيقان عسـاكر مصابين.

لعله مطار الدفرسوار القديم. قلت لنفسي وأنـا أغـذ السير بحثاً عن وحدتي العسكرية من خلفي محمد عباس يجر ساقيه متعباً ، يزفر والعرق يغسل وجهه ، ويبلـل سـترته واستدارة العنق. أما أحمد طاهر فقد كان يتقدمني خطـوات قلائل. يسألني هل أتقدم إلى اليسار أم إلى اليمين؟

أشير بيدي كيفما اتفق : كل الطرق تؤدي إلى هناك!

تنشق الأرض عن عربة تعيـين متهالكـة ، تثيـر بإطاراتها الضخمة زوبعة من عفار ، قبل أن تتخطانا. أشير لها بيدي. أسأل السائق في استعطاف : الكتيبة ١٨مشاة .

قبل أن يتوقف تماماً ينظر إلينا ملياً ، أحمـد طـاهر الشربتالي في المقدمة يحمل المخلاة، ويدندن بأغنيـة عبـد الوهاب. محمد عباس كعادته تنفر العروق من رقبته الغليظة، دونما سبب يسب الدنيا والأيام السوداء ، والحـر ، وأوراق الأشجار الجافة التي تخشخش تحت أقدامه المنهكة.

وحدي كنت اعرف أن المشوار صـعب وطويـل. الأيام التي علينا أن نسخط منها،وعليها لم تأت بعد.

علينا أن ندخر اللعنات فسـوف نحتاجهـا لأوقـات أصعب وأقسى. هل كنت أقرأ صفحات مطوية بأعين فاحصة ثاقبة أنارتها قدرة خاصة على استبطان الكامن والخبيء؟

كما لو كنت قد كشفت سر المكان : الموقع قريـب. أليس كذلك؟

حرك رأسه، وشاربه الكـث يهتـز مـع ضـحكته المجلجلة. أشار لنا بعد أن أوقف العربة كي نصعد بسـرعة. حذرنا من منحنيات الطريق الوعر.

سألنا عن سجائر. لم أكن أدخن. مد محمد عباس يده – وكان حريقة سجائر – بالعلبة. انتزع سيجارتين ، وضـع واحدة في فمه ، والأخـرى علقهـا خلـف أذنـه.التصـقنا بالمكعبات ، فلسعتنا سخونتها. وضعنا المِخل خلف ظهورنـا كحواجز تقينا لسع الطبيخ الميري " اليمك " !

ارتجت العربة في سيرها. سألنا سؤالاً تقليدياً حفظناه خلال أشهرنا القليلة الفائتة، وظل يطاردنا فـور تجنيـدنا : مؤهلات أم عادة؟

أخبره محمد عباس أنه حلواني. وسعل سعالاً متصلاً ارتج له كيانه ، رمى بالسيجارة قبل أن يأتي عليها.

ابتسم الشربتالي وهو يخبره أنه حاصل على ليسانس الحقوق. ضحك السائق وهو يهز كتفيه بلا مبالاة : أنصـحك أن تدفن شهادة المحاماة هذه في أول حفرة تقابلهـا. إنسـها تماماً. ولا ترجع لها إلا بعد أن ينقضي جيشك.

لم يسألني عن مهنتي. هل النظارة الطبية هي السبب أم أنه سيعاود السؤال؟

اعتدنا أن نقطع وقتنا في الكلام. الكلام وحده يمـلأ الفراغ الهائل. قلت له :

ألا تريد أن تعرف مهنتي.

ضحك وهو يشير إلى النظار : مدرس أو مهندس أو محاسب!

قلت وأنا أخفي اضطرابي : تخمينك صـحيح. أنـا مدرس.

كانت ثمة بيوت متهالكة من الطوب اللِبن تتساند في قدم وابتئاس على البعد، بينما المساحات الخضراء قد بـدأت في الاتساع وفرض نفوذها.

عن البلاد سألنا. أخبره الشربتالي أنه من الزقازيق، وضرب محمد عباس على صـدره وهـو يعرفـه ببلـده : المنصورة. قلت كالمنوم : أنا من دمياط.

رحب بنا : أحسن ناس. مد يده بزمزميـة صـغيرة ممتلئة بالماء. شربنا ، كدنا نغسل وجوهنا التربـة. التفـت ناحيتنا من نافذة العربة، ومد يده يستعيدها.

قال بلهجة لا تخلو من حزن: أحمدوا ا أنكـم لـم تدخلوا الحرب.

أشار بيده نحو تبة تبرز من أرضيتها بعض أسـياخ الحديد ، وألواح الصاج الصدئة ، بل سترات عسكرية ذهبت الشمس بلونها فبدت كمزق لا يمكن تحديد كنهها: هنا عجنت قذيفة الألف رطل سيارة عبد الخالق الموجي. وكانت تحمـل إمدادات للجبهة.

شهقنا ونحن ننظر للخـوذ المقلوبـة مثقوبـة فـوق العصى. لم ننبس بكلمة بعدها، استمرت السيارة ترتج ونحن نزيد التصاقاً بالمخِل !

(٢)

عند المنعطف الأخير ، وقبـل أن يلتقـي الـ ـمدق الأسفلتي المتعرج بطريق المعاهدة أنزلنا.

تمنى لنا خدمة طيبة. تذكرت القول المأثور الذي كان يتردد في عنابر المعادي ، وخيام فرقـة العامريـة ، وفـي ساحات التدريب : " الداخل مفقود ، والخارج مولود ".

الشمس لم تزل تصب شواظ لهيبهـا فـوق أبـداننا النحيلة ، ومحمد عباس لا يكف عن نفث دخـان سـجائره. يحمل المخلة فوق كتفه ، يسندها بيده اليسرى أمـا اليمنـى فيقربها من فمه من وقت إلى آخر. وأغنية الشربتالي كلمـا انتهى منها، عاد يكررها كأنه يدير اسطوانة مشروخة.

أصبحنا في المعمعة ، لم نجرؤ على الاقتراب مـن الملاجئ المحفورة تحت الأرض في دقة متناهية. كنا نسـير بغير هدى وسط تجمعات العساكر الذين انكبوا على أعمالهم اليومية بعد فترة الراحة بألفة واعتياد شديدين.

مجموعات منهم تتمدد في ظلال الدشم ، تستمع إلـى الراديو الترانزستور ، ومجموعات أخرى تسخن (اليمك) في

" أروانات " التعيين الألومنيوم الجماعية المستطيلة. تجمع قطع الخشب وتضع بعض العبوات المستديرة سريعة الاشتعال أسفل الأواني في دربة ، فيغلي الطعام في ثوان معدودات.

عساكر في البيجامات الميري الواسعة يخبون داخلها. ذكرتني فضفضتها بملابس السجن التقليدية التي رأيتها في أفلام الأربعينات.

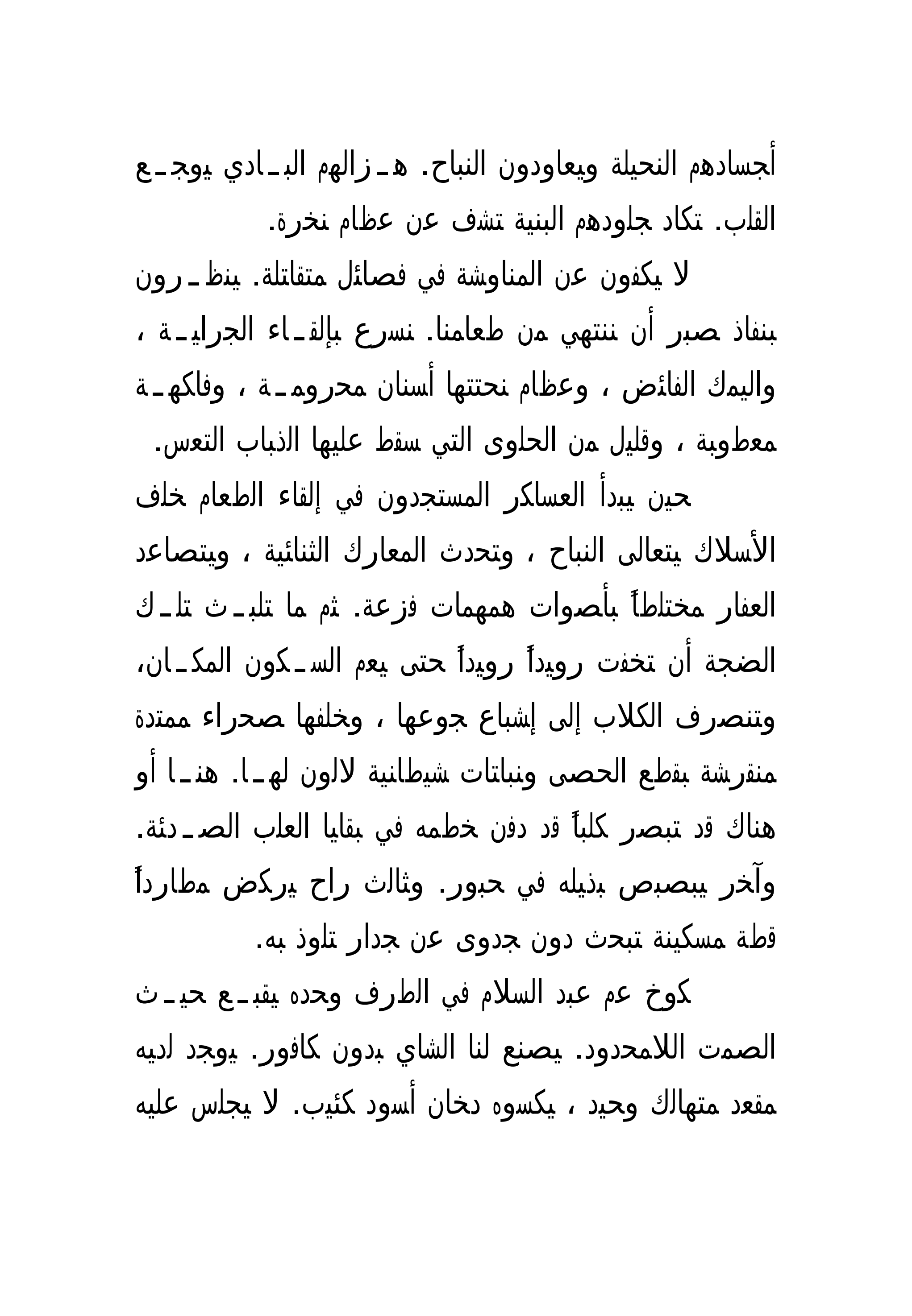
آخرون ينشرون ملابسهم التي غسلوها بمياه الجراكن فوق حديد الملاجئ خلف التبة، وفي باطن المنحدر.

السحالي الفضية كانت كعادتها تدفن نفسها في الرمل ثم تعاود الظهور ، وتكشف عن نفسها بصوت خشخشة الأوراق الذابلة الجافة.

جموع الخنافس السوداء تسير في بطئها نحو جحور تبدو مداخلها كثقب صغير صغير.

لا توجد كلاب في المنطقة. ضحكت. قلت لنفسي : لعل التعيين قليل ، ولا يوجد فائض.

في المعادي كانت جموعهم تفوقنا عدداً. في مواعيد محددة يقفون خلف الأسلاك الشائكة ينبحون ، ويهزون



أجسادهم النحيلة ويعاودون النباح. هـزالهم البـادي يوجـع القلب. تكاد جلودهم البنية تشف عن عظام نخرة.

لا يكفون عن المناوشة في فصائل متقاتلة. ينظـرون بنفاذ صبر أن ننتهي من طعامنا. نسرع بإلقـاء الجرايـة ، واليمك الفائض ، وعظام نحتتها أسنان محرومـة ، وفاكهـة معطوبة ، وقليل من الحلوى التي سقط عليها الذباب التعس.

حين يبدأ العساكر المستجدون في إلقاء الطعام خلف الأسلاك يتعالى النباح ، وتحدث المعارك الثنائية ، ويتصاعد الغفار مختلطاً بأصوات همهمات فزعة. ثم ما تلبـث تلـك الضجة أن تخفت رويداً رويداً حتى يعم السـكون المكـان، وتنصرف الكلاب إلى إشباع جوعها ، وخلفها صحراء ممتدة منقرشة بقطع الحصى ونباتات شيطانية لالون لهـا. هنـا أو هناك قد تبصر كلباً قد دفن خطمه في بقايا العلب الصـدئة. وآخر يبصبص بذيله في حبور. وثالث راح يركض مطارداً قطة مسكينة تبحث دون جدوى عن جدار تلوذ به.

كوخ عم عبد السلام في الطرف وحده يقبـع حيـث الصمت اللامحدود. يصنع لنا الشاي بدون كافور. يوجد لديه مقعد متهالك وحيد ، يكسوه دخان أسود كئيب. لا يجلس عليه

إلا الصولات والباشجاويشية. أما نحن فلنا الأرض التي منها خرجنا وإليها نعود. تعودنا عليها ولم نعد ننفر منهـا. فيهـا ملاذنا وخلاصنا وراحتنا.

أحياناً كنا نبتهل إلى ا   أن يمنح أجسـادنا المتعبـة بعض الراحة ونحن نستلقي على الأرض الرطبة داخل الخيام المشدودة رغم التعليمات الصارمة بأن نقضي دقائق الراحـة في ساحات التدريب نفسها كنا نندفع – رغم تعبنا – بأقصى سرعة ، لنرتمي مجهدين على الأرض ، نمـرغ وجوهنـا الملتهبة بالشمس والعرق المالح وسخرية الأومباشـات فـي رطوبة الأرض الندية.

هل هي صديقة لنا أم عدوة؟ يا لحيادها المخادع الذي لا بد أن يكشف لحظة احتدام الصراع عن انحيازها الخفى!

أخيراً وجدنا من يوقفنا ويسألنا عن وجهتنا. كان يبدو على وجهه سيماء الجد. قطب جبينه : عساكر جدد؟

هززنا رؤوسنا فى صمت بليغ. يبدو أننا لـم نقـدر وقتها أن ننطق كلمة. كلمة واحدة لم نتفوه بها. دونما اتفاق.

كان الإعياء بادياً على ملامحنا. سألنا في نبرة تحمل الاعتداء بالنفس أكثر من أي شيء آخر : الكتيبة ١٨؟

هززنا رأسنا ثانية. وجدت أنه من اللائق أن نـتكلم. خرج صوتي واهناً : قادمون من الأساس !

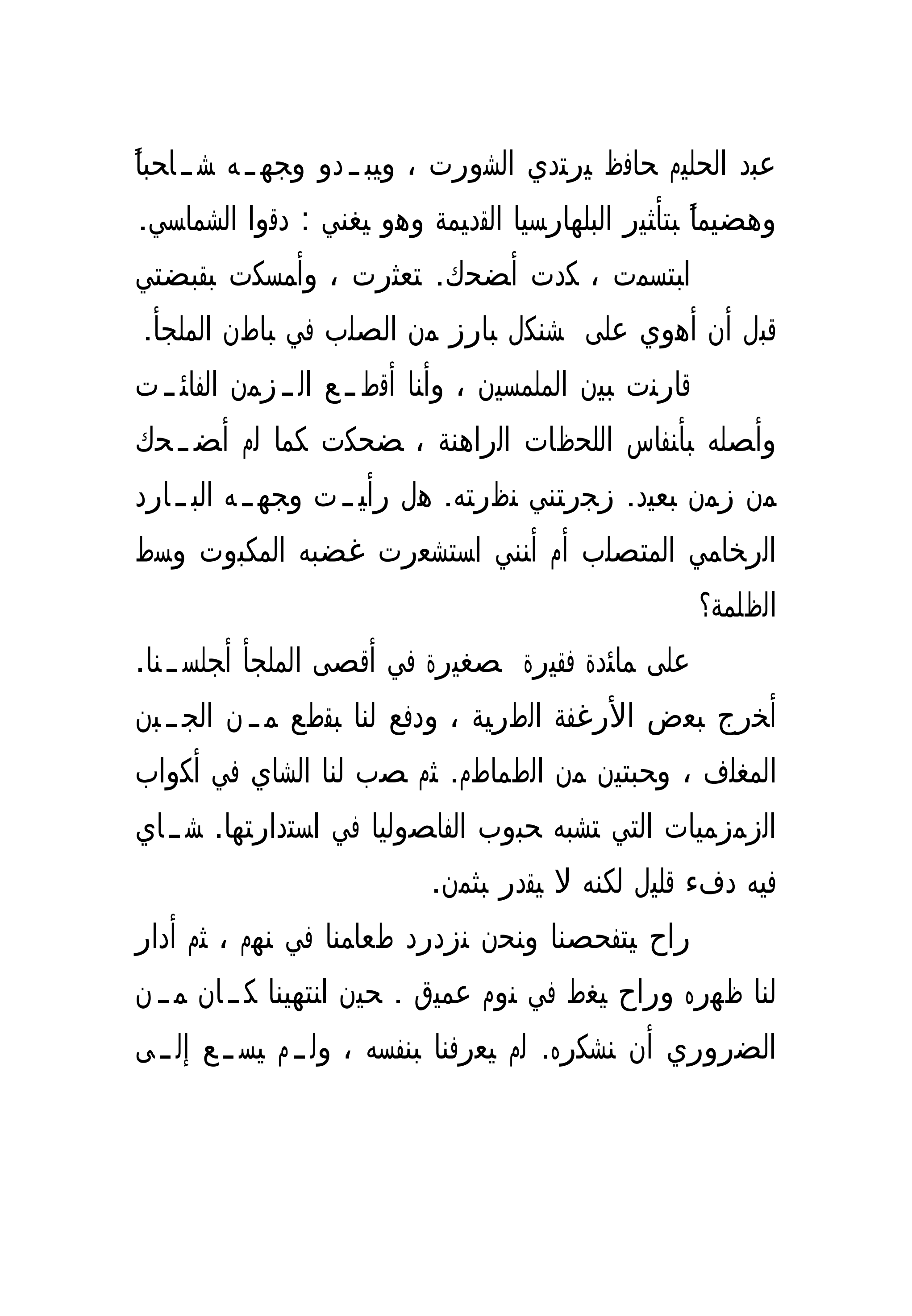
أخرج منديله الكاكي مسح عفاراً لم نره على وجهـه المدبوغ المعروق.

أمرنا أن نلقي المخِل أمام جندي الحراسة المنـاوب. كان يقف أمام ملجأه إذ أشار لنا بيده أن نهبط الدرجات القليلة خلفه.

أفزعتنا الظلمة. كنا نتعثر. كقطط خارجة من رحـم الأم. بأعين مغمضة لم نر شيئاً. تذكرت لحظة دخول السينما متأخراً بعد العرض. وكيف كانت يدي تتحسـس المقاعـد ، وتصطدم بالأذرع والسيقان خاف المقاعد. حزم الضوء تسقط على الشاشة العريضة التي أراها بصعوبة.

في مرة من المرات اصطدمت يدي وأنا أبحث عـن مقعد خال بشيء لين مستدير. أُخذت. اعتذرت فـي همـس خجول. جلست في العتمة أمسح عرقي. وحين بدأت الملامح تتضح شيئا فشيئا بادرتني بالحديث : لا عليك. حدث خير.

كانت وحدها. لا بل كانت مع طفلة صغيرة تعقـص شعرها وتحيطه بطوق ملون في المقدمة من رأسها. وكـان



عبد الحليم حافظ يرتدي الشورت ، ويبـدو وجهـه شـاحباً وهضيماً بتأثير البلهارسيا القديمة وهو يغني : دقوا الشماسي.

ابتسمت ، كدت أضحك. تعثرت ، وأمسكت بقبضتي قبل أن أهوي على شكل بارز من الصلب في باطن الملجأ.

قارنت بين الملمسين ، وأنا أقطـع الـزمن الفائـت وأصله بأنفاس اللحظات الراهنة ، ضحكت كما لم أضـحك من زمن بعيد. زجرتني نظرته. هل رأيـت وجهـه البـارد الرخامي المتصلب أم أنني استشعرت غضبه المكبوت وسط الظلمة؟

على مائدة فقيرة صغيرة في أقصى الملجأ أجلسـنا. أخرج بعض الأرغفة الطرية ، ودفع لنا بقطع مـن الجـبن المغلف ، وحبتين من الطماطم. ثم صب لنا الشاي في أكواب الزمزميات التي تشبه حبوب الفاصوليا في استدارتها. شـاي فيه دفء قليل لكنه لا يقدر بثمن.

راح يتفحصنا ونحن نزدرد طعامنا في نهم ، ثم أدار لنا ظهره وراح يغط في نوم عميق . حين انتهينا كـان مـن الضروري أن نشكره. لم يعرفنا بنفسه ، ولـم يسـع إلـى

معرفتنا.هل هو صول الأفراد ومهمتـه اسـتقبال العسـاكر الجدد؟

أمسكت بيدي أورنيك التوزيع، وقلت أستوضـحه : هل نبقى هنا أم ننتظرك خارج الملجأ.

لم يجب. كان صوت شخيره يزحف فـي المكـان، ويطارد السكون البارد المقيت. خفت أن أهزه. استعمل محمد عباس وسيلته المثلى في الخروج مـن المـأزق. مـد يـده بسيجارة. ارتجفت يده على غير العادة. لاحظت ذلك وفطنت إلى رحلة العذاب الهائلة : يا حضرة الصول.. سيجارة؟

كانت بعض الأفرولات معلقة في خطافات حديديـة على هيئة مشجب. غمز لنا عباس أن نسأل جندي الحراسـة في الخارج.

قبل أن نخرج امتدت يده لتخفي فـي عبـه بعـض الأرغفة من الجراية الميري.

لامته نظراتي. توجسـت. قـال بعـد أن أصـبحنا فـوق الأرض : تنفع في الزمن الصعب.

كنا قد صعدنا الدرجات في حـذر ، ونحـن نحنـي الجذع ، واجهنا الضوء ثانية وحركة العساكر في رواحهـم

وإيابهم ، وسباتهم وشجارهم ، ضحكاتهم الصاخبة وهـرش أجسادهم. قلت : فيم تنفع؟!

قليل منهم كان ينظف بندقيته ، وأقل القليـل يجـري الصيانة على مدفعه بقطع من ثياب قديمـة ممزقـة وعلـب الزيت. الأقل كان يصلي فـوق بطانيـة رماديـة وحركـة الخنافس لا تنقطع.

قال لنا جندي الحراسة دون أن نسأله : ما سلاحكم؟

قلنا له بصوت عاد إليه رمق الحياة : الهاون. هاون ٨٢ مم.

أشارت يده إلى أقصى اليسار : هناك. عند التبة التي يعلوها برج المراقبة. اسألوا عن الصول لطفي.

قال الشربتالي مندهشاً ، ويده تشير إلـى الملجـأ : والأستاذ الذي أطعمنا؟

ضحك الجندي ، لم يتمالك نفسه وهو يحدق فينـا ، ويستعيدها : أستاذ؟ !

قال له محمد عباس : خذ سيجارة.

مد يده وأخذها : ألا تعلمون من هو؟ تأكلون طعامه وتقولون عنه أستاذ؟

سألته بتودد : أليس مسئولاً عن الأفراد؟

قال ويده تمسح عينيه المغرورقتين بدموع ضحك لا يمكنه تحمله : إنه الصول عبد الخالق. متطوع من المنوفية. لكن انسانيته فوق الوصف !

قلنا : في الجيش؟

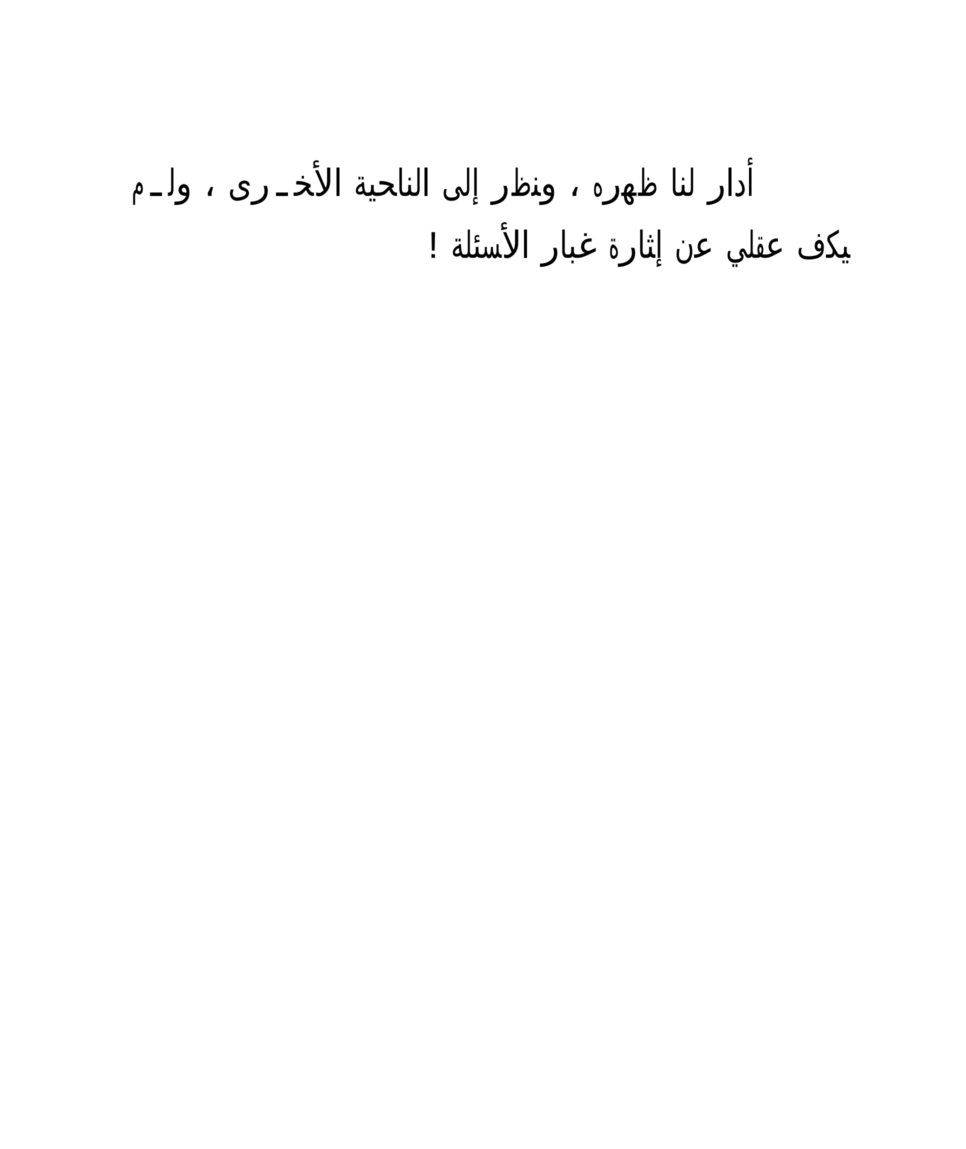
قال وهو ينهي حديثه ويعدل قايش البندقية الآليـة : في أي مكان.

ابن الأصول لا يتغير كثيراً. فقـط تكشـف الأيـام الصعبة عن معادن الرجال. قلت أواصل حديثه الذي بتـره فجأة. لنفسي قلت : الداخل سيتعرى. تشف الأجسـاد عـن دواخلكم أيها العساكر.

هل قال جندي الحراسة نفـس العبـارة بألفاظهـا أم أعدت صياغة كلماتها؟

ما سر عبد الخالق هذا وسط قيظ الأيـام وخشـونة المكان وسطوة الفقر؟

أيمكن أن نعثر على وجه طيب في ملاجئ تقهرهـا الأوامر الصارمة وحروب فائتة جرحـت الـروح جروحـاً دامية؟



أدار لنا ظهره ، ونظر إلى الناحية الأخـرى ، ولـم يكف عقلي عن إثارة غبار الأسئلة !

(٣)

استقبلنا الصول لطفي مرحباً : أهلاً وسهلاً بالرجال.

تفحصنا ملياً. تأكدت أنه يقلب وجوهنا فـي ذهنـه ، يبحث في ذاكرته عن وجوه شبيهة التحقت بالسـرية ، ثـم رحلت بالموت أو التسريح. عبرت خلال مصفاة القصـف ، وانفجار القذائف وتأدية التحية العسـكرية ، والإجـازات ، ونوبات الحراسة ، وطوابير التكدير إلى عالمها الخاص بعد أن انصهرت إلى حين تلك المنظومة القاسية والفريدة.

بدوري رحت اختلاس النظر إلى وجهـه. غمرنـي إحساس عميق بالراحة. كان الرجل يوحي بالثقة والاطمئنان. كنا نحس بالعطش، ولا نريد أن نبدأ خدمتنا بخـروج عـن اللائق والمألوف فلم نطلب شيئاً.

بعد أن تمضي بنا الأيام فترة من الزمن سندرك أننا كنا مثار حديث السرية. راهنوا على طباعنا وسلوكنا. علـى كوننا أصلاء أم أولاد حرام. يحدث هذا دائماً مـع الجنـود المستجدين حين يلتحقون بالكتائب المحاربة.

في تلك اللحظة المحددة التي تبدأ بالالتحـاق بكتيبـة ميدانية خارجة لتوها من تحت عنفـوان القصـف المـدفعي

المركز ، والاشتباك الليلي المرهـق ، وطلعـات الطيـران الرهيبة ، سيكون من الطبيعي أن تبحث عـن سـبب لـدفع المال، ووأد الإحساس المتزايد بالاحتضار الطويـل المـل لأرواحهم المجهدة.

مرت عدة شهور عن حربهم في أكتوبر ، وقد عادوا لتوهم من مفارز اللواء في سيناء إلى منطقة الدفرسوار فـي سيناء ، يلملمون ذواتهم المبعثرة ، يبكون قتلاهم ،يعـالجون جرحاهم، يجمعون صفوفهم ، ويلتقطون الأنفاس. كان قرار وقف إطلاق النار قد تم سريانه على الجبهة. وكانت حركـة الكتائب عبر المعابر تتم في النزع الأخير من الليل.

كتائب تخلي مواقعها لكتائب أخرى لم تلحق بها ذلك القدر من الخسائر الجسيمة.

كانت سرية الهاون قد دفنت شهداءها منذ زمن ، قبل أن نأتي محملين بترف المدن الغارقة في بحبوحة العـيش ، وصخب أنفاسها ، ومتعها الوفيرة الشائهة.

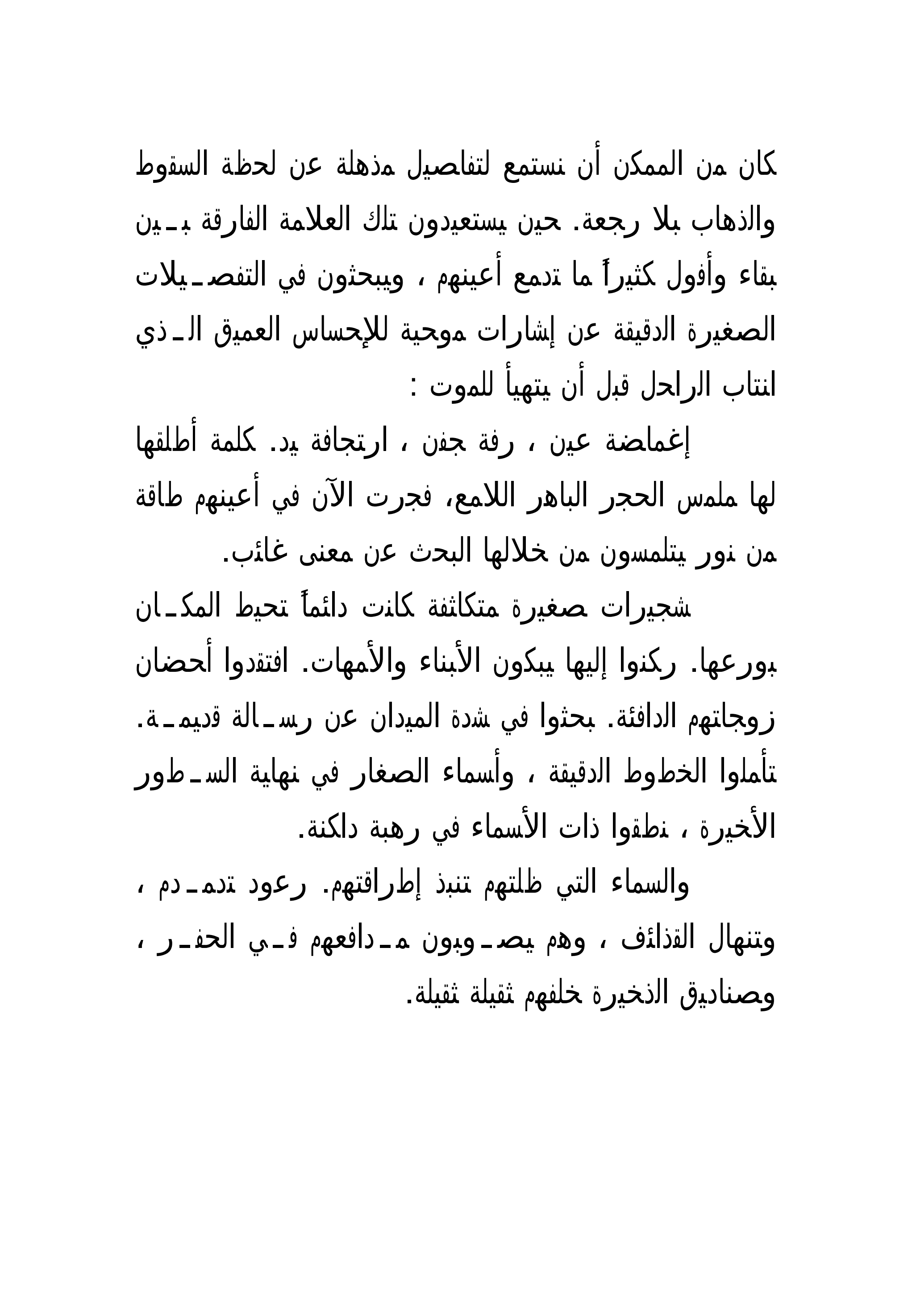
أمن الممكن أن نبحث عن العقيق وسط هذه المواجد الخزينة الغامضة التي تتراكم كل ليلة بحثاً عن أوجه فارقت الموقع إلى الأسمى؟

هي غزالة شاردة مضروبة بسكين مسنون نفذ إلى القلب. هل بمقدوري أن أتأمل لحظة أن تقاطر الدم نقطة نقطة؟ دم أحمر كالعقيق ، وأمواج زاخرة كثيفة، لا زرقة بهيجة تملأ فؤادي. وحكايات الشهداء تغمرني. في كل جلسة تملأ خياشيمي برائحة عرقهم ، وأنفاسهم اللاهثة تضرب صفحة وجهي. سحائب من دخان تعبق جو الملاجئ وطباق معطر يسبح في الفضاء.

هذه متعلقات تركها أصحابها وذهبوا. هذا الأفرول بالشريط الأسود على الذراع يخص حسين عبد المولى. هذا الدبشك وضعه رفيق - خفيف الروح - غادرنا على كتفه، أطلق رصاصاته ، وثقبت ضلوعه شظية لو انحرفت بوصة واحدة ، لكان معنا الآن يسألك عن أهلك وبلدك.

أروانات الطعام ، الخوذ المموهة ، أجهزة الكيما ، الأقنعة الواقية ذات الخراطيم المطاطية ، أرانيك العيادة ، بالطو المطاط حين تسلمناه كانت عليه الأسماء واضحة تتحدى الموت.

سألنا وأجابوا. في الليل الممتد ومع خدمات الكينجي بالذات ، قبل أن يوغل الليل في اغتياله الكامل لبقايا الضوء.



كان من الممكن أن نستمع لتفاصيل مذهلة عن لحظة السقوط والذهاب بلا رجعة. حين يستعيدون تلك العلامة الفارقة بـين بقاء وأفول كثيراً ما تدمع أعينهم ، ويبحثون في التفصـيلات الصغيرة الدقيقة عن إشارات موحية للإحساس العميق الـذي انتاب الراحل قبل أن يتهيأ للموت :

إغماضة عين ، رفة جفن ، ارتجافة يد. كلمة أطلقها لها ملمس الحجر الباهر اللامع، فجرت الآن في أعينهم طاقة من نور يتلمسون من خلالها البحث عن معنى غائب.

شجيرات صغيرة متكاثفة كانت دائماً تحيط المكـان بورعها. ركنوا إليها يبكون الأبناء والأمهات. افتقدوا أحضان زوجاتهم الدافئة. بحثوا في شدة الميدان عن رسـالة قديمـة. تأملوا الخطوط الدقيقة ، وأسماء الصغار في نهاية السـطور الأخيرة ، نطقوا ذات الأسماء في رهبة داكنة.

والسماء التي ظلتهم تنبذ إطراقتهم. رعود تدمـدم ، وتنهال القذائف ، وهم يصـوبون مـدافعهم فـي الحفـر ، وصناديق الذخيرة خلفهم ثقيلة ثقيلة.

سأعرف بعد ذلك أن طوابير التكدير ستجعلني أحمل تلك الصناديق رغم ثقلها فوق كتفي، وأصعد التل وأهـبط ، مرات ، والعرق يغزو مسامي ، وأنفاسي تتقطع !

لكنها لحظة المواجهة : البنادق قد رشق في مقدمتها، وبالقرب من الفوهة السونكي بعد أن تم نزعه من " الجفير ".

الماء عزيز ، والخوف شعور إنساني يغمر الجميع. يقف الجندي في مفرق عالمين، يقبض بيـده علـى جمـرة الحياة ، التي قد تتسرب في وميض اللحظة.

الألف المنتصب في شموخ ينتفض ، ويتـداخل فـي ظل الماء الخجول ، والباء تجذب نقطتها التـي بمقـدورها وسط القصف أن تبتعد في حذر. هل هـي لحظـات الحـب العصيبة التي يدرك المحارب كم هي حقيقية؟ كم هي جميلـة الحياة، وكم هم طيبون البشر ، بضعفهم وقوتهم ، بغطرستهم وانكسارهم، بفرحهم ونحيبهم. وكم هو فظ ومدجج بالعنف : الموت.

عكفنا على نصب الأسرة في الدشمة. تقـع دشـمتنا أسفل شجرة توت عملاقة بجذعها العتيق. المدخل نفسه ملئ

بالثمار الطازجة السوداء. حبيبات الثمرة لها مـذاق طيـب رطب حلوقنا.

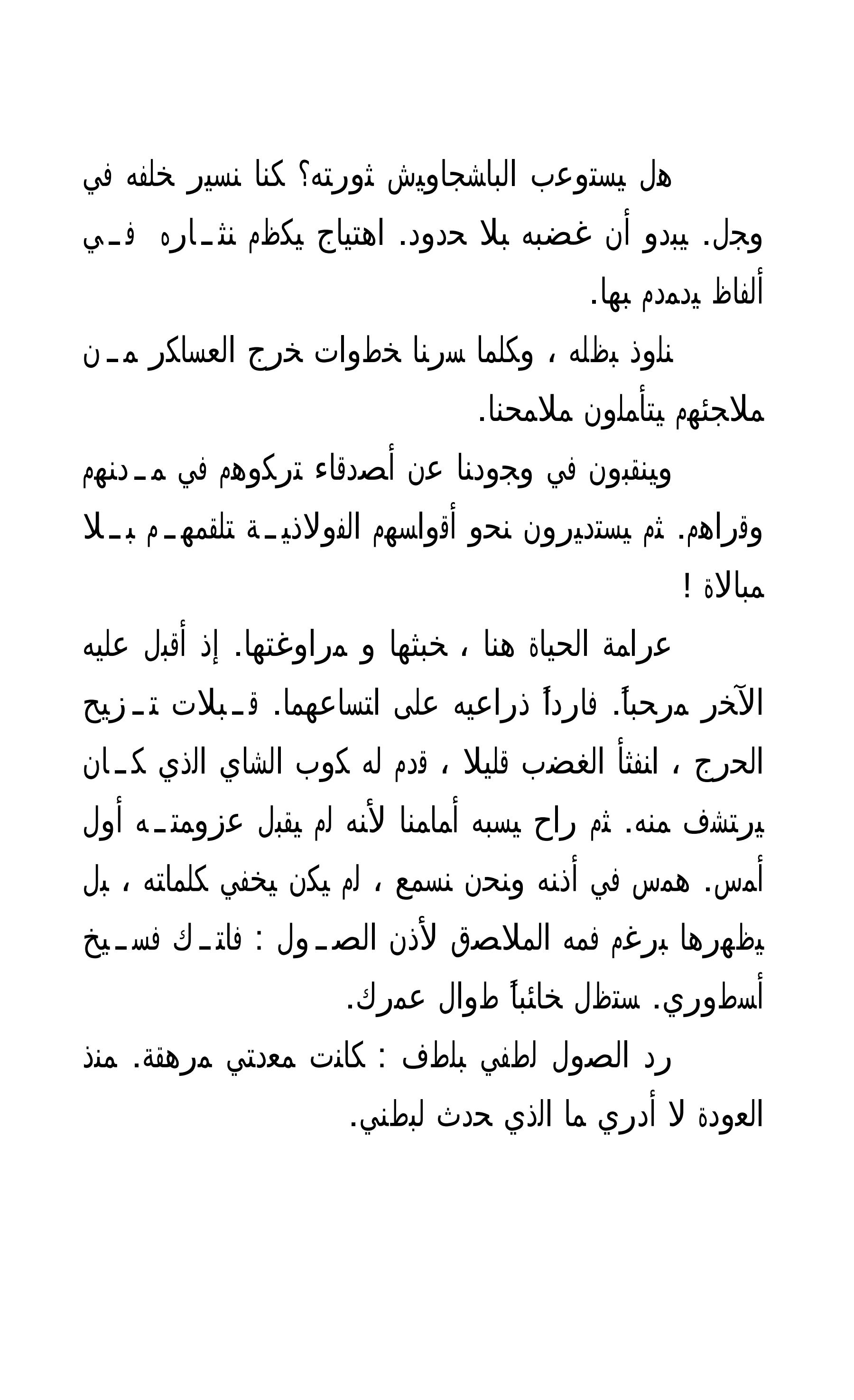
ذهبنا إلى السرية الثانية عند الحد الأيمـن لفصـيلة الهاون الثالثة.

طلبنا من الباشجاويش في أدب جم أن يعطينا ثلاثـاً من قطع الصاج المتعرج.

بنبرات زاعقة طلب من الشربتالي الذي تحدث نيابة عنا أن يحضر ورقة بتوقيع الملازم أول فرج.لكننا لم نـره بعد. سمعنا اسمه يتردد ولم نتعرف عليه حتى الآن.

عدنا نجرجر خيبة أملنا. رآنا الصـول لطفـي فـي الطريق إلى ملجأه. قابلنا في منتصف المسافة. قالهـا كلمـة واحدة وسبقنا : تعالوا معى !

كان يبدو عليه أنه غاضب. فيما أتصور فإن مشاجرة هائلة ستحدث الآن ، سينفجر فيه ، ويلوح له بيده ، وينتـزع ألواح الصاج قسراً بعد أن يلقنه درساً قاسياً لن ينساه. هكـذا قالت خطواته المتحفزة والمستفزة !



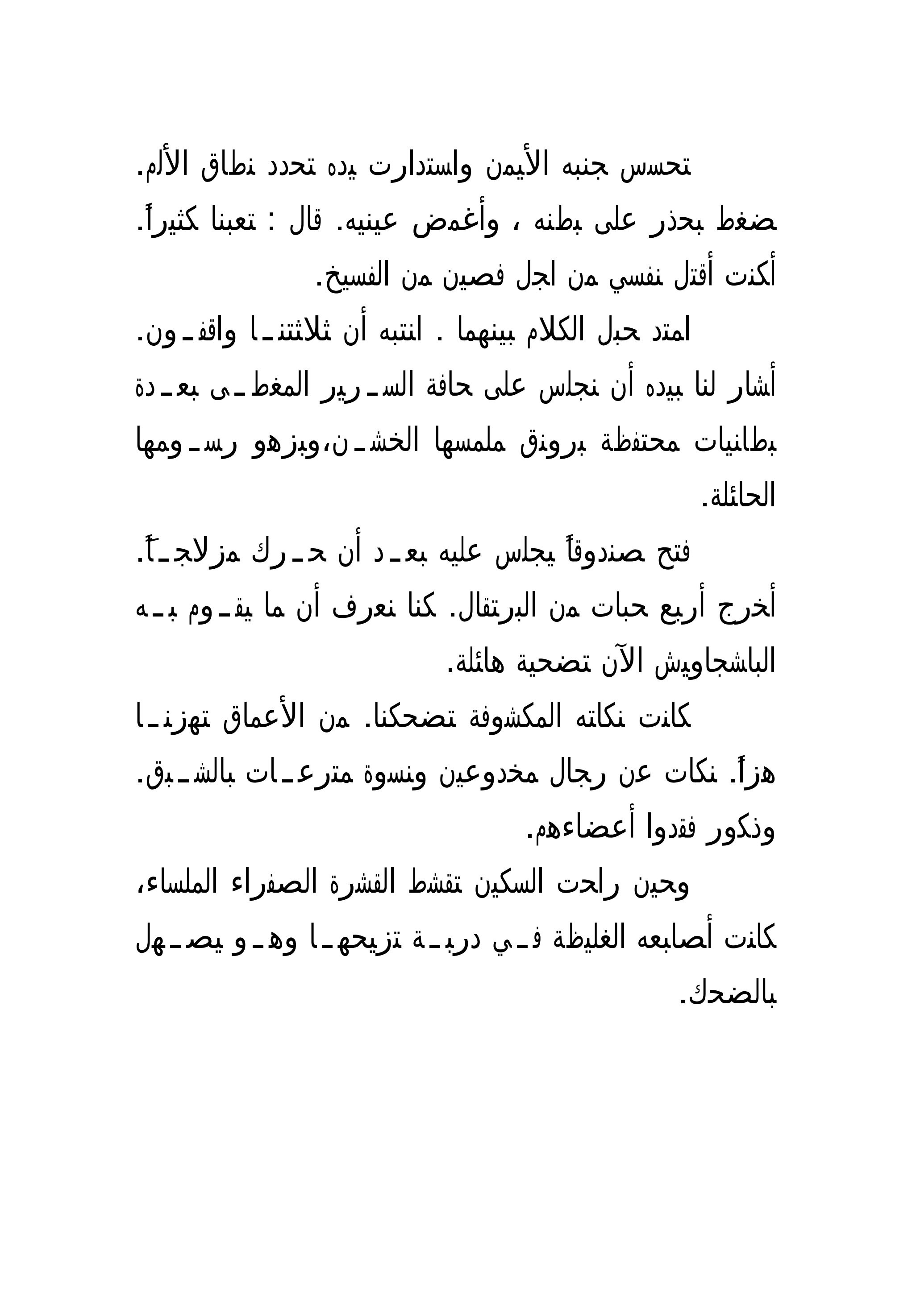
هل يستوعب الباشجاويش ثورته؟ كنا نسير خلفه في وجل. يبدو أن غضبه بلا حدود. اهتياج يكظم نثـاره فـي ألفاظ يدمدم بها.

نلوذ بظله ، وكلما سرنا خطوات خرج العساكر مـن ملاجئهم يتأملون ملامحنا.

وينقبون في وجودنا عن أصدقاء تركوهم في مـدنهم وقراهم. ثم يستديرون نحو أقواسهم الفولاذيـة تلقمهـم بـلا مبالاة !

عرامة الحياة هنا ، خبثها و مراوغتها. إذ أقبل عليه الآخر مرحباً. فارداً ذراعيه على اتساعهما. قـبلات تـزيح الحرج ، انفثأ الغضب قليلا ، قدم له كوب الشاي الذي كـان يرتشف منه. ثم راح يسبه أمامنا لأنه لم يقبل عزومتـه أول أمس. همس في أذنه ونحن نسمع ، لم يكن يخفي كلماته ، بل يظهرها برغم فمه الملاصق لأذن الصـول : فاتـك فسـيخ أسطوري. ستظل خائباً طوال عمرك.

رد الصول لطفي بلطف : كانت معدتي مرهقة. منذ العودة لا أدري ما الذي حدث لبطني.



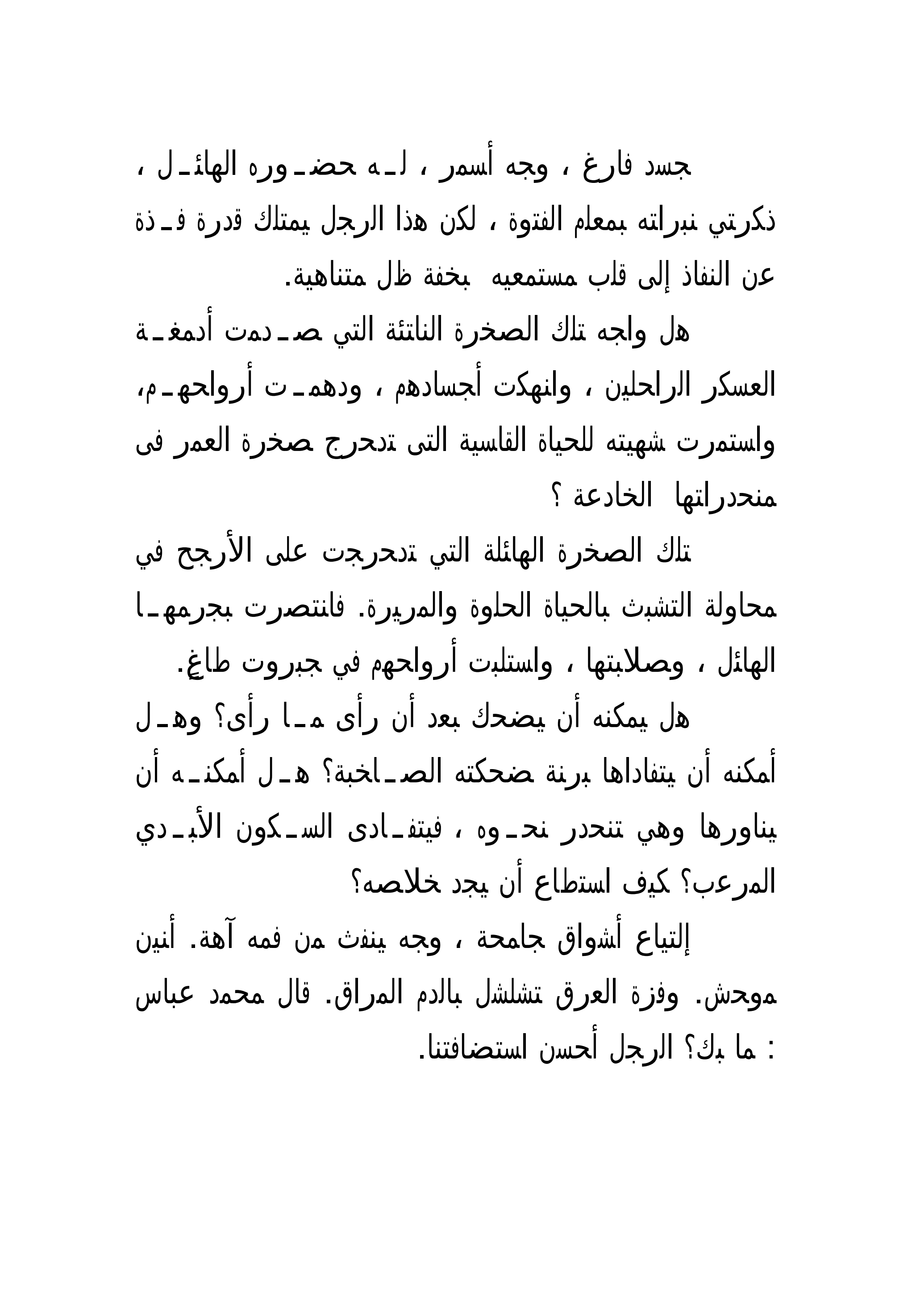
تحسس جنبه الأيمن واستدارت يده تحدد نطاق الألم. ضغط بحذر على بطنه ، وأغمض عينيه. قال : تعبنا كثيراً. أكنت أقتل نفسي من اجل فصين من الفسيخ.

امتد حبل الكلام بينهما . انتبه أن ثلاثتنـا واقفـون. أشار لنا بيده أن نجلس على حافة السـرير المغطـى بعـدة بطانيات محتفظة برونق ملمسها الخشـن،وبزهو رسـومها الحائلة.

فتح صندوقاً يجلس عليه بعـد أن حـرك مزلاجـاً. أخرج أربع حبات من البرتقال. كنا نعرف أن ما يقـوم بـه الباشجاويش الآن تضحية هائلة.

كانت نكاته المكشوفة تضحكنا. من الأعماق تهزنـا هزاً. نكات عن رجال مخدوعين ونسوة مترعـات بالشـبق. وذكور فقدوا أعضاءهم.

وحين راحت السكين تقشط القشرة الصفراء الملساء، كانت أصابعه الغليظة فـي دربـة تزيحهـا وهـو يصـهل بالضحك.



جسد فارغ ، وجه أسمر ، لـه حضـوره الهائـل ، ذكرتي نبراته بمعالم الفتوة ، لكن هذا الرجل يمتلك قدرة فـذة عن النفاذ إلى قلب مستمعيه بخفة ظل متناهية.

هل واجه تلك الصخرة الناتئة التي صـدمت أدمغـة العسكر الراحلين ، وانهكت أجسادهم ، ودهمـت أرواحهـم، واستمرت شهيته للحياة القاسية التى تدحرج صخرة العمر فى منحدراتها الخادعة ؟

تلك الصخرة الهائلة التي تدحرجت على الأرجح في محاولة التشبث بالحياة الحلوة والمريرة. فانتصرت بجرمهـا الهائل ، وصلابتها ، واستلبت أرواحهم في جبروت طاغٍ.

هل يمكنه أن يضحك بعد أن رأى مـا رأى؟ وهـل أمكنه أن يتفاداها برنة ضحكته الصـاخبة؟ هـل أمكنـه أن يناورها وهي تنحدر نحـوه ، فيتفـادى السـكون الأبـدي المرعب؟ كيف استطاع أن يجد خلاصه؟

إلتياع أشواق جامحة ، وجه ينفث من فمه آهة. أنين موحش. وفزة العرق تشلشل بالدم المراق. قال محمد عباس : ما بك؟ الرجل أحسن استضافتنا.

جاء الباشجاويش محي الدين ، وأخـرج الألـواح بنفسه ، ودفعها نحونا : كله سلف ودين. أغلق مخزنه. ربت على كتف الصول لطفي : دعنا نراك يا رجل.

ثم أطلق نكتته الأخيرة فكادت أنفاسنا تتوقف من شدة الضحك ، حتى أن عباس المـاجن اسـتلقى علـى ظهـره. والشربتالي المتزن أمسك قلبه. وكان الأمر يتعلق بفحول من الرجال خدعتهم فتيات ماكرات. هو الاشتجار بـين الرجـل والمرأة يأخذ صيغته اللفظية ، ويطحن الجنسين سـوياً إلـى الأبد حيث لا غالب ولا مغلوب !

في ذلك المكان الموحش بدت نكاته متعـة مدهشـة غمرت مشاعرنا بالدفء. وحين عدنا إلى الدشمة انحنينا نملأ الشكائر بالرمال ، ونصنع قوائم الأسرة ، ثم نضع الصـاج ونثبته كلما أمكن ، نملأ الفجوات بالرمال أيضـاً. ونسـوي أطراف المشمع الأخضر الذي كاد يبلى من كثـرة تزحيـف ساحات التدريب بالمعادي في الصباح الباكر !

كانت الكواريك أمامنا. جرحت أصابعنا ، ودخلـت ذرات الرمال الدقيقة في أعيننا. قبل أن يهل الليل بعتمته كنا

قد انتهينا. وما كدنا نلقي بأجسادنا ونتهيأ للنوم على الأسـرة حتى سمعنا صوته يأمرنا بالجمع.

ارتدينا أفرولاتنا التي خلعناها لتونا ، وشبكنا القايش. اندفعنا نتعثر في أرجاء الملجأ الذي لم نتعرف على أبعـاده بعد. كنا كفئران معامل خرجت تواً من المكان . بكل صرامة أمرنا أن نصلح زينا. اختلفت نبرته الآن. كنا ندخل في سكك العسكرية بتؤدة : " مكتب الملازم أول فرج. معتداً مارش ! "

(٤)

كانت معرفتي به علامة فارقة. بعدها لم اعد وحدي في تلك الكتيبة البائسة. كأنه يسـطو علـى عـالم الأطفـال والبراءة بغاية الرفق واللطف. يمتح منه ما يسع الدنيا كلهـا من دفء ونقاء. قال لي : أريد الحديث معك !

عندما اقتادنا الصول لطفي لرئاسة الكتيبة قـاطعين الطريق الأسفلتي المعاكس كان النهار يحتضر. وكان القمـر يكاد نوره يطفر خاف السحب المتثاقلة. سرنا خلفه صامتين. عابرين الحفر والملاجئ وجذوع الأشجار المتفحمة ، ودوائر الأسلاك الشائكة التي لم يصبها الصدأ بعد. ننظر إلى التخوم البعيدة حيث تتقاطع أعمدة المـدافع مـع جـذوع النخـل ، وتتداخل الأبنية الطينيـة الواطئـة مـع هياكـل الـدبابات والبرمائيات (الباكيهات) بلونها الزيتي المميز.

قال عبارة واحدة وهو يسبق خطواتنا المتثاقلة : سيتم توزيعكم على الفصائل وهناك سيتسلم كل منكم سلاحه.

لم نعقب. اكتفينا بهز رؤوسنا. كان الليل يناوش آخر ما تبقى من فلول النهار. لمحت قطاً أسوداً مرقطاً بالبيـاض

يعدو أمام إحدى العوائق الفولاذية للدبابات. كان وحده يعـدو يطارد الطوى والصمت الموحش.

متى تفض الأيام سترها ، وتعرفني بالذات حقيقة ما حدث في تلك الأيام الفائتة؟

عندما أطأ الصمت وأسألهم. كانوا يديرون وجوههم، وينشغلون بأشياء وهمية. كأنني سأفتح باباً للجحيم. حـاولوا دائماً أن يغلقوه. والغريب أن هذا كان يحدث دونمـا اتفـاق بينهم.

فقط كنت ألمح هذا الوميض الخاطف الذي ينبثق في لمح البصر فيغشي الوجوه بأسى شفيف موجع ثم سرعان ما ينطفىء فى إبهام غريب !.

وميض يصعد معراج النجوم ، ينأى عن الأرضـي الزائل ، له لون الأحمر.

قلت : ليس دائماً يمكنه السطوع. الأحمر ليس دائمـاً لون الدم. في تلك الآونة سوف يصبح بحثي عن تلك الحقيقة مهمازاً للريح.

اندفع إلى آخر المدى بحثاً عن المصـائر. مفارقـاً صفحة النهر ، وعيدان البوص ، وأشجار السيسبان ، وأردية

الكتان ، ولفائف البردي ، ونقوش الجرانيت. سـوف أقـتحم خلوة أيامهم الجوفاء ، وأفتش عن السرى الغامض والمختبئ. أنصت إلى ذلك الأنين. لن أدع العتمة هي التي تبـوح لـي بأسرارها. لا أبحث عن طين وماء، برتقـال وعصـافير ، سمك و مياه نهر .

إن ما يضنيني ويطاردني في الصحو والمنـام هـو ملمس العرق ، وتفصد الدم ، وارتجافة الجفـون ، ونـبض عروق : ثمة دفقات جنائزية تليق بالحياة !

قال – ولم يمهلني لألملم أشلاء نفسـي المبعثـرة – بخشونة : جماعة قف !

كنا أمام عنبر عتيق له سقف القرميد الحمر الغـارق حتى الثمالة فى غبار بلا نهاية. الضوء شاحب في المكـان. والعتمة فرضت سطوتها. على مرمى البصر كـان جنـود الحراسة في شدتهم الكاملة يعارضون السائرين ، ويـدققون في هويتهم :

قف. اثبت محلك. للأمام تقدم. كلمة سر الليل.

وهل يحتاج الليل لكلمة سر كـي يقـتحم الملاجـئ والعنابر والساحات المغروسة بالعساكر؟

تركنا وأسرع للداخل. رأيناه يؤدي التحية ، ويخبـره بأن العساكر الجدد قد وصلوا في الخارج.

استبقاه معه. أجلسه أمام مكتبـه الصـاج المغطـى بأوراق صحف قديمة. بينما الباب الموارب يغطـي نصـف جسده ويظهر النصف الآخر. وبخار خفيف يتصـاعد فـى حلقات كثيفة. خمنت أنه الشاي. كانت أحاديثهم خافتة.

هل انبجست المياه من تحت أقـدامهم حـين سـقط الشهداء مضرجين في العقيق؟

لا أضرحة ، ولا شواهد. لا أهلة خضراء. مواجهـة المدى المطلق بين الحياة والموت. هل يعرف السـأم بحثـه اليومي عن أرواح يحصدها؟ هل يعنيه تلك النظرة المنطفئـة لحظة اكتمال الدائرة وتمام الأفول؟

السماء تبدو سحبها قاتلة ومتهجمة. كنت أنظر إليـه وأحدثه : يا قمر. هل رأيت كل شيء؟ هل سـقط " محمـد الدالي " أمامك في حفرة مدفع؟ هل ثقبت طلقـات الفيكـرز جسده. أنطق الشهادتين أم تكسرت الأحرف على شفتيه قبـل أن يكملها. أفكر أساساً في أنه الموت الأسود الذي يضـرب بجناحين هائلين تلك الزبالة الواهنة المشتعلة بالحياة !

كان الرجال يتقدمون بإصرار. ينكفئون. يعـاودون القيام والزحف. التعثر والنهوض. المالك اك.. اك.. اك.. هي المصائر يمكنك الآن أن تنصت لصوت الدم يخر ، ويحفـر مجراه في الأصفر – الرمل قبل أن يتخثـر يرسـم أشـكالاً سأعرف مغزاها بإجهاد عقلي ، وبتصوف سأثابر كي أصل إلى حدوده. أتماس مع الوجد. بلا يقين سأبدأ وإلـى اليقـين سأنتهي.

لا يجب الإنصات لصوت العقل وحده. زخات المطر تهمي فوق أجسادنا. التوت لا يكون مع المطر. حافة الورق الأخضر ، أنصال طرية مسننة. انتهى !

أطل بوجهه. قال الضابط : أتركهم قلـيلاً. لا تهـتم بأمرهم.

هى المؤانسة. حين كنت أرتق " الـزلط " الـذي أعطوه لي. سمعت أقدامهم. مجروحون بعذاب الكتمان. هـل أبوح بالذي عرفت؟

خرج إلينا الصول تهيأ للحديث. فجأة سمعنا ارتطـام مباغت. كان جسد الشربتالي قد أصـابه الإرهـاق تمامـاً. انحنينا نداك أطرافه. كنا منزعجين. أما جنود الحراسة فقـد

راحوا يسترقون النظر ببرود قاتـل. الصـول نفسـه راح يستحثنا أن نسرع بإفاقته حتى ننتهي من الأمر على خير !

كان صدره يعلو ويهبط بصعوبة. أنفاسه مكروشـة. قلت : ماء.

واكتشفت أن زخات المطر تقوم بالمهمة. كان محمد عباس يدلك أذنيه. فتح عينيه بصعوبة غير مدرك للمكـان. تأمل وجوهنا فزعاً. همست : قم يا أحمد قم.

كان وجهه رغم الضوء الشاحب باهتاً ومزرقاً. قام. تهيأ للدخول.

في جلسته سأل الصول حين صرنا في المواجهـة : لماذا تأخرت؟

عصف بنا السؤال. صرت مصغياً لهمهمة الأحرف المعذبة : لا شيء !

سألنا عن الأسماء والمهن والبلاد التي منهـا أتينـا. حدثنا بامتعاض عن الخدمة والجبهة وطبيعة الحياة هنا.

كنا قد رأينا ما فيه الكفاية. وكانت الخوذ تضغط على رؤوسنا والحزام الجلدي ملتصق بالعنق.

سأل الصول : العجز في أي الفصائل؟

أخبره بأن أطقم الفصيلة الثانية تحتاج لعساكر جـدد كي يمكنها الاشتباك مستقبلاً مع الأهداف المعادية. وأضـاف أن الذخائر قليلة.

كظم الملازم أول فرج غيظه صرخ فيه : هذا لـيس وقت ذخائر !

قبل أن نخرج. حين تأهبنا لتأدية التحيـة العسـكرية جاء من الخارج حاملاً عصاه الأبنوس بقبضة العاج. كـان الرأس الناعم المصقول يلمع تحت ضوء البطارية الموضوعة في منتصف العنبر. تفحصنا وأعاد إلقاء الأسئلة.

راح يسبنا وأمرنا أن نخلع الخوذ. أمسك شعر رأسي وانتزع خصلة. كرر نفس الشيء مع أحمد. حين رفع محمد عباس يده ليضغط خصلة نافرة في مقدمة الرأس صفعه بقوة : انتباه يا " نمرة " !

قلت في نفسي هذا نذير شؤم. وتلـك روح مجهـدة أهلكتها الحرب. منذ البدء حلمت بامتطاء فرس برتقـالي ، والإبحار في غبش الصباح المندي البكر بحثـاً عـن أرواح الشهداء.

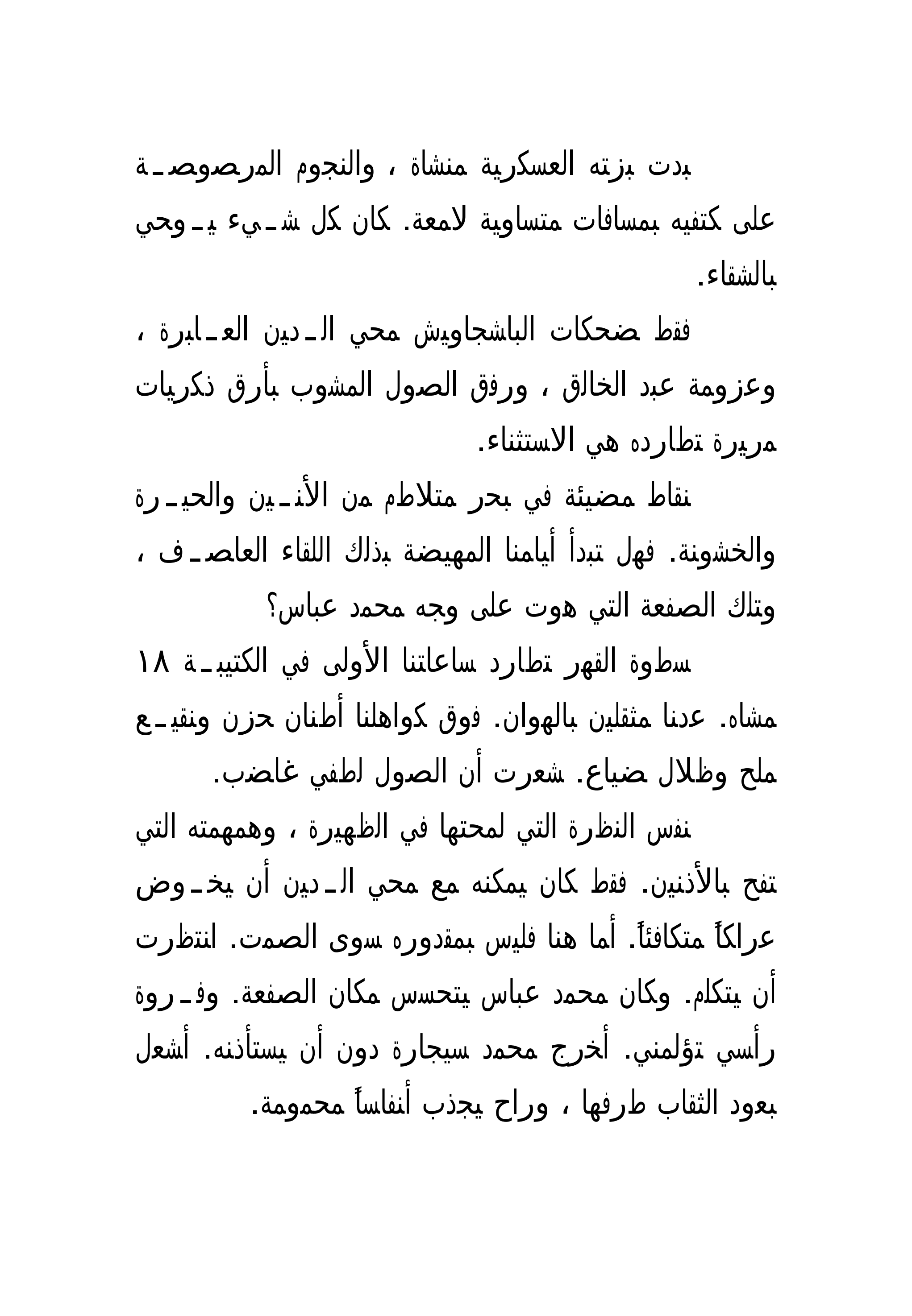
كنت أريد أن أسمع فضفضتهم. وأدركت أن الأشجار التي تكتم خضرتها في الدفرسوار، وتداري زهوها في انكسار، تحمل أغصانها زغب الطيور الأصفر في المنحنيات الدافئة. إن أعواد القش ترتج عند إطلاق رصاصة بندقية. فما بالك بقذائف الألف رطل؟

كانت النجوم في السماء تومض وتنطفئ. تلمع وتخبو. الزخات وحدها لا تنقطع. ليس لها نفس الإصرار الوحشي القديم. نسمع الصوت في الخارج، وخطوات الجند. معارضتهم للعابرين بنبرة لا تخلو من كل حماس.

ذلك السموق الذي رأيته في عينيه أبهرني: اسمك محمد؟!

قال النقيب محمد عادل وهو يلعن أيامنا، وآباءنا والبلاد التي منها أتينا: أفيقوا. جيش "حليمة" هذا. احلقوا شعركم.

التفت إلى الصول لطفي وجز على أسنانه: كل عسكري يأخذ الليلة خدمة مزدوجة!



بدت بزته العسكرية منشاة ، والنجوم المرصوصة على كتفيه بمسافات متساوية لامعة. كان كل شيء يوحي بالشقاء.

فقط ضحكات الباشجاويش محي الدين العابرة ، وعزومة عبد الخالق ، ورفق الصول المشوب بأرق ذكريات مريرة تطارده هي الاستثناء.

نقاط مضيئة في بحر متلاطم من الأنين والحيرة والخشونة. فهل تبدأ أيامنا المهيضة بذلك اللقاء العاصف ، وتلك الصفعة التي هوت على وجه محمد عباس؟

سطوة القهر تطارد ساعاتنا الأولى في الكتيبة ١٨ مشاه. عدنا مثقلين بالهوان. فوق كواهلنا أطنان حزن ونقيع ملح وظلال ضياع. شعرت أن الصول لطفي غاضب.

نفس النظرة التي لمحتها في الظهيرة ، وهمهمته التي تفح بالأذنين. فقط كان يمكنه مع محي الدين أن يخوض عراكاً متكافئاً. أما هنا فليس بمقدوره سوى الصمت. انتظرت أن يتكلم. وكان محمد عباس يتحسس مكان الصفعة. وفروة رأسي تؤلمني. أخرج محمد سيجارة دون أن يستأذنه. أشعل بعود الثقاب طرفها ، وراح يجذب أنفاساً محمومة.

كان يسبقنا ورآه فلم يعلق. إنه يدمدم بالغضب. يتأرجح بين أن يبتلع الإهانة التي لقيها عساكره ، وبين أن يعلن ثورته.

قناع خزفي حاول أن يضعه على وجهه طيلة المسافة بين رئاسة الكتيبة وبين موقع الفصيلة الثانية تحت أشجار التوت.

حين وصلنا الموقع تركنا. اندفع إلى ملجأه. سمعنا سباباً ووعيداً ، وصوت قبضته تحطم شيئاً في الداخل. حين خرج هادئاً بلا ثورة أمرنا وصدى صوته يمسح تعبنا :

لا خدمات الليلة. استريحوا تماماً. انتظموا فقط في طابور الصباح.

قبل أن أخلع خوذتي وألقي بجسدي المنهك على سريري الخشن كان يقف في فتحة الملجأ. مد لي يده ، صافحته مستغرباً. قال لي : لا تعرفني؟!

كانا ممدين في نفس الدشمة ، وقد استغرقتهما نوبة النوم. وكأنى بي أعثر على حلمي البرتقالي القديم. بينما الريح تطوح الأوراق الجافة بالخارج. جلس قبالتي : من أي بيت أنت؟

من سوق الحسبة أم الشرباصي؟

من حارة البركة أم المتبولي؟

قمت أحتضنه : ذكرتني بالذي فارقـت ! قـال : لا تخف. سوف تعبر عنق الزجاجة بسلام. الأيام الأولى تكون هكذا بعدها تهدأ الأمور.

هل كان وجهه حلماً يطيب خاطري؟ هل أتى الملجأ فعلاً وطمأن قلبي المعذب؟ وتلك اللفافة التي مد يده بها فـي استخفاء أكانت تحمل قطعة الهريسة حقاً؟ ومن أين تراه أتى بها؟

قلت وصوت الريح يدمدم في العراء ، فأسمع نحيب الأشجار : هي أيام قاسية.

قال يهز رأسه : أنت لم تر شيئاً.

صحت فيه : وأنت. ماذا رأيت؟ حدثني !

هل غفوت في وجوده؟ من الذي خلع حذائي وغطى جسدي بالبطانية الصوف، وستر أجساد الرفاق ومضى؟

لقد مضى في خفاء متشحاً بالليل ، ونقيق الضفادع ، وأنات الثمار قبل تساقطها. لم أعد وحدي في تلك الكتيبة.

كان محمد مصطفى حمام حكمدار طاقم الرشاشـات ١٢,٧ مم/ م. ط معي.

كان وسيماً وطيباً يليق بالموت. لكنه فـي اللحظـة الحاسمة آثر أن يتركه، وأفلته من قبضـته لـيقص علـي حكايات الرفاق.

هؤلاء الذين هوت أجسادهم الطاهرة تطلب أن ترى عيونهم صورة الأحباب قبل أن يذهبوا. وحنـاجرهم تطلـب رشفة ماء تغالب الظمأ. بلا شواهد. بلا قبور. بـلا أوسـمة مضوا في طريقهم إلى الأعالي. بلا سرادقات ، ولـم تكـن هناك طقوس واجبة.

فقط الصمت احتواهم. ليسوا بأوليـاء. ليسـت لهـم شفاعة ، ولن تضج الحناجر في الموالد بذكر منـاقبهم. فـي مواسم موقوتة لن تتطوح أجساد هزيلة في حبهم.

أهل الطرق وأصحاب الخطوة سيمضون في الأعياد بالصواري الملونة التي تحمل في نهايتها قطعاً من الحريـر المزخرف. لن يبوحوا بأسمائهم.

ليست على أجسادهم خرق متهدلة. وشواربهم ليست مسترسلة. كانوا رجالاً بحق. ولعـون بالنسـاء والسـجائر

الرخيصة ،برقصات تحية كاريوكا، وصـوت عبـد الحلـيم حافظ.

رمس من رمال ، وصمت هو المكان. هـل تقـص علي ما كان أم تكتفي بتلك النظرة الوادعة؟

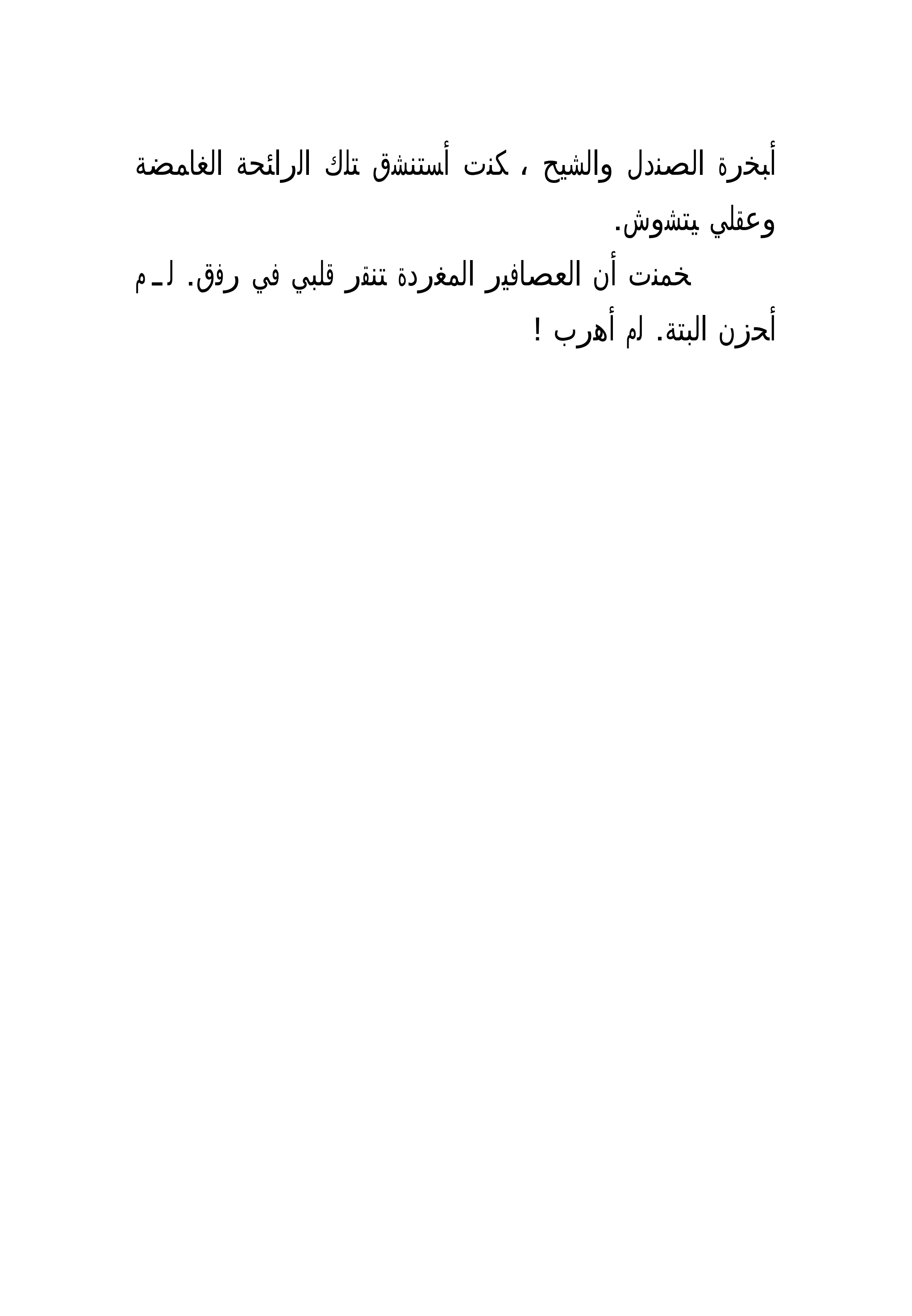
هل يستحق محمد عباس تلك الصفعة؟ وما سرها؟

هل اجترأ وفض خاتم السر بنظرة ثاقبة. وهل يصبح ذنبه أنه لم يحارب ولم تخترقه الشظايا ، وتغربله ومضـات باهرة من لهيب الفزع ، وذكريات الراحلين؟

هل لي أن أتجرد من غضبي وأن أبحث في البـراح وخلف ظلال الأعمدة الفضية وأنـين المصـابين وأطلـس الجغرافيا ومجلدات التاريخ عن أسباب مقنعة لذلك الرحيـل المباغت الذي برد هياكل الأجساد ، لغتهم ، أحلامهم التي لها ريق الورد؟

وهل لي أن أقف الآن منتشيا لأنني أخطو في يقـين خطوات مؤكدة وراسخة نحو صداقة بطل لم يضع الأوسمة.

علق فقط على شفتيه ابتسامة لهـا عذوبـة اللـون السماوي المشوب بالأزرق. تركني بعد أن أشعل في الجـو



أبخرة الصندل والشيح ، كنت أستنشق تلك الرائحة الغامضة وعقلي يتشوش.

خمنت أن العصافير المغردة تنقر قلبي في رفق. لـم أحزن البتة. لم أهرب !

(٥)

كان كل شيء يغرق في الصمت ، وبدت النجوم مثل فوانيس مشتعلة معلقة فوق رؤوس العساكر ، لكن أحداً منهم لم يكن يملك القدرة ليراها.

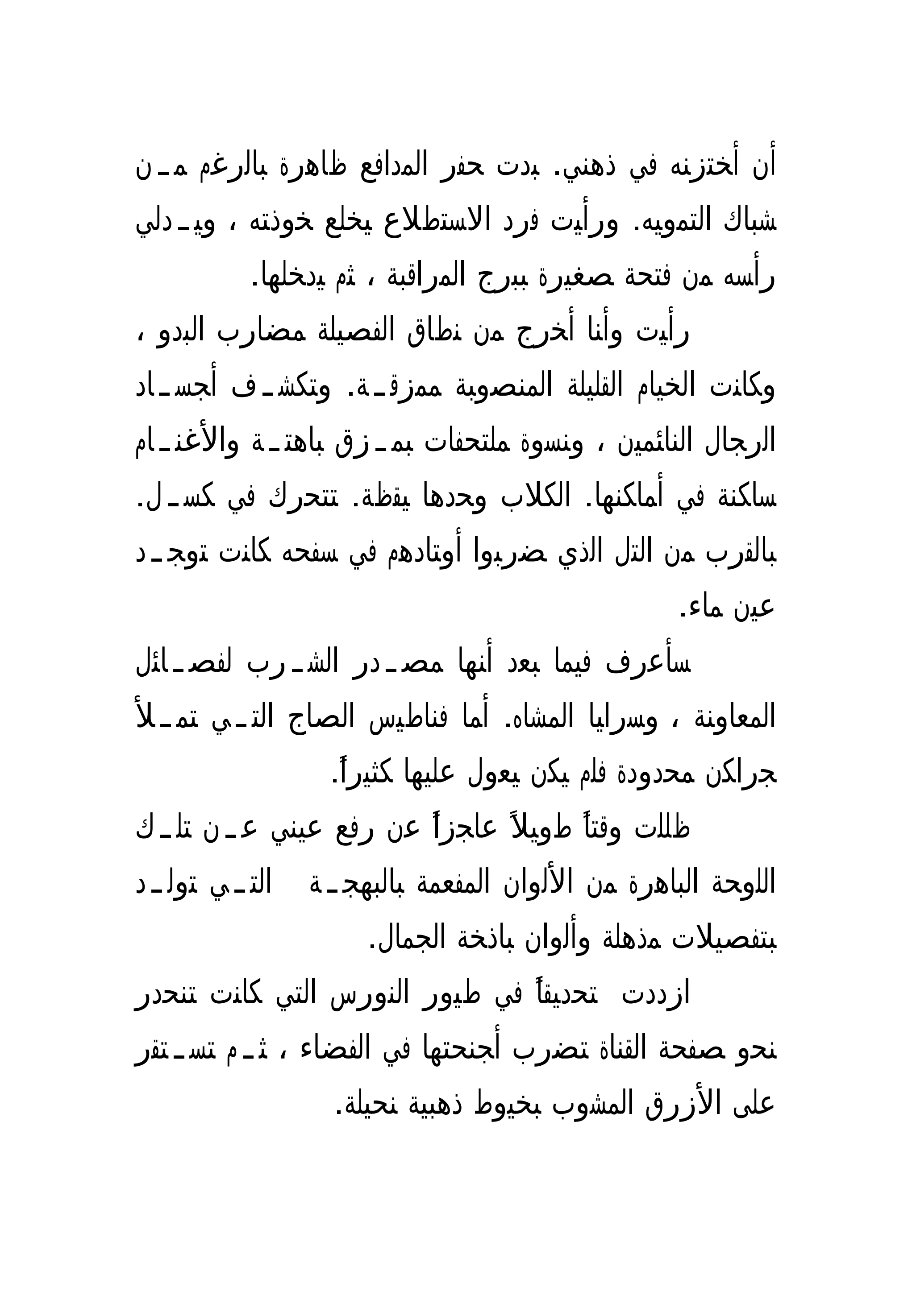
وفيما كنت أتقلب على فراشي القاسي فكرت : يجب أن آخذ نفسي بالشدة !

كان الفجر يولد في هدوء. والضوء اللطيف يرسـل طلائعه تونس الموقع.

لقد رأيت أنه من الضروري أن أتعود تلـك الحيـاة الخشنة. وألا أبحث في التفصيلات – كما تعـودت – عـن أسباب ودوافع.

نهضت ، وارتديت أفرولي الكاكي ، وكان الشربتالي وعباس راقدين. ولم أدر ما الذي دفعني للنهـوض البـاكر بالرغم من إرهاق الليلة الماضية؟

قمت أتجول في المكان المغسول بالندى. كانت نوبة حراسة الشينجي في آخرها. وحركة السيارات على طريـق المعاهدة معدومة. أنظر إلى كل شيء للمرة الأولى ، وأحاول



أن أختزنه في ذهني. بدت حفر المدافع ظاهرة بالرغم مـن شباك التمويه. ورأيت فرد الاستطلاع يخلع خوذته ، ويـدلي رأسه من فتحة صغيرة ببرج المراقبة ، ثم يدخلها.

رأيت وأنا أخرج من نطاق الفصيلة مضارب البدو ، وكانت الخيام القليلة المنصوبة ممزقـة. وتكشـف أجسـاد الرجال النائمين ، ونسوة ملتحفات بمـزق باهتـة والأغنـام ساكنة في أماكنها. الكلاب وحدها يقظة. تتحرك في كسـل. بالقرب من التل الذي ضربوا أوتادهم في سفحه كانت توجـد عين ماء.

سأعرف فيما بعد أنها مصـدر الشـرب لفصـائل المعاونة ، وسرايا المشاه. أما فناطيس الصاج التـي تمـلأ جراكن محدودة فلم يكن يعول عليها كثيراً.

ظللت وقتاً طويلاً عاجزاً عن رفع عيني عـن تلـك اللوحة الباهرة من الألوان المفعمة بالبهجـة التـي تولـد بتفصيلات مذهلة وألوان باذخة الجمال.

ازددت تحديقاً في طيور النورس التي كانت تنحدر نحو صفحة القناة تضرب أجنحتها في الفضاء ، ثـم تسـتقر على الأزرق المشوب بخيوط ذهبية نحيلة.

بمحاذاة القناة ثمة سواتر في الضفة الغربيـة مليئـة بفوارغ الطلقات ، وعلب التعيين ، ودانات لم تنفجر. ازددت تأكدا أنني لا أحلم وأن الطبيعة بديعة أما البشر فهم قاسون.

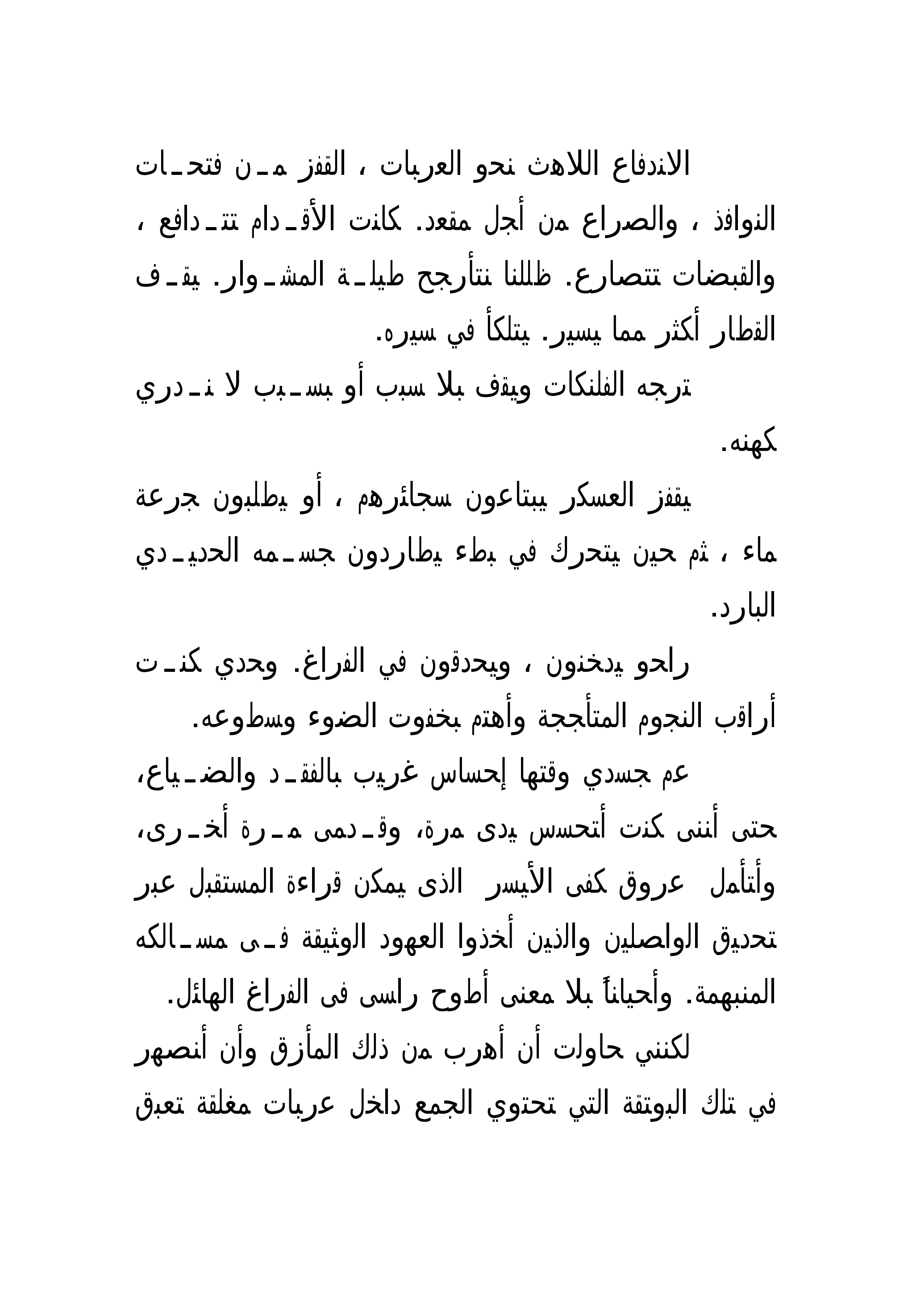
ما الذي يمكن أن تساويه الحياة دون أن تمتلئ برغبة حقيقية في معانقة الأشياء الجميلة ، ونفحات الطبيعة الآسرة؟

أشجار قصيرة لا أعرف أسماءها ، ونباتات معبـأة بالعصير الحي. لكن الأصفر هو الذي يفرض سطوته بقوة.

امتزجت أحلامي بأشواق هائلة ونبـوءات غامضـة بهتافات ترتج في أعماقي دون أن يفلح عقلي في فك شفرتها: أدعية أم نداءات للعتق من قيود يرسف فيها الجسد؟

كان قلبي يخفق وأنا أستعيد مشاهد الأيـام الأخيـرة المتتابعة.

اللوريات تقذف بنا في محطة رمسيس أمام التمثـال الجرانيتي العملاق ثم الانتظار المضني للقطـار الحربـي ، ورجال الشرطة العسكرية يطاردون الجند المخالفين للزي أو السلوك المنضبط. كنا نختفي وراء أعمدة الخرسانة ، وخلف أكداس البضاعة ، وبين أجساد الركاب المدنيين. نخشـى أن نقع في قبضتهم التي لا ترحم.



الاندفاع اللاهث نحو العربات ، القفز مـن فتحـات النوافذ ، والصراع من أجل مقعد. كانت الأقـدام تتـدافع ، والقبضات تتصارع. ظللنا نتأرجح طيلـة المشـوار. يقـف القطار أكثر مما يسير. يتلكأ في سيره.

ترجه الفلنكات ويقف بلا سبب أو بسـبب لا نـدري كهنه.

يقفز العسكر يبتاعون سجائرهم ، أو يطلبون جرعة ماء ، ثم حين يتحرك في بطء يطاردون جسـمه الحديـدي البارد.

راحو يدخنون ، ويحدقون في الفراغ. وحدي كنـت أراقب النجوم المتأججة وأهتم بخفوت الضوء وسطوعه.

عم جسدي وقتها إحساس غريب بالفقـد والضـياع، حتى أننى كنت أتحسس يدى مرة، وقـدمى مـرة أخـرى، وأتأمل عروق كفى الأيسر الذى يمكن قراءة المستقبل عبر تحديق الواصلين والذين أخذوا العهود الوثيقة فـى مسـالكه المنبهمة. وأحياناً بلا معنى أطوح راسى فى الفراغ الهائل.

لكنني حاولت أن أهرب من ذلك المأزق وأن أنصهر في تلك البوتقة التي تحتوي الجمع داخل عربات مغلقة تعبق

برائحة التبغ المحروق ، واللعنات ، والضحكات الممرورة ، والشتائم.

قال أحدهم : لو أن معنا امرأة.

تصايحوا مهللين. رد أحدهم بصوت عـال : كثيـر منكم لو انفرد بامرأة لصـفعته بعـد أن تكتشـف حقيقتـه. تتلمظون ، وتخرجون ألسنتكم من أفواه محرومة.

عند اللحظة الحاسمة تندحرون خائبين.

تصايحوا في وجهه أن يسـكت. أغمضـت عينـي فانصبت في عقلي صيحاتهم. حاولـت أن أنحيهـا جانبـاً. حاولت بكل جهد واجب.

حين عدت إلى الدشمة كانت الحركة قد دبـت فـي الموقع. وكان العساكر يخلعون عن أبـدانهم إرهـاق اليـوم الفائت ، ويغمرون وجوههم بحفنات الماء بحساب. وكانـت أجسادهم المنحنية تنفض عن نفسها الكسل.

جاء موعد طابور التمام. وقفـت الأطقـم الثلاثـة للفصيلة الثانية في مواجهة التبة. وعلى مقربة أمتـار مـن ساحة التدريب التي تظلها أشجار المانجو كنـا نقـف فـي

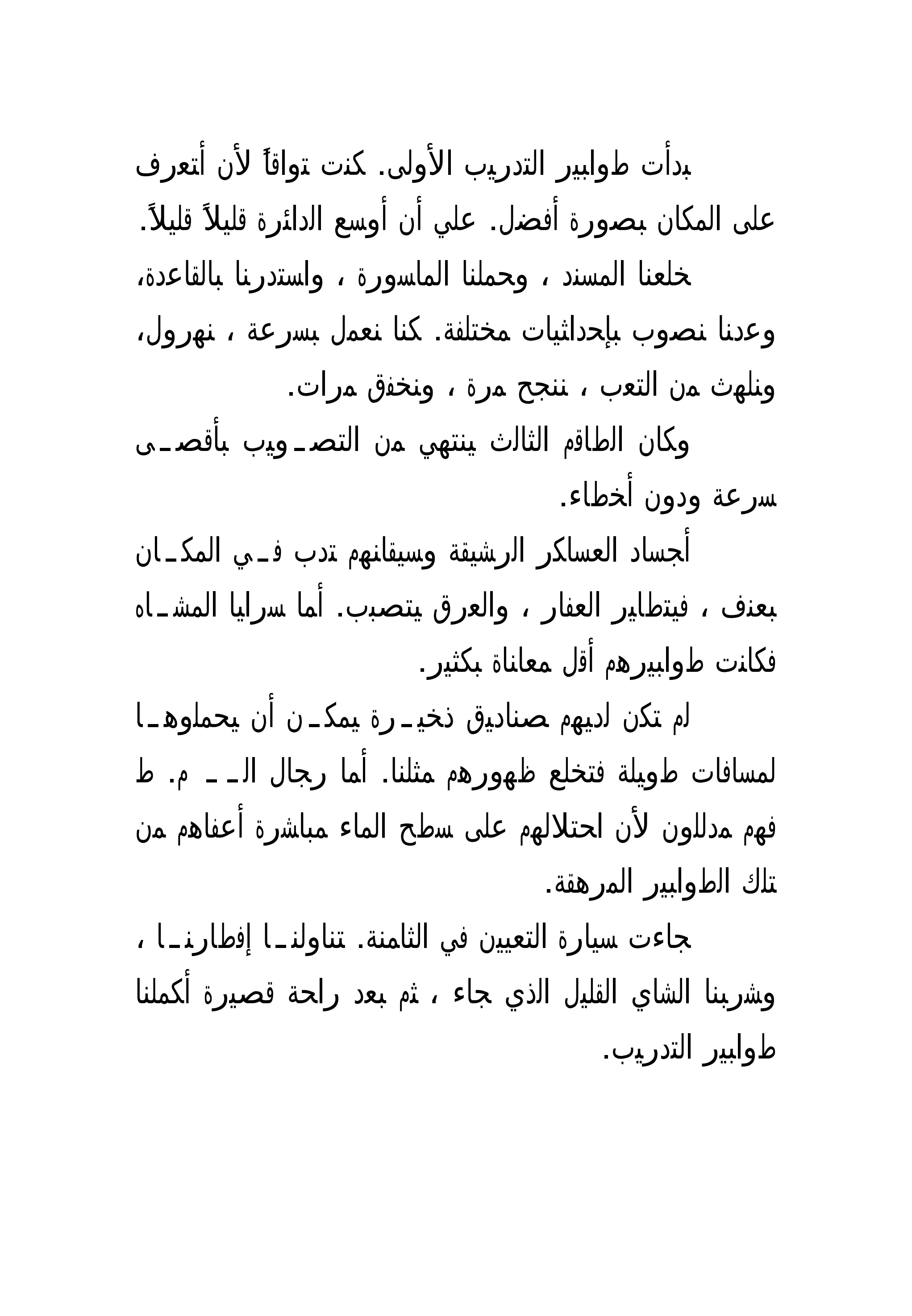
صفوف منظمة لا ننبس ، ننعم بشمس الصباح التي تظلهـا أشجار المانجو.

كنا في ساعات الصباح الأولى. واجهنا محمد عامر حكمدار الطاقم. راح يصرخ فينا بنبرة فاترة : طاقم صـفا. انتباه.

كان معي المغاوري ورزق والسيد جـابر. يتكـون الطاقم من خمسة أفراد صهرتهم الحرب جميعاً إلاي.

أما الشربتالي فقد ألحق بالطـاقم الثالـث ، ومحمـد عباس ألحق هو الآخر بالطاقم الثاني. ارتحت لأننا نعيش في نفس الموقع. لقد خضنا رحلة صعبة ، وتكاتفنا في لحظـات القسوة المفرطة.

من الضروري أن يتعكز بعضنا على البعض في تلك المرحلة. كنت أحدث نفسي وفجأة وقع نظري على قطعـان من الجمال ترعى في السهوب الخضراء أقصـى اليسـار ، ورأيت الخيام الفقيرة متعددة الألوان أمامها تتربـع النسـاء، والرجال قلة يسوقون أغنام قلائل. لقـد قـاموا مـن النـوم ونفضوا عن أجسادهم الصلبة النحيلة بقايا الخمول.



بدأت طوابير التدريب الأولى. كنت تواقاً لأن أتعرف على المكان بصورة أفضل. علي أن أوسع الدائرة قليلاً قليلاً.

خلعنا المسند ، وحملنا الماسورة ، واستدرنا بالقاعدة، وعدنا نصوب بإحداثيات مختلفة. كنا نعمل بسرعة ، نهرول، ونلهث من التعب ، ننجح مرة ، ونخفق مرات.

وكان الطاقم الثالث ينتهي من التصـويب بأقصـى سرعة ودون أخطاء.

أجساد العساكر الرشيقة وسيقانهم تدب فـي المكـان بعنف ، فيتطاير العفار ، والعرق يتصبب. أما سرايا المشـاه فكانت طوابيرهم أقل معاناة بكثير.

لم تكن لديهم صناديق ذخيـرة يمكـن أن يحملوهـا لمسافات طويلة فتخلع ظهورهم مثلنا. أما رجال الـ ـ م. ط فهم مدللون لأن احتلالهم على سطح الماء مباشرة أعفاهم من تلك الطوابير المرهقة.

جاءت سيارة التعيين في الثامنة. تناولنـا إفطارنـا ، وشربنا الشاي القليل الذي جاء ، ثم بعد راحة قصيرة أكملنا طوابير التدريب.

لم أستطع كبح ابتهاجي وأنا ألمح محمد حمـام عنـد الظهيرة يأتي ، ويأخذني من ذراعي.

كان كل من في الفصيلة يعرفه. صاح فيه الصـول لطفي أن يشاركه طعامه. رد بمرح :

" عزومة مراكبية ".

كنا قد انتهينا من التدريب ، وثمة عساكر يتشمسـون وآخرون يستغرقهم البحث عن بقايا جراية في قاع المخل لأن عربة التعيين ستتأخر ، أما الصول لطفي فهو يدخر دائماً ما يسد به رمقه.

سرت معه في نفس الطريق الـذي يتجـه لرئاسـة الكتيبة ، وقرب نهايته انحرف إلى اليسار ، ثم سـرنا بـين أشجار كافور جذوعها محترمة. كانت أعمدة مـن الصـلب تبرز من أحشاء الأرض ، وألواح صاج مثقوبـة بطلقـات قديمة ، وعظام آدمية. أشرت بيدي أسأله. قال بلا اهتمـام : غادروا المكان.. لا تأخذ في بالك.

أخذني من يدى ، وأدخلني دشمته. كانت أكثر عمقاً، وبالقرب من الشاطئ ، حتى أنني لمحت سرطانات صـغيرة تتحرك بمقربة من الرشاشات.

كيف سأستطيع نسيان ذلك المنظر الذي رأيته منـذ قليل. قلت لنفسي ستفقد شجاعتك بهذا التفكير.

قال – يتأمل شرودي – بهدوء هو طبعه : قبضـة الأرض تملكنا جميعاً.

ما الفرق الذي تراه بين أن نكون داخلها أو خارجها؟

ليست هناك في الدنيا سوى فوضى عليك أن تعتادها.

بعينين جاحظتين رحت أحملق في الأشـياء داخـل الدشمة ، وأستعيد كلماته. قلت : هل زرتني بالأمس؟

لم يرد لفوره. ازددت ثقة أنه الذي أتـى. وقبـل أن أعيد سؤالي دخل أفراد طاقمه. عرفني بهم : محمد خطـاب، ورمضان أبو حويلة ، وعزيز سيدهم. كلهم دخلوا الحـرب مثلي.

رحبوا بي ، صافحتهم . كنت أنقب في وجوههم عن أثر لتلك الأيام، وحاذرت ألا يصطدم رأسي بالقوس الصلب.

تهيأت أن أسألهم. تحسست جمجمتي وعظام الترقوة. هبطت يدي إلى منطقة الحوض حيث العظام البـارزة. هـل أخاف الموت أم أخشى ضياع ذاتي؟

دبيب الأسئلة المحيرة تعصف بهدوئي.

العالم المرئي يشدنا بجبروته إلى الانفصال عن جوهر الحياة، أما العالم الخفي الذي يخترق أعماقنا ففيه اليقين.

كنت على ثقة أنني سأعثر على ما أبتغي.

وكان أفراد طاقم الرشاشات م. ط. على ما يبدو قلقين تغشي وجوههم قسوة ولطف ، وفيض من عذاب مكتوم. صفت به أرواحهم.

قلت لهم : سأحتاج أن أسمع منكم. إنهم في " الهاون٨٢ " لا يتحدثون ، ويتكتمون الأمر !

كان الصمت يشرب صوتي ، ورائحة القرنفل تعبق في المكان. قام محمد وصب الشاي في أربعة أكواب زجاجية. وتصاعد البخار لذيذاً وملأ جو الدشمة. شربوا وانصرفوا.

همس في أذني: لا يمكنك أن تصارع تلك الأرواح العنيفة التي غاصت في الموت ، اخترقته ، وهامت بعيداً عن الشظايا، عصت الجروح، لكنها لم تفلح في النفاذ من سطوة الأنين !

تأملت كلماته ، أضاف ، وهو يهز رأسه : دع الحقيقة تأتيك ولا تسع إليها سعياً حتى لا تضلك.

صديقان كنا نسير على الشاطئ الساكن. سألني : هل تريد أن تكتب؟

ليس الآن. اسمع وتأمل ، ودع الكتابة لأيام أخر.

بدا لي أنني مازلت قادراً على تصديقه. قلبت الأمر على أوجهه.

اضطرب قلبي ، وأنا أرى عظام أخرى ، وحفر تغوص فيها الأقدام تطقطق بصوت مكتوم إذا تعثر قدماك فيها ، وخوذات مقلوبة ، أما الأشهر التي مضت من شتاء عام ١٩٧٤ فلم تقدر أن تخفي المرئي بتفصيلاته الموجعة.

حين ذهبنا إلى منطقة التجنيد بالزقازيق ، وخلعنا ثيابنا ، وقفنا طوابير طويلة طويلة في الشمس الملتهبة. كتب الطبيب بعد أن تحسس صدورنا وأنصت بسماعة لنبض القلب، وبعد أن أمرنا أن نسعل ونشهق ونزفر : " لائق طبياً".

كتبت يد في هيئة مكتب التجنيد على ضـوء تقريـر خاص بوجود عجز هائل في التدريس : يتم التأجيـل دفعـة دبلوم المعلمين ٧١ سنة أخرى.

لو أن التقرير لم يكتب ، والتوصية لم تُنفذ ، والقرار لم ير النور لانضممنا إلى التشكيلات المحاربة.

ولرأيت الحقيقة بنفسي ، ولاضطرم داخلي بأحاسيس مغايرة. قال لي أفراد الطاقم القدامى : أنتم محظوظون.

كنت أرى الأمر في الاتجاه المعاكس. لقد أتيت لأرى الرماد بعد أن خبت الجذوة المشـتعلة ، وانطفـأت الشـعلة المقدسة !

لو شاركتهم المعمعة لصـرت مـثقلاً بعـذاباتهم ، ولروضتني تلك الأيام الصعبة.

تُرى أكنـت أشـاركهم صـمتهم؟ مـا الـذي رأوه ويرفضون البوح به؟

جأرت بالشكوى لذاتي التى تصخب. هل انطفـأت في نفسي كل صواعق المدن المقهورة ، وأنا فـي طريقـي للبحث عن شيء يزلزلني؟

يا إلهي. كم أنا معذب بالحروف، بالصمت، والكتابة!

في الخارج كانت الرياح تـدور مذعنـة ، تحمـل الأوراق الجافة ، وتنازع الغفار.

أحس الآن بظمأ مفاجئ. أهمس في صوت خفيض : أريد أن أشرب. مفعمة نظراته بالرضا. أحسده وأقولها لـه : لماذا يمتلأ قلبك باليقين؟

الخلاء يواجهنا ، وعربات تمـرق خلفنـا ، ونحـن نواجه الستائر ، ونرى المعابر.

أشار بيده : حين أوصدت في وجوهنـا الأبـواب ، عالجنا أمورنا بحكمة.

قلت : هو الفعل لا الكلمة.

ضحك ، تعثرت في صعودي. أمسك بيـدي ، فـك سترته نشرها على الرمـال مثـل الكفـن ، وضـع بكفيـه المعروقين حفنة رمل : الإنسان مثل هذه الكومة.

إذا آمنت بذلك رضيت نفسك.

قلت : كانت الحرب فعلاً قاسياً.

قال : كلمة توهجت بالدم والنار.

.... وصمتنا !

(٦)

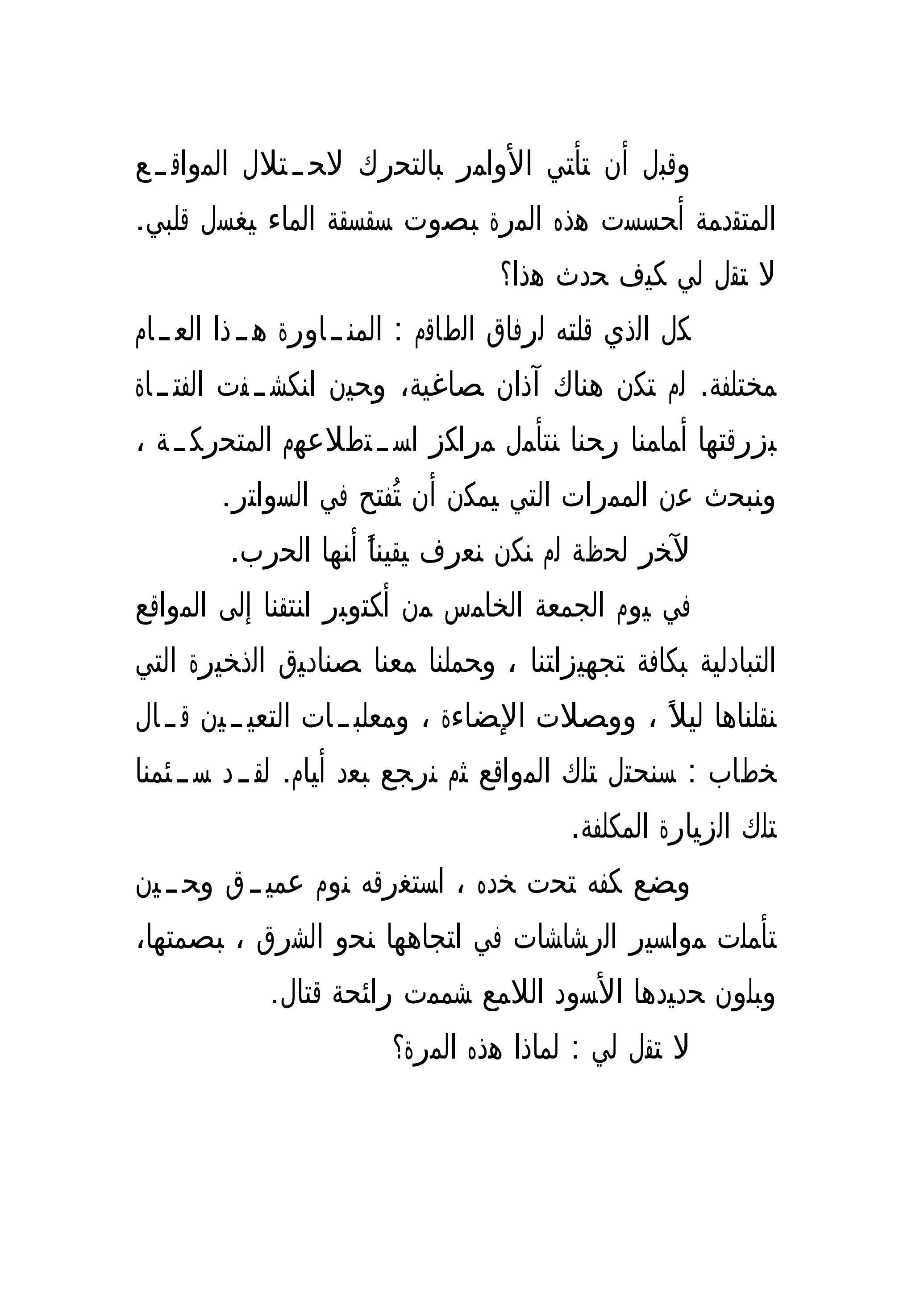
" إنك تزعق وكأمك خائف.. فلماذا لا تهدأ "

كنا نقطع الطريق في إحدى الإجازات الميدانية في طريقنا إلى البلدة. قلتها فراح يتأمل أحجار الطريق ، ويتكلم بنعومة وهدوء.

قال محمد حمام ، وهو يتقدمني خطوات ، ويهش بيده الكلاب التي قبعت في زوايا عرايشية الإسماعيلية حيث المباني المهدمة ، أو تلك التي هجرها أصحابها :

" كان علينا أن نحمي الكتيبة بسراياها المساعدة من طيران العدو. كنا مجهزين مواقع تبادلية على الشاطئ مباشرة ، كتلك التي نحتلها الآن. لكننا نقبع خلف سواتر ترابية في المؤخرة قليلاً حيث يمكننا الضرب من خلفها.

في أواخر سبتمبر سرت في الموقع أخبار مؤكدة بأن المناورة السنوية ستبدأ كعادتها. تكدرنا جميعاً لأن الجهد الذي تستغرقه تلك العمليات التجريبية تنهك قوانا ، وتوترنا حيث يكون الاشتباك مع أهداف هيكلية.



وقبل أن تأتي الأوامر بالتحرك لاحـتلال المواقـع المتقدمة أحسست هذه المرة بصوت سقسقة الماء يغسل قلبي. لا تقل لي كيف حدث هذا؟

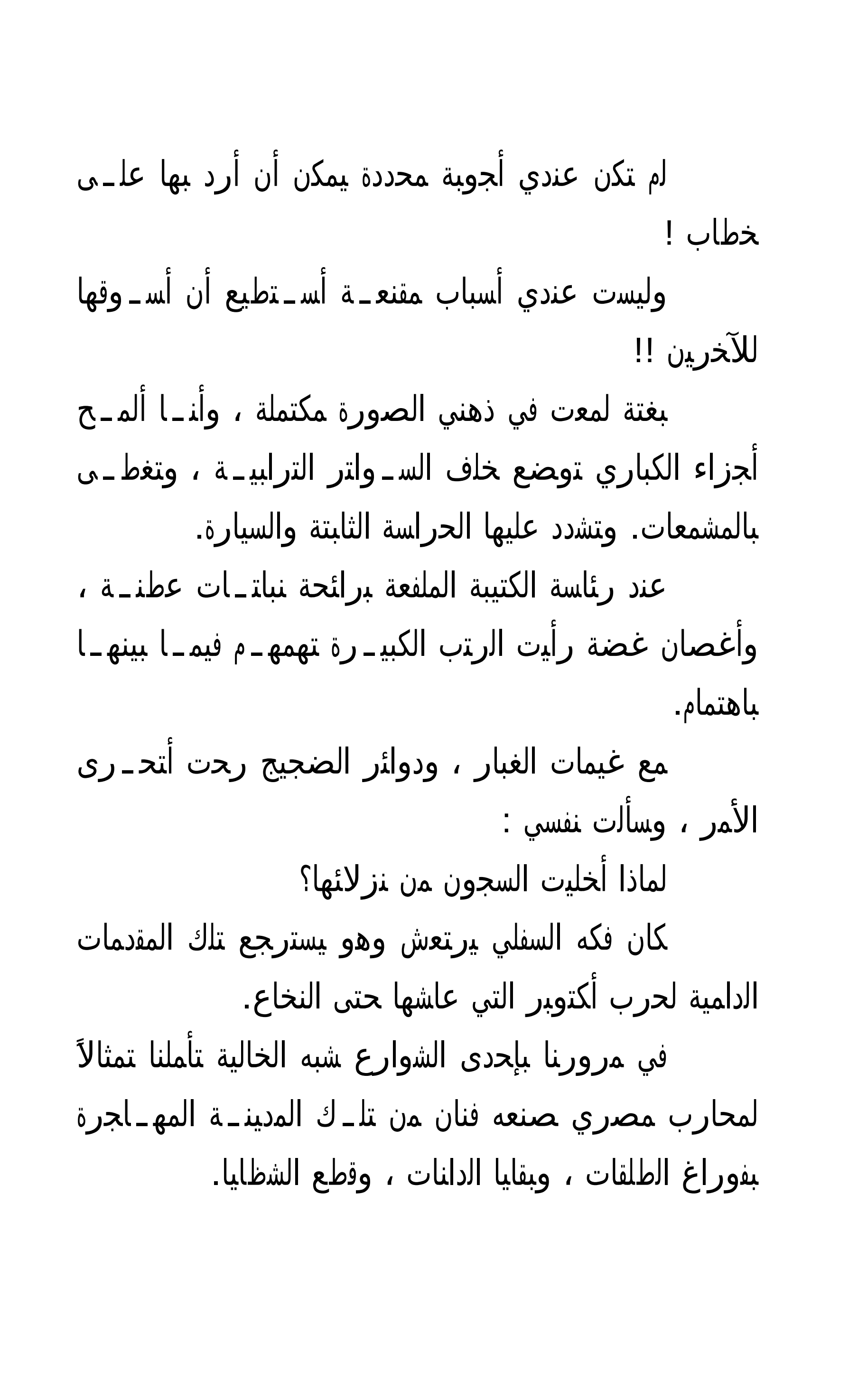
كل الذي قلته لرفاق الطاقم : المنـاورة هـذا العـام مختلفة. لم تكن هناك آذان صاغية، وحين انكشـفت الفتـاة بزرقتها أمامنا رحنا نتأمل مراكز اسـتطلاعهم المتحركـة ، ونبحث عن الممرات التي يمكن أن تُفتح في السواتر.

لآخر لحظة لم نكن نعرف يقيناً أنها الحرب.

في يوم الجمعة الخامس من أكتوبر انتقلنا إلى المواقع التبادلية بكافة تجهيزاتنا ، وحملنا معنا صناديق الذخيرة التي نقلناها ليلاً ، ووصلات الإضاءة ، ومعلبـات التعيـين قـال خطاب : سنحتل تلك المواقع ثم نرجع بعد أيام. لقـد سـئمنا تلك الزيارة المكلفة.

وضع كفه تحت خده ، استغرقه نوم عميـق وحـين تأملت مواسير الرشاشات في اتجاهها نحو الشرق ، بصمتها، وبلون حديدها الأسود اللامع شممت رائحة قتال.

لا تقل لي : لماذا هذه المرة؟



لم تكن عندي أجوبة محددة يمكن أن أرد بها علـى خطاب !

وليست عندي أسباب مقنعـة أسـتطيع أن أسـوقها للآخرين !!

بغتة لمعت في ذهني الصورة مكتملة ، وأنـا ألمـح أجزاء الكباري توضع خلف السـواتر الترابيـة ، وتغطـى بالمشمعات. وتشدد عليها الحراسة الثابتة والسيارة.

عند رئاسة الكتيبة الملفعة برائحة نباتـات عطنـة ، وأغصان غضة رأيت الرتب الكبيـرة تهمهـم فيمـا بينهـا باهتمام.

مع غيمات الغبار ، ودوائر الضجيج رحت أتحـرى الأمر ، وسألت نفسي :

لماذا أخليت السجون من نزلائها؟

كان فكه السفلي يرتعش وهو يسترجع تلك المقدمات الدامية لحرب أكتوبر التي عاشها حتى النخاع.

في مرورنا بإحدى الشوارع شبه الخالية تأملنا تمثالاً لمحارب مصري صنعه فنان من تلـك المدينـة المهـاجرة بفوارغ الطلقات ، وبقايا الدانات ، وقطع الشظايا.

بتلك الفضلات المتناثرة من قنابل ألقيت على البيوت والميادين وواجهات المعارض.

كان الوجه مربداً ، ويكاد الصوت يجأر بالثأر. وحده يقف في العراء رافعاً بندقيته ، وفوق كتفيه تحط العصافير ، وسرعان ما تطير فزعة.

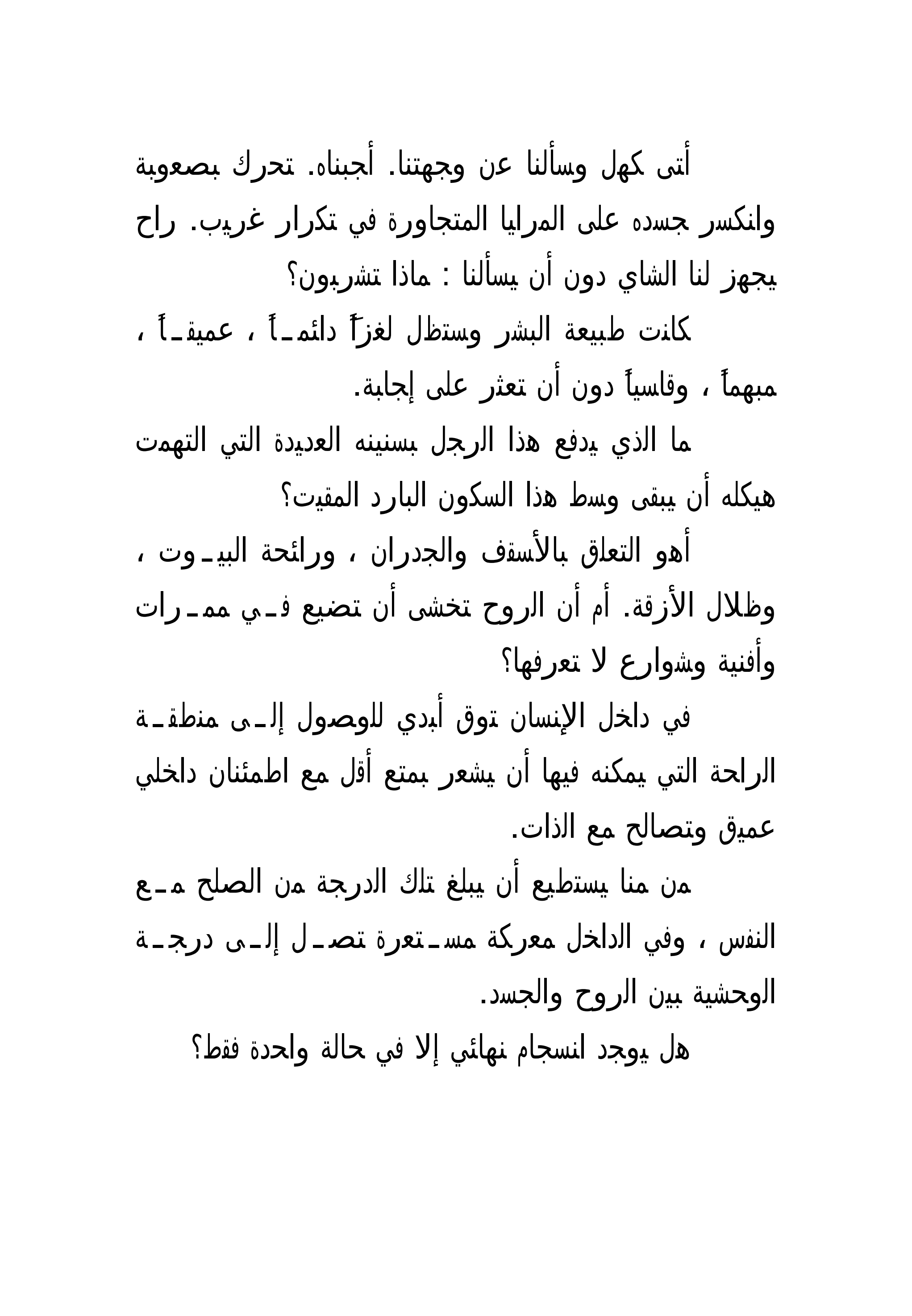
عبثاً حاولت أن أدفعه للعودة إلى روايته التي بـدأها بنفسه دون جدوى !

رحنا نبحث عن مقهى مفتوح لنشرب الشاي قبل أن نفتش عن سيارة عسكرية متجهة إلى بورسعيد. بعدها نأخـذ سيارة أخرى على طريق الجميل.

العسكر رأيتهم ينتقلـون كالأشـباح فـي العتمـة ، ويختفون في شوارع جانبية بزيهم الكاكي الذي شرب أضواء المساء القاتمة.

لم يكن بمقدورنا أن نتبين أي المقـاهي يمكننـا أن ندخله ونجد فيه أقداح مشروبنا الساخن.

رأيت وجهه حنوناً وحزيناً. راح يصفر لحناً غمرني بنشوة غامضة. اقتربنا من مقهى قديم تنبعث من خلف أبوابه المواربة بعض الضوء. جذبني من يدي ودخلنا.



أتى كهل وسألنا عن وجهتنا. أجبناه. تحرك بصعوبة وانكسر جسده على المرايا المتجاورة في تكرار غريب. راح يجهز لنا الشاي دون أن يسألنا : ماذا تشربون؟

كانت طبيعة البشر وستظل لغزاً دائماً ، عميقاً ، مبهماً ، وقاسياً دون أن تعثر على إجابة.

ما الذي يدفع هذا الرجل بسنينه العديدة التي التهمت هيكله أن يبقى وسط هذا السكون البارد المقيت؟

أهو التعلق بالأسقف والجدران ، ورائحة البيوت ، وظلال الأزقة. أم أن الروح تخشى أن تضيع في ممرات وأفنية وشوارع لا تعرفها؟

في داخل الإنسان توق أبدي للوصول إلى منطقة الراحة التي يمكنه فيها أن يشعر بمتع أقل مع اطمئنان داخلي عميق وتصالح مع الذات.

من منا يستطيع أن يبلغ تلك الدرجة من الصلح مع النفس ، وفي الداخل معركة مستعرة تصل إلى درجة الوحشية بين الروح والجسد.

هل يوجد انسجام نهائي إلا في حالة واحدة فقط؟

حين يتحول الإنسان إلى نقطة مضـيئة فـي كتـاب العالم. نقطة تومض ثم تختفي حين يجف الحبـر العبقـري نهائياً: الموت.

كان يتأمل شرودي ، ودون مقدمات وطأ الصـمت المكان. يتحدث هذه المرة بهدوء أكثر :

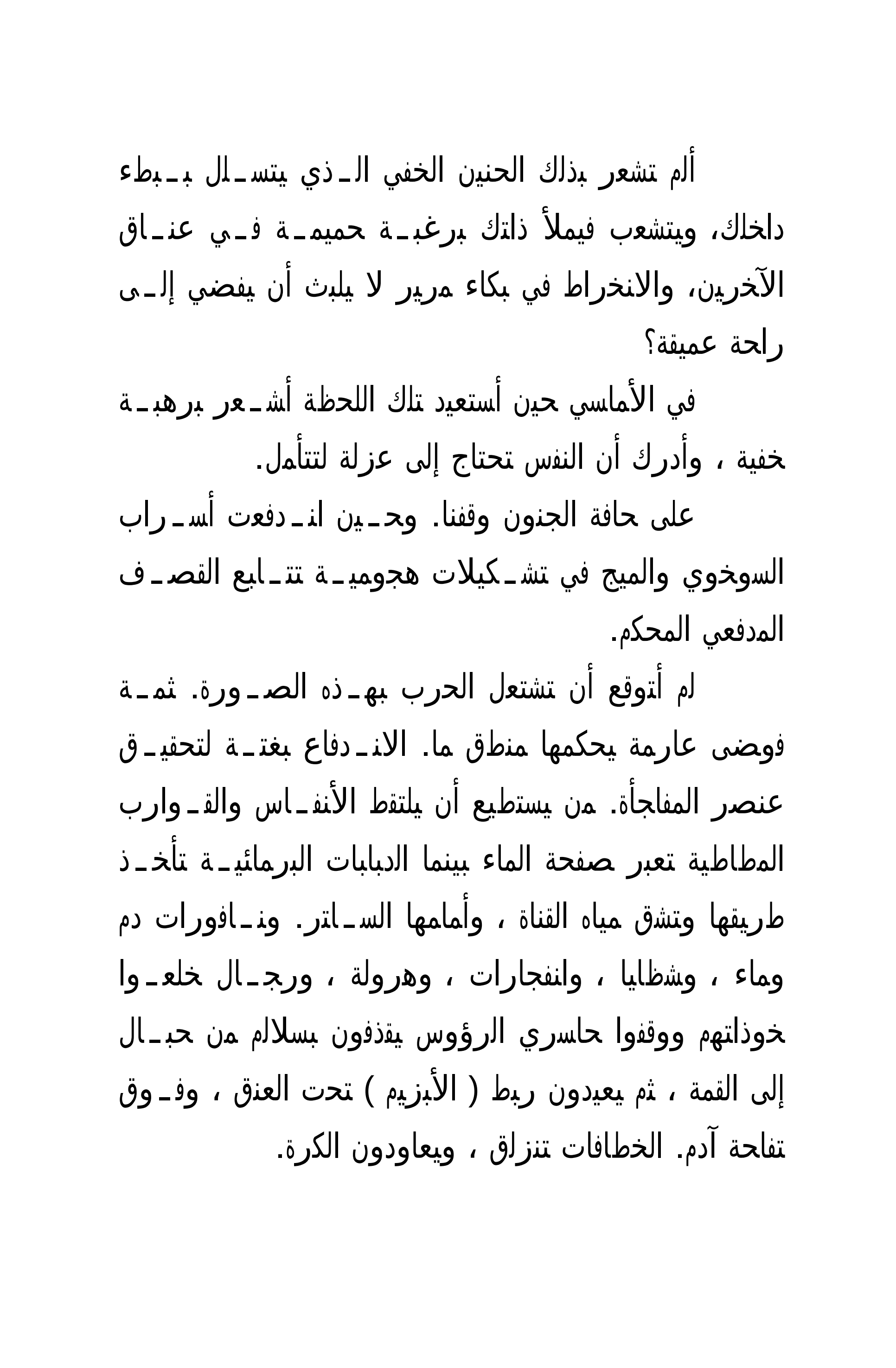
" قبل لحظة الصفر التي لم نكن نعرفها كـان كـل شيء على ما يرام.

لاحظنا تـدعيم الكتيبـة بمدفعيـة هـاون ثقيـل ، وببطاريات الصواريخ ، كما تم استدعاء الجنود الاحتياطيين.

جمع قائد الكتيبة العقيد أحمد اسماعيل عطيـة قـادة السرايا والفصائل ، وعرض عليهم الخطة. كنت معهم ممثلاً لأطقم الرشاشات.

كان الاجتماع في تمام الواحد والربع ظهراً. تحركنا على الأقدام منـدفعين إلـى الدشـم والمواقـع الأماميـة ، والتجهيزات.

لا تسلني عن شعوري وقتها. أكـذب أن قلـت إنـه الفرح. أشعرت مرة بالصعود تلك اللحظة التي يـرتج فيهـا قلبك ويخفق بشدة. فيمتزج الخوف الدفين بالسموق الإنساني.



ألم تشعر بذلك الحنين الخفي الذي يتسلل ببطء داخلك، ويتشعب فيملأ ذاتك برغبة حميمة في عناق الآخرين، والانخراط في بكاء مرير لا يلبث أن يفضي إلى راحة عميقة؟

في الأماسي حين أستعيد تلك اللحظة أشعر برهبة خفية ، وأدرك أن النفس تحتاج إلى عزلة لتتأمل.

على حافة الجنون وقفنا. وحين اندفعت أسراب السوخوي والميج في تشكيلات هجومية تتابع القصف المدفعي المحكم.

لم أتوقع أن تشتعل الحرب بهذه الصورة. ثمة فوضى عارمة يحكمها منطق ما. الاندفاع بغتة لتحقيق عنصر المفاجأة. من يستطيع أن يلتقط الأنفاس والقوارب المطاطية تعبر صفحة الماء بينما الدبابات البرمائية تأخذ طريقها وتشق مياه القناة ، وأمامها الساتر. ونافورات دم وماء ، وشظايا ، وانفجارات ، وهرولة ، ورجال خلعوا خوذاتهم ووقفوا حاسري الرؤوس يقذفون بسلالم من حبال إلى القمة ، ثم يعيدون ربط (الأبزيم) تحت العنق ، وفوق تفاحة آدم. الخطافات تنزلق ، ويعاودون الكرة.

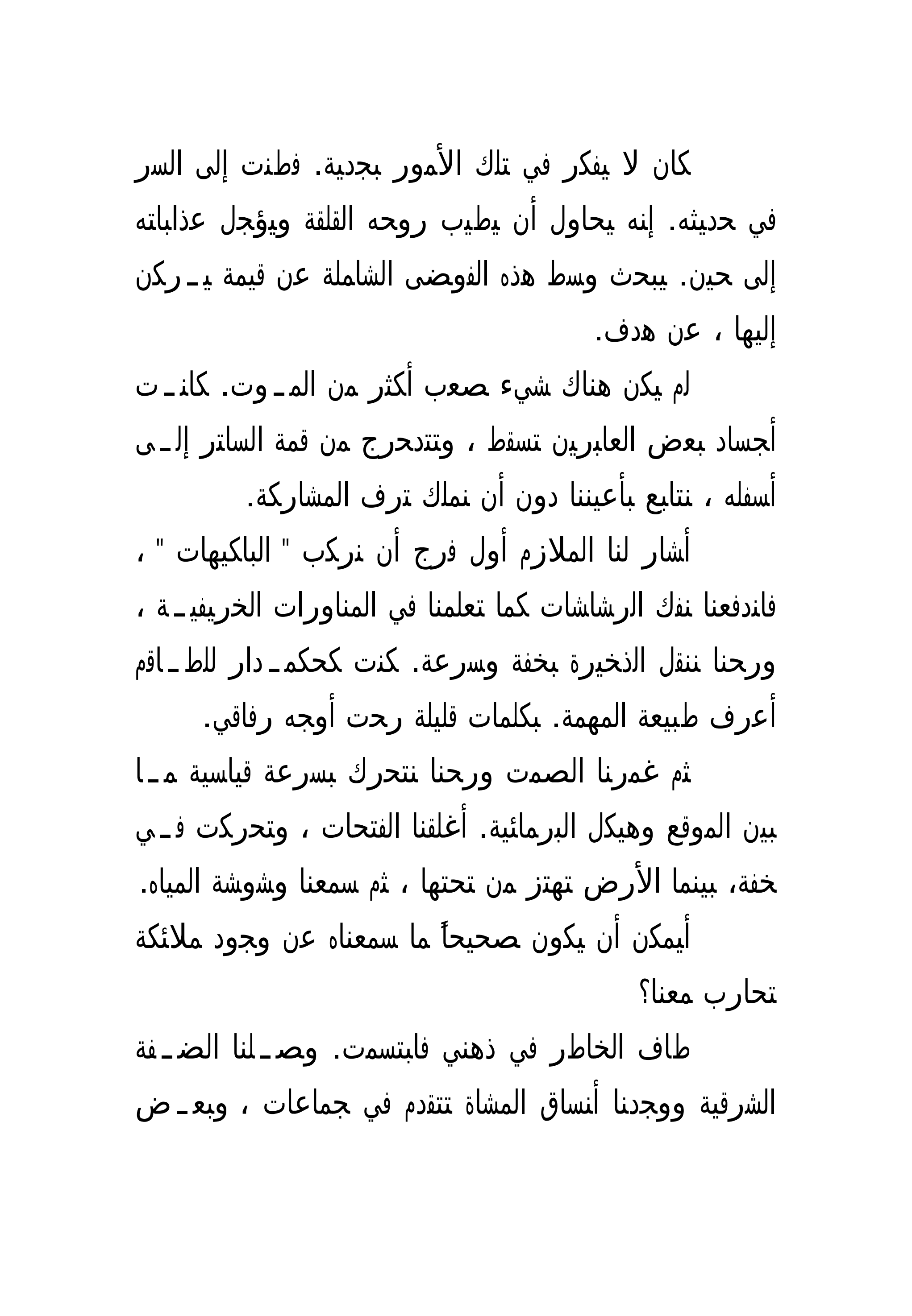
أصغيت لصوت الانفجارات المدوية في التبة. وشاهدت قنابل الدخان تنشر ستارة من نار وعرة ، وكان المحاربون يسعلون. وأمامي رأيت أجسادهم تتدلى وهم يتشبثون بالسلالم المهتزة.

رفعت يدي اتضرع إلى ا أن يقف معنا. كان رمضان أبو حويلة يقف كالمذهول إلى جواري. ولم يكن دورنا في العبور إلى الضفة قد بدأ.

سألني والقتال يشتد عنفاً ، ومصاطب الدبابات تطلق قذائفها بحمية : هل نعبر الآن؟

كلمته بلطف : الأوامر أن نكون في النسق الثالث. نحن مكلفون بحماية الكتيبة مع الأسلحة الأخرى الـ م. ط ضد طلعات الطيران المعادي.

لا شيء يموت في الذاكرة. لا شيء يموت. قال خطاب أن مسوغات التعيين ناقصة ، وتحتاج إلى شهادة إثبات تجنيد ، وأن شركة المطاحن بالأقصر أخرت تعيينه حتى يأتي بتلك الشهادة ، وأن الأمور تنبئ بأن كل شيء سيتأخر.



كان لا يفكر في تلك الأمور بجدية. فطنت إلى السر في حديثه. إنه يحاول أن يطيب روحه القلقة ويؤجل عذاباته إلى حين. يبحث وسط هذه الفوضى الشاملة عن قيمة يـركن إليها ، عن هدف.

لم يكن هناك شيء صعب أكثر من المـوت. كانـت أجساد بعض العابرين تسقط ، وتتدحرج من قمة الساتر إلـى أسفله ، نتابع بأعيننا دون أن نملك ترف المشاركة.

أشار لنا الملازم أول فرج أن نركب " الباكيهات " ، فاندفعنا نفك الرشاشات كما تعلمنا في المناورات الخريفيـة ، ورحنا ننقل الذخيرة بخفة وسرعة. كنت كحكمـدار للطـاقم أعرف طبيعة المهمة. بكلمات قليلة رحت أوجه رفاقي.

ثم غمرنا الصمت ورحنا نتحرك بسرعة قياسية مـا بين الموقع وهيكل البرمائية. أغلقنا الفتحات ، وتحركت فـي خفة، بينما الأرض تهتز من تحتها ، ثم سمعنا وشوشة المياه.

أيمكن أن يكون صحيحاً ما سمعناه عن وجود ملائكة تحارب معنا؟

طاف الخاطر في ذهني فابتسمت. وصـلنا الضـفة الشرقية ووجدنا أنساق المشاة تتقدم في جماعات ، وبعـض

الفصائل المزودة بقنابل هجومية تحتل مصاطب الدبابات التي احترقت تماماً ، وانفكت جنازيرها.

وفجأة وجدناه يصعد من الماء مبتلاً ، يلاطم خديـه ، وهو يصرخ : راحوا.. راحوا.. راحوا.

راح المقدم محسن فوزي يهدأه ، والآخر مستمر في العويل. ونوبة عصبية من تأنيب الـذات ، والتمـرغ علـى الحافة. ضمه المقدم إلى صدره : " ولا يهمـك يـا بطـل.. تعوض جلس تحت شجرة صبار قرمزية يواصـل البكـاء. عرفنا من مجموعة حملتهم قوارب المطاط حقيقة الأمر.

عرفنا أنه سائق إحدى البرمائيات ، حـين جـاءت الأوامر بالعبور ، من هول المفاجأة نسى أن يفتح الزعـانف فغرقت المركبة مع قائـد فصـيلة م. د ١١. لـم يـنج إلاه ومساعده.

كان يقفز ، ويصرخ في هستيريا : سأحاكم.. يسـأل المقدم : " بكم ثمن الباكيه؟ " قال المقدم وهو يخفف عنـه ، بنبرة آمرة هذه المرة : لا تكن كالنساء. عد إلـى الشـاطئ الآخر في أي قارب وضع نفسك في خدمة سرايا البرمائيات.

غاصت المركبة في مياه القناة ولم يطلق رجال الـ ـ م. د طلقة واحدة وهم الذين أعرفهم واحداً واحـداً. تـدربوا معنا في وادي الملاك ، وسرابيوم والمحسمة ، ماتوا غرقـاً بينما الرمال تضج بصراخ النزال. فـأي سـخرية سـاقتها الأقدار؟

لفت نظري ذلك المقدم. كان يتحرك بين الجنود فـي خفة ، يوجههم ، يتقدمهم ، يأخذ بأيديهم ، يبتسم لهـم رغـم عنف القصف الذي يزداد حدة.

بدأ رجال الـ م. د في إنزال مدافعهم وجرها علـى عجل صغير. أما المهندسون العسكريون فقد كانوا يصوبون خراطيم المياه على جسد الساتر فيتآكل في مواضع بعينها.

والأصوات اللاهثة ، غاضبة ، مزمجرة ، وهمهمات الرجال وبسملتهم تفوق كل شيء. رفرف العلم. والجـروح تفتحت. طببها إلى حين رفته النبيلة "...

انحنى محمد حمام. وقد أغمض عينيه ، بينما أصغى إليه تأملته. يحاول جاهداً أن يزيل أستار الذاكرة المهوشـة ، ويقتنص لحظات الوهج.

كان يبكي طاقم الـ م. د ١١ الذي أغلق على أفراده قبر فولاذي فسقطوا في القاع.

أرواح معذبة ومشاهد غير محتملة. من يسـتطيع أن يقول عن الحرب أنها أمر عرضي زائل ، وفعـل إنسـاني يتحرك بعرض أيام قلائل أو أشهر معدودات ثم ينقضي.

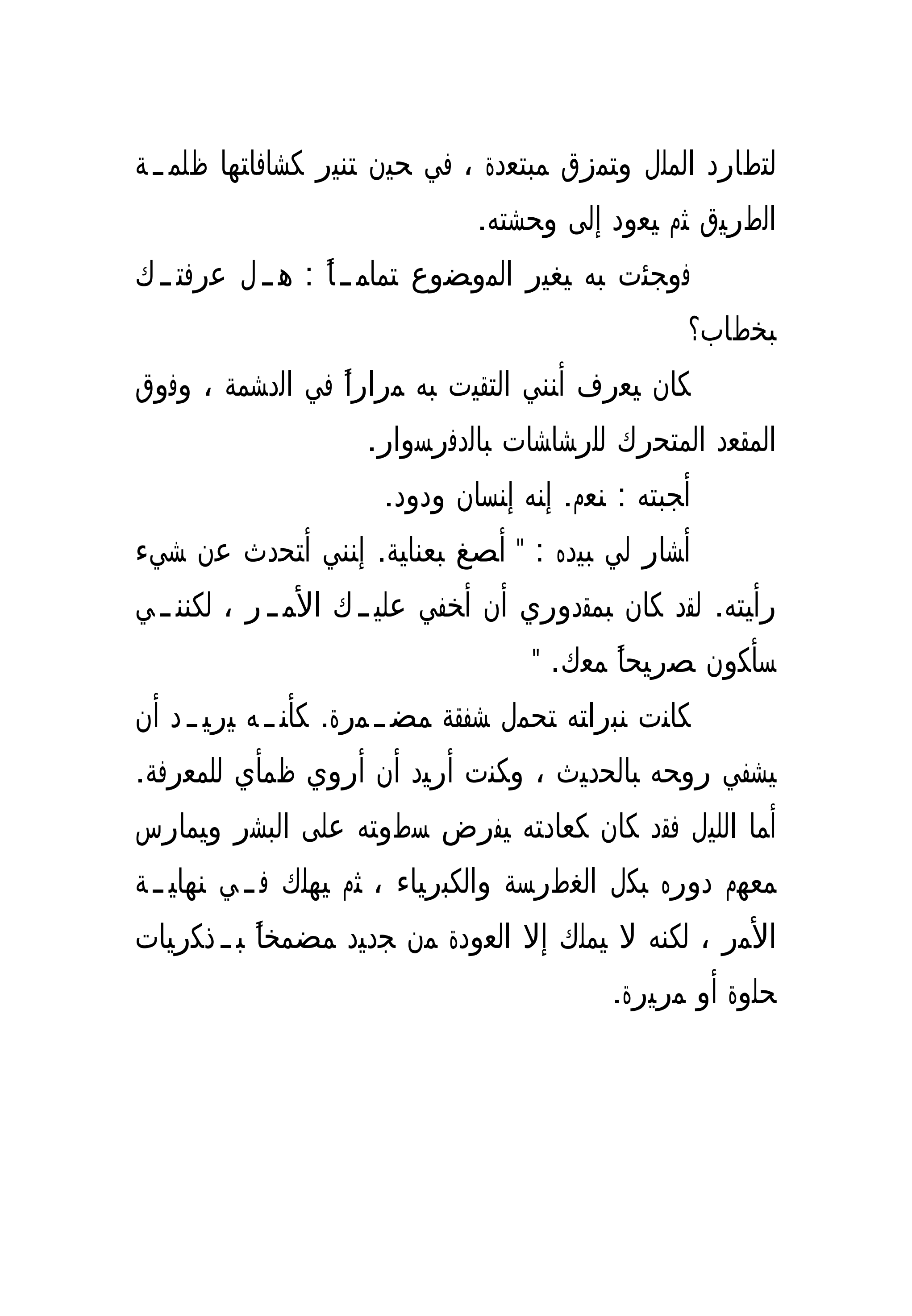
بل يظل محفوراً في الذاكرة إلى أبد الآبدين ، يتحرك ويغوص في اللحم والدم ، ويوجع عضلة القلب ، ومتاهـات النفس ، ويعذب من حمل على رأسه خوذة وانتبه.

فتأمل. هل انتبه المحاربون حقيقة ما الـذي حـدث؟ وهل يستيقظن يوماً فيرون العالم وقد تغير ، وهبـت علـى نوافذه نسائم هادئة لينة من أريج الأزهار القرنفلية الحلوة؟

رفعت نظري لأتطلع إليه. كان ينظر ناحية الكهـل وهو يقف خلف منضدة الرخـام يتأمـل تجاعيـد الوجـه ، وحركته الراعشة ، ثم يعاود الشرود.

كان من الواضح أنه يجهد نفسه لمنعها من الوصول إلى درجة من الألم ليس بمقدوره أن يتحملها.

قام صامتاً ، حاسب الكهل دونما كلمـة. حاذيتـه ، صرنا في الطريق الخالي إلا من سـيارات تطلـق أبواقهـا



لتطارد المال وتمزق مبتعدة ، في حين تنير كشافاتها ظلمـة الطريق ثم يعود إلى وحشته.

فوجئت به يغير الموضوع تمامـاً : هـل عرفتـك بخطاب؟

كان يعرف أنني التقيت به مراراً في الدشمة ، وفوق المقعد المتحرك للرشاشات بالدفرسوار.

أجبته : نعم. إنه إنسان ودود.

أشار لي بيده : " أصغ بعناية. إنني أتحدث عن شيء رأيته. لقد كان بمقدوري أن أخفي عليـك الأمـر ، لكننـي سأكون صريحاً معك. "

كانت نبراته تحمل شفقة مضـمرة. كأنـه يريـد أن يشفي روحه بالحديث ، وكنت أريد أن أروي ظمأي للمعرفة. أما الليل فقد كان كعادته يفرض سطوته على البشر ويمارس معهم دوره بكل الغطرسة والكبرياء ، ثم يهلك فـي نهايـة الأمر ، لكنه لا يملك إلا العودة من جديد مضمخاً بـذكريات حلوة أو مريرة.

قال : " نحن البشر كفراشات تنجذب إلى الضـوء ، تحترق أو تشتعل أجنحتها بالرغبة تحلق أو تحط ، لكنها في النهاية ترشف الضوء حسبما يتاح لها. "

قاطعته : لم تقل شيئاً بعد يا محمد؟

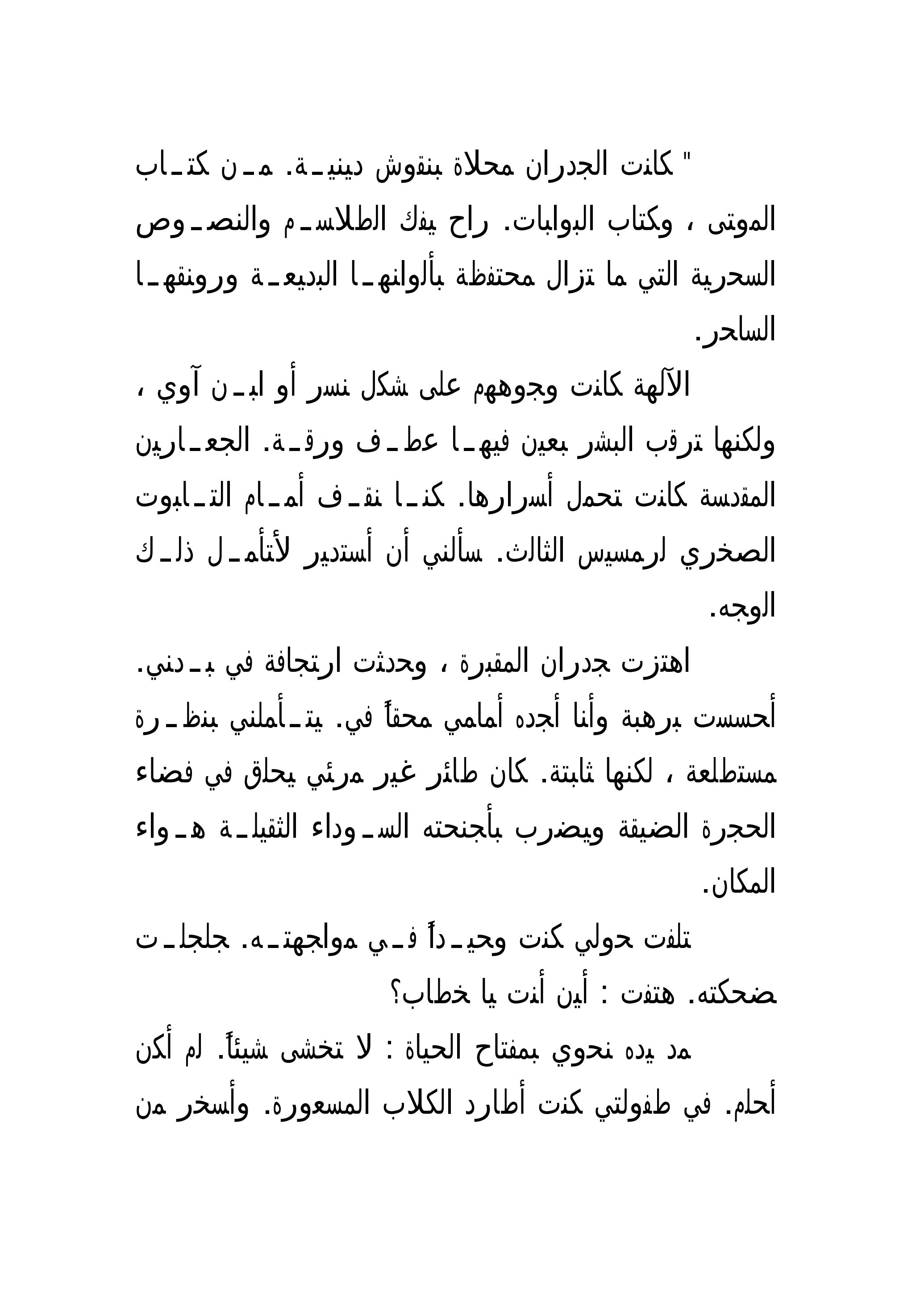
شعرت بنظرته تخترقني. وكانت خطواتنا تضـرب أسفلت الطريق : " كنت أزور مدينة بالأقصر. مثلما آخـذك الآن لنبحث عن عربة توصلنا أخذني من يـدي إلـى وادي الملوك. دفع بي في ممرات ودهاليز معتمة ، راح يتحـرك امامي في ممر ضيق منحوت في الصخر حتى انتهينا إلـى حجرة الدفن. "

كان الليل مليئاً بالرهبة ، وكان صوته يرتعش. كنت أستعيد وجه خطاب بشاربه الكث ، ونظرة صقر تطل مـن عينيه.

قال محمد حمام وهو يتأمل وقع كلماته : " لا تخف."

لم اكن خائفاً بالفعل ، كنت أحاول أن أبحـث عـن معنى لحكايته التي لم تكتمل.

أكمل قصته :



" كانت الجدران محلاة بنقوش دينيـة. مـن كتـاب الموتى ، وكتاب البوابات. راح يفك الطلاسـم والنصـوص السحرية التي ما تزال محتفظة بألوانهـا البديعـة ورونقهـا الساحر.

الآلهة كانت وجوههم على شكل نسر أو ابـن آوي ، ولكنها ترقب البشر بعين فيهـا عطـف ورقـة. الجعـارين المقدسة كانت تحمل أسرارها. كنـا نقـف أمـام التـابوت الصخري لرمسيس الثالث. سألني أن أستدير لأتأمـل ذلـك الوجه.

اهتزت جدران المقبرة ، وحدثت ارتجافة في بـدني. أحسست برهبة وأنا أجده أمامي محقاً في. يتـأملني بنظـرة مستطلعة ، لكنها ثابتة. كان طائر غير مرئي يحلق في فضاء الحجرة الضيقة ويضرب بأجنحته السـوداء الثقيلـة هـواء المكان.

تلفت حولي كنت وحيـداً فـي مواجهتـه. جلجلـت ضحكته. هتفت : أين أنت يا خطاب؟

مد يده نحوي بمفتاح الحياة : لا تخشى شيئاً. لم أكن أحلم. في طفولتي كنت أطارد الكلاب المسعورة. وأسخر من

العفاريت. وكانت أمي تعرف عني هذا فترسلني في منتصف الليل كي أشتري عبوة كبريت أو ملح طعام.

نهرني بصوته الأجش : تقدم. واحمـل عنـي هـذا العبء.

كنت أصعد ، أرتقي عتبات مقدسة ، وكانت النقوش تزين صدره ، ولون الفيروز الأزرق الضارب إلى الخضرة يتألق برغم الضوء الخافت. حول عنقه قلادة ذات فص مـن العقيق المقدس. قلت له : سيدي. دنسوا أرضنا. قف معنـا. بنبرة استغاثة : نحن الأضعف أمام جبروت قوتهم.

أمسك يدي وقال : تقدم. خذ الحكمة منه.

دفعني في دهاليز معتمة تفوحمنها رائحة العطرشان والزعتر. كان حور محب غارقاً في تأملاته. سألني بعـد أن تركني له : متى أتيت؟ ومن أين؟

قلت بصوت خفيض : أتيت الآن. قدمت من الجبهـة تواً. مع محمد خطاب جئت. وأنا حكمدار طاقمه. وتسـليحي رشاشات م. ط عيار ٢١,٧ مم.

ضحك دون أن يرفع وجهه عن لفائف البردي التـي كان يدون بها بعض الكتابات ببوصة فـي يـده حاضـرني

الصمت ، قاطعه بسؤاله الصـارم : أجئـت تستشـيرني أم تعاهدني؟

قلت والضوء المصفي ينفذ بصعوبة من ثقب صغير في الحجرة المعتمة :

خطاب هو الذي أتى بي إلى هنا. تركني ولا أعرف أين ذهب. بالأمس زرت معبد الأقصر. وقفت أتأمل البهـو الكبير فأشار لي رمسيس الثاني أن آتي إلى هنـا وأتفحـص النصوص. طيبة حزينة لأجلنا. نحـن محاصـرون سـيدي بالظلام من كل جانب.

هز رأسه فاهماً ، وهو يتحسس صـدره العـاري : تكالبوا على " منف " الحبيبة.

صرخت فيه متجاوزاً حدودي : بـل طيبـة أيضـاً مهددة. وثالوثها المقدس : آمون – موت خنسـو.. سـتدمر معابدهم. سيأخذون قطع الجرانيت الوردي ويرصفون بهـا الشوارع. إنهم طغاة.

قاطعني : العجلات الحربية لا تليق بالعصر. وأنـتم لم تقرأوا لفائف البردي بعناية. حلت عليكم اللعنـة. وبـاءت أيامكم بغضب الإله.

بكيت ، واسترحمته : سيدي. لسـت مـن الملـوك. ونحن لم نقصر البتة. ندور في ساقية لقمة العيش. الزمـان اختلف.

بدا على وجهه الفهم. كان يؤنبني ، لكنـه يحبنـي. شملني هدوئي لم يقطعه سوى بكلمات أذهب عني الخـوف : ليطمئن قلبك. على روحك تهل بركات الآلهة.

تاثرت بنبرته الودودة : سيدي. هل يهبنا آمون بعضاً من قبسه.

لقد دهسوا بالدبابات " البـاتون " أجسـاد أعمامنـا وإخواننا في حروب ماضية !

انتابت جسده قشعريرة. سكت قلـيلاً تمـتم وقلبـه يخفق: على الباغي تدور الدوائر.

مددت يدي نحوه ، صافحته ممتناً. كانت يده خشنة. وذهني في صفاء غريب. لم اشعر إلا بالبرودة تجتاحني حتى النخاع. سرت في السراديب ثانية.

وجدته أمامي يتأمل النقوش. قلت لـه معاتبـاً : لِـم تركتني بمفردي يا خطاب. عنفني : أنت الذي ذهبت.

كان الممر معتماً ، والفضـاء فـي الخـارج بلـون الحليب. قلت مخفياً اضطرابي : أجدادنا نحتاج لحكمتهم.

تقدمني في اتجاه منزله : تبوح الحجارة بأسرارهم.

كان محمد حمام يحكـي ، دون أن تفسـد روايتـه أصوات العربات المسرعة ، ونباح كلاب فـي السـاحات ، كانت الأعمدة مطرقة. والنهار قائظ في روايتـه أمـا فـي شوارع الإسماعيلية فالبرد يخترق العظام والظلمـة تجهـز علينا.

قلت له : اقتربنا من الطريق. أشار لسـيارة (زل) فوقفت. تلاشى صوت المحرك في ذهني الذي كـان يشـغله الآن أمر واحد : هل اختلق حمام هـذه الحكايـة؟ صـعدنا بالعربات وجلسنا في المقاعد الخلفية : لماذا توقف عن قص مشاهد الحرب ليحدثني بالذات عن هذه الواقعة؟

أوقظ ذهني من جديد : من يهتم بتحطيم خوذة جندي لم يحارب؟

(٧)

في تمام الساعة الخامسة وتسعة وعشرين دقيقة مـن مساء يوم الجمعة ٢٠ أكتوبر ١٩٦٧ وفور اختراق المـدمرة الإسرائيلية " إيلات " للمياه الإقليمية المصرية شمال شـرق بورسعيد أصدر قائد السرب النقيب بحري أحمد شاكر أوامره لطاقم اللنش بتوجيه ضرب قاصمة للهدف المعـادي. أُطلـق صاروخان ، فأصابهما إصابة مباشرة.

ثم تطور الهجوم بقيام اللنش الثاني بقيـادة النقيـب لطفي جاد ا في الساعة السابعة وأربعين دقيقـة بـإطلاق صاروخين آخرين. انفجرت على أثرها المدمرة وهوت إلـى القاع.

كان الصبي محمد حمام يلعب الكرة مع أصـدقائه ، وهواء السويس مشبع باليود ، ورائحة الأصداف الملقاة على الشاطئ القريب تصل لأنوفهم.

العام الدراسي في أوله. لقد ترك في حجرته الألوان المائية ولم يكمل رسم اللوحة.

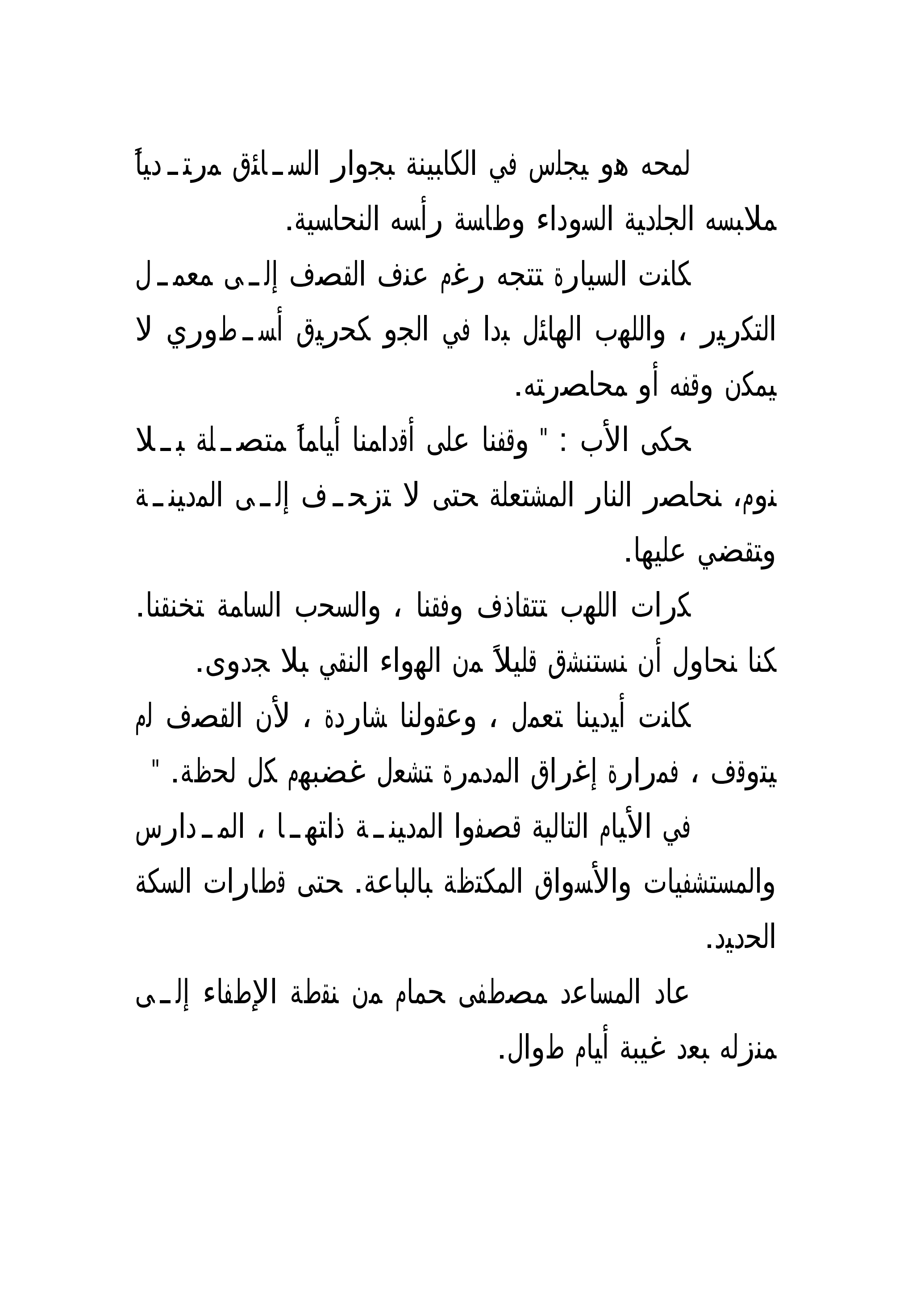
في اللحظة التي كانوا يتشاجرون فيها حول صـحة هدف بدأ القصف المدفعي الهائل لمعامل تكرير البترول فـي الزيتية.

وتساقطت بعض القذائف فوق البنايات. انفض اللعب في هرجلة مذعورة. هرع معظم الصبية إلى منازلهم القريبة. أما محمد وقلة من أصحابه فقد توجهوا إلى الميدان القريـب وشاهدوا الحرائق مشتعلة ، وعلى الرغم من أنهم سمعوا عن الحرب فلم يكن أي منهم يتخيل أنها كريهة إلى هذا الحد.

لقد رأوا الجرحى ممددين في الطرقـات ، ورجـال الدفاع المدني يهرولون هنا وهناك ، بينما سيارات الإسعاف تسرع إلى الشوارع الجانبية ، تفتح أبوابها الخلفية ، ويحمـل الرجال محفات ، يضعون عليها أجساد رجال ونسوة وأطفال ينزفون.

حين سمع النفير المتقطع لسيارات المطافئ ، أخفـى جسده خلف الأعمدة الخرسانية لبناء لم يكتمل.

خشى أن يراه المساعد مصطفى – والده – فينهره ، ويأمره بالعودة إلى المنزل.



لمحه هو يجلس في الكابينة بجوار السـائق مرتـدياً ملابسه الجلدية السوداء وطاسة رأسه النحاسية.

كانت السيارة تتجه رغم عنف القصف إلـى معمـل التكرير ، واللهب الهائل بدا في الجو كحريق أسـطوري لا يمكن وقفه أو محاصرته.

حكى الأب : " وقفنا على أقدامنا أياماً متصـلة بـلا نوم، نحاصر النار المشتعلة حتى لا تزحـف إلـى المدينـة وتقضي عليها.

كرات اللهب تتقاذف وفقنا ، والسحب السامة تخنقنا. كنا نحاول أن نستنشق قليلاً من الهواء النقي بلا جدوى.

كانت أيدينا تعمل ، وعقولنا شاردة ، لأن القصف لم يتوقف ، فمرارة إغراق المدمرة تشعل غضبهم كل لحظة. "

في الأيام التالية قصفوا المدينـة ذاتهـا ، المـدارس والمستشفيات والأسواق المكتظة بالباعة. حتى قطارات السكة الحديد.

عاد المساعد مصطفى حمام من نقطة الإطفاء إلـى منزله بعد غيبة أيام طوال.

أخبرهم في صوت متهدج أن يجمعـوا حاجيـاتهم ، ويصروا ملابسهم فالهجرة بدأت.

قالت الأم عطيات : ننتظر حتى نتبين الأمر.

صاح فيها : ستذهبين مع الأولاد. وسأبقى مع قـوة الإطفاء.

غمره الأسى : لقد رتبت كل شيء. سـتذهبون مـع صديق أثق فيه......

هل ينسى إن نسى تلك الليلة التـي هـيمن عليهـا الحزن، وهم يجمعون أشياءهم الحميمة : ملابس الصـيف ، وكستور الشتاء ، كتب ، أواني الطهي ، ملاءات الأسـرة ، وغطاءات الوسائد ، ثم إطارات الصور وبـداخلها الأعمـام والأخوال.

كان الصمت يجثم في الزوايا. وراء الأريكـة التـي يفصل الجلوس عليها امتدت يده تبحث في الفراغ بين المسند والمقعد عن صورة زورق خشبي قديم يجلس فوقـه صـياد يجدف ساعة الغسق. يذكره ذلك بالبحر الذي أحبه.

أخبره أن يتركه. سأل أمه : لماذا نترك مدينتنا؟

أجابته أن القصف يقصدنا وأن العمر واحد والـرب واحد ، لكنها الأوامر !

لم يكن يدهشه أمر الحريق الذي شب. كثيراً ما حكى له أبوه عن حرائق نجحوا في إخمادها. كلها كانـت نتيجـة الإهمال والتقصير. أما هذا الحريق الذي لم ير مثلـه فهـو متعمد وبفعل فاعل. فلماذا لا تسعى الحومة للقـبض علـى مرتكبي الحادث؟

كان البحث مجهداً في الزوايا والأرفف ، وعلى حافة الدولاب المدببة. تركوا الأثاث كله. وعبأوا زجاجات الفلفـل والكون والكسبرة في كرتونة كبيرة ، حملها مع أخوته.

في المنازل المجاورة شعر بـنفس الحركـة القلقـة المتوترة ، ورأى أصحابه يلوحون له مـن النوافـذ بوجـه مخطوف ، تغلب عليه الأحزان. لم يكن البكاء قد تصاعد بعد أن أجلوا ساعة الوداع مرة بعد مرة.

لقد استيقظ في عقله سؤال حزين له منطقيته : لمـاذا يجبرون على ترك المدينة.

كان يحبها ويبحث فـي الصـباح البـاكر – علـى شواطئها – عن الأصداف البحرية ، وقطع المرجان الملقـاة

على رمال دافئة ، كانت القواقع تتحـرك الآن لأن الحيـوان البحري لم يمت بعد ، وفي الدقائق التي تلي حركـة الجـذر كان يمكنه أن يعثر على نجمة البحـر ، وأصـداف شـديدة البياض ، ثم " الاستاكوزا " التي يعرف أيـن يبيعهـا بـثمن مجزٍ.

عليه الآن أن يحشر جسده بين صـرر الملابـس ، وكراتين كبيرة تمتلئ بأواني الطهي ، داخل سيارة سـتنقلهم إلى دمياط بلد الأم.

لم يزر تلك المدينة إلا مرات قلائل ، وليس له فيهـا أصدقاء. الشوارع هناك غريبة ، والوجوه غير مألوفة. يشعر أنه غريب ، ولا يفرح سوى بنقود " العيدية " لكنه لا يريدها هذه المرة. الأمر لا يخص العيد.

من علمه أن يرفض. دون بقية الأبناء وقف نحيلاً ، وصوته الضعيف لا يتساءل بل يقرر : سأبقى معـك. لـن أذهب معهم.

اغتصب الأب ضحكة : والمدرسة؟

كان يجهز الأجوبة في رأسه : لا أريدها.

تلك الأيام الموغلة في الشقاء. أحاط الرأس الصغير بيديه : أعرف أنها مدينتك وأنت تحبها. لكننا مجبرون علـى مفارقتها.

صمت الصبي. وأربعة عشر عاماً من الألفة والـود تتبدد في تلك اللحظة التي يتهيأ فيها للرحيل. أضاف بصوت غلبه الأسى : أرأيت الحرائق. هل شاهدت القتلى والجرحى في الشوارع والميادين.

مالنا رمال اللنش الذي أغرق مدمرتهم؟ كان سـؤال الصبي محتجاً لا يطلب إجابة.

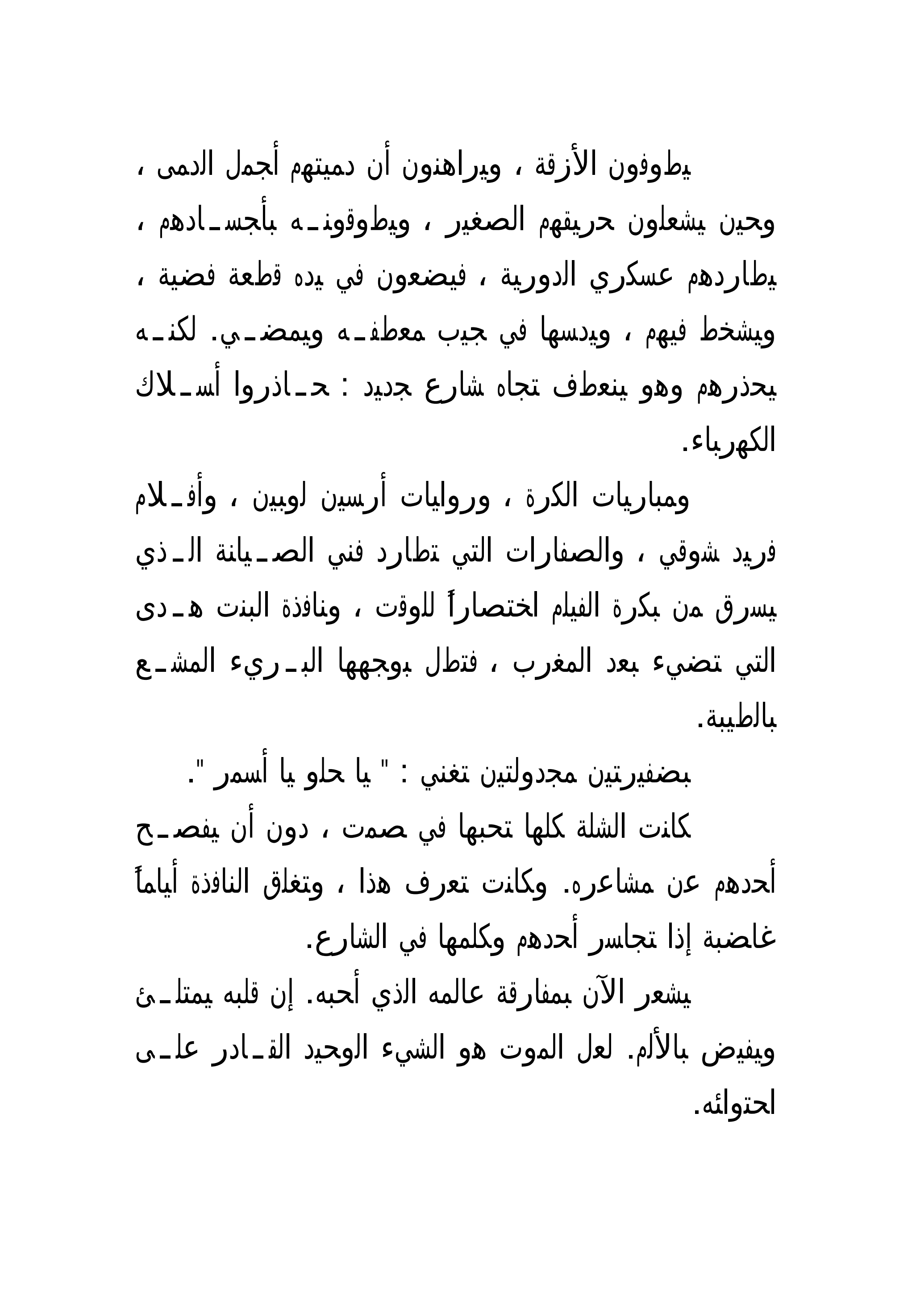
هل ذهبت أيام جمع القش ، ومصاصـة القصـب ، وقطع الأخشاب ، وبقايا الأقفاص القديمة استعداداً لإشـعالها ليلة شم النسيم؟

يسيرون في الشوارع حـاملين الدميـة المحشـورة بالمزق القديمة ، يهتفون والفرحة تغمرهم في موكب يتقاطر في شوارع المدينة :

" يا ألمبي.. يا بن ألمبوحة.

من قالك.. تتوجز توحة.

وامرأتك.. حلوة وبحبوحة "



يطوفون الأزقة ، ويراهنون أن دميتهم أجمل الدمى ، وحين يشعلون حريقهم الصغير ، ويطوقونـه بأجسـادهم ، يطاردهم عسكري الدورية ، فيضعون في يده قطعة فضية ، ويشخط فيهم ، ويدسها في جيب معطفـه ويمضـي. لكنـه يحذرهم وهو ينعطف تجاه شارع جديد : حـاذروا أسـلاك الكهرباء.

ومباريات الكرة ، وروايات أرسين لوبين ، وأفـلام فريد شوقي ، والصفارات التي تطارد فني الصـيانة الـذي يسرق من بكرة الفيلم اختصاراً للوقت ، ونافذة البنت هـدى التي تضيء بعد المغرب ، فتطل بوجهها البـريء المشـع بالطيبة.

بضفيرتين مجدولتين تغني : " يا حلو يا أسمر ".

كانت الشلة كلها تحبها في صمت ، دون أن يفصـح أحدهم عن مشاعره. وكانت تعرف هذا ، وتغلق النافذة أياماً غاضبة إذا تجاسر أحدهم وكلمها في الشارع.

يشعر الآن بمفارقة عالمه الذي أحبه. إن قلبه يمتلـئ ويفيض بالألم. لعل الموت هو الشيء الوحيد القـادر علـى احتوائه.

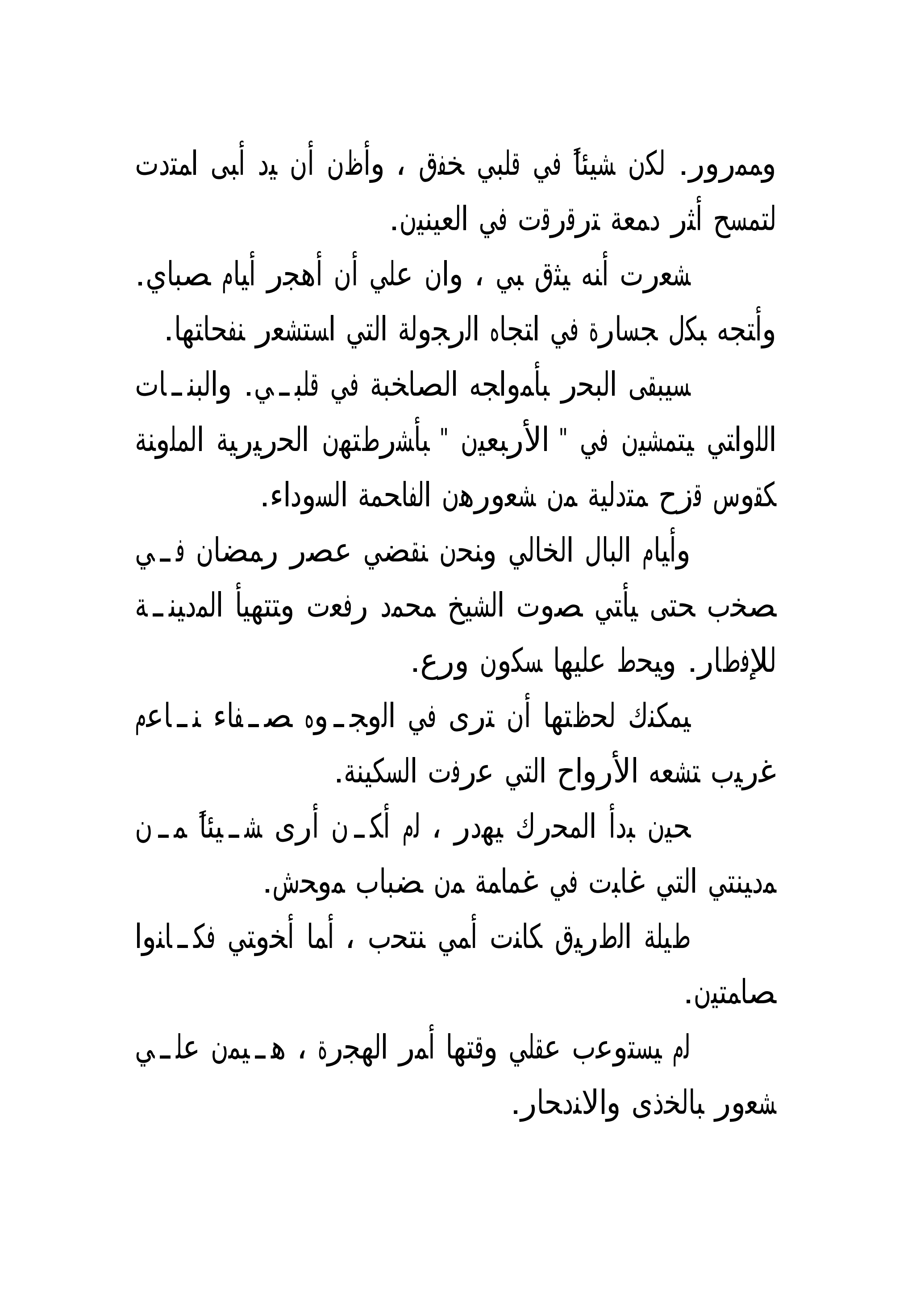
كان اليأس قد سيطر عليه. وكان يستعد لمبارحة الدنيا في غضب عاصف كما يليق بفارس انكسرت أحلامه فجأة. بعد حب خائب عليه أن يغادر تلك المدينة التي أحب أصدافها وعليه أن يحسم الأمر.

سيكتب رسالة من كلمات قليلة تفي بما يعتمل في رأسه :

"... حين أشعلوا الزيتية ، وقتلوا الرجال في الشوارع بقذائف عمياء ، كان يجب ألا نخاف ونرحل. حب خائب مقضي عليه بالفشل المدينة التي أحبها كيف يغادر. يجب عليه أن يغادر الدنيا ! "

عبارة واحدة غيرت الموقف تماماً. جذبه أبوه من ذراعه. طاف به الحجرات التي صارت كئيبة وغاضبة. ضغط على عروق يده : ذلك منزلك. إن أصابني شيء حافظ عليه من بعدي. أورثني جدك إياه. وهو لك ولأخوتك. إياك أن تفرط فيه.

" كنت الآن أمام مسئولية محددة. شعرت أنني أعبر بصعوبة بوابة حديدية سامقة بجسدي الضئيل. متعب



وممرور. لكن شيئاً في قلبي خفق ، وأظن أن يد أبى امتدت لتمسح أثر دمعة ترقرقت في العينين.

شعرت أنه يثق بي ، وان علي أن أهجر أيام صباي. وأتجه بكل جسارة في اتجاه الرجولة التي استشعر نفحاتها.

سيبقى البحر بأمواجه الصاخبة في قلبـي. والبنـات اللواتي يتمشين في " الأربعين " بأشرطتهن الحريرية الملونة كقوس قزح متدلية من شعورهن الفاحمة السوداء.

وأيام البال الخالي ونحن نقضي عصر رمضان فـي صخب حتى يأتي صوت الشيخ محمد رفعت وتتهيأ المدينـة للإفطار. ويحط عليها سكون ورع.

يمكنك لحظتها أن ترى في الوجـوه صـفاء نـاعم غريب تشعه الأرواح التي عرفت السكينة.

حين بدأ المحرك يهدر ، لم أكـن أرى شـيئاً مـن مدينتي التي غابت في غمامة من ضباب موحش.

طيلة الطريق كانت أمي تنتحب ، أما أخوتي فكـانوا صامتين.

لم يستوعب عقلي وقتها أمر الهجرة ، هـيمن علـي شعور بالخذى والانحدار.

لقد أدركت الآن معنى الهزيمة أكثر مـن أي وقـت مضى.

لو أن مقاتلينا دحروا الأعداء في صحراء صعبة هي سيناء وأجبروهم على النكوص والتراجع ، لما أشعلوا مصفاة البترول في الزيتية. وما جرءوا على قذف البيـوت الآمنـة بالقنابل.

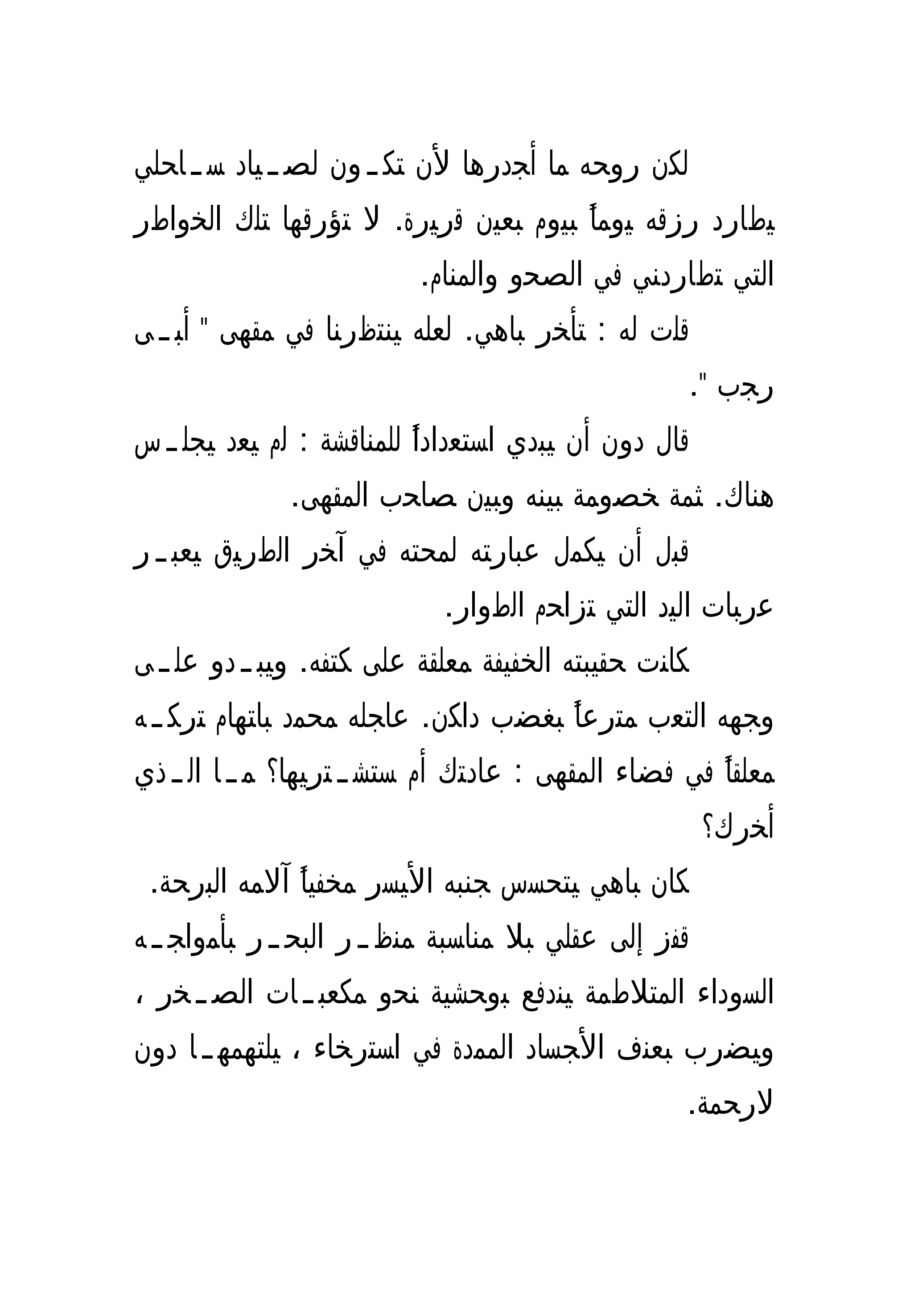
قال عسكري الشرطة : أين تصريح الخروج؟

كان أب قد اعتمد علي في هذا الأمر. مـددت يـدي صامتاً ، شملني بنظرة يشع منها الإجلال : تفضل !

تسلل إلى قلبي شيء غير الخزي والمرارة. إحساس لم آلفه من قبل بأن رجلاً يولد داخلي. رجلاً لن يعرف اللهو وجمع القواقع بعد اليوم. سأعود إلى البيت يا أبي "

كان محمد يحكي ونحن جالسين بمقهى شاهين بشوق الحسبة ننتظر في لهفة مجيء " بـاهي الحديـدي " حيـث يشاركنا رحلة العودة إلى موقع الكتيبة بالدفرسوار.

لم أكن أعرف أن محمد سويسي المولد والإقامة من قبل. كانت لهجته قد تميزت بتلك الرنة الدمياطيـة الغريبـة التي تمط آخر الحروف.



لكن روحه ما أجدرها لأن تكـون لصـياد سـاحلي يطارد رزقه يوماً بيوم بعين قريرة. لا تؤرقها تلك الخواطر التي تطاردني في الصحو والمنام.

قلت له : تأخر باهي. لعله ينتظرنا في مقهى " أبـى رجب ".

قال دون أن يبدي استعداداً للمناقشة : لم يعد يجلـس هناك. ثمة خصومة بينه وبين صاحب المقهى.

قبل أن يكمل عبارته لمحته في آخر الطريق يعبـر عربات اليد التي تزاحم الطوار.

كانت حقيبته الخفيفة معلقة على كتفه. ويبـدو علـى وجهه التعب مترعاً بغضب داكن. عاجله محمد باتهام تركـه معلقاً في فضاء المقهى : عادتك أم ستشـتريها؟ مـا الـذي أخرك؟

كان باهي يتحسس جنبه الأيسر مخفياً آلامه البرحة.

قفز إلى عقلي بلا مناسبة منظـر البحـر بأمواجـه السوداء المتلاطمة يندفع بوحشية نحو مكعبـات الصـخر ، ويضرب بعنف الأجساد الممدة في استرخاء ، يلتهمهـا دون لارحمة.

نظرت إلى الساعة في معصمي. أمامنا وقت طويـل حتى يحين موعد القطار.

لم أذهب إلى رأس البر منذ جندت. ولسـت أخشـى البحر ، ولا ترعبني أمواجه.

لكن يده كانت تتحسس جرحاً قـديماً أبـرزت تلـك الصورة وما لبث أن تلاشت من الذهن.

سأله محمد : لقد التئم وشفيت. فماذا حدث؟

أسند باهي كتفيه على المسند ، وزفر أنفاسـاً مليئـة بالأنين : هذا يحدث كثيراً عندما تعبرني ملامح الذين ذهبوا. تمتد يدي بلا إرادة تلتمس الراحة فيشتد علي الوجع.

صمت ثم أضاف ونظره مثبت على بلاطات المقهى: كدت أذهب للمستشفى الأميري لأحصل على إجازة مرضية، وتراجعت.

عاتبه محمد : وما الذي منعك

هز كتفيه : أريد أن يمضي الأمر بسلام. لا أريد أن أتوقف أمام تلك الآلام التي تقتحم هدوئي بعنف ، ثم تـذهب لحال سبيلها.

قلت لهما والأمواج تضرب بعنف ذاكرتي : أمامنـا ثلاث ساعات على تحرك القطار ما رأيكما أن نـذهب إلـى رأس البر. في هذا الوقت من العام تكون الشواطئ هادئـة. والنسائم طازجة.

كاد محمد أن يتشـاجر معـي : ألا تشـعر بـآلام الآخرين. الرجل متعب.

قفز باهي مرحباً بالفكرة : هذا ما أحتاجه. هيا بنا.

كانت السيارة تنطلق في طريق السـنانية المتعـرج القديم ، وأشجار الليمون تعبق برائحة عطـرة ، وأحـراش النخيل تحتضن العربة في رفق ، بينما ظلال أشجار الجوافة والنبق والبمبوظا تطوقنا في مشهد بالغ الروحة. صـحت : ا .

لزما الصمت ، والسائق أطلق نفيره ليتفادى مـرور قطة سوداء !

أمام مسجد الرحمة هبطنا ، سرنا في موازاة شـارع ٣٣ ، متجهين صوب البحر الذي كان يأتينا وشيشه هدائاً.

كانت الحقائب مدلاة فوق الأكتـاف. نسـير بزينـا العسكري. لسان البحر الناصع البيـاض والأداف الملسـاء

المستديرة ، وأم الخلول ، وسرطانات جدي صغيرة. فجـأة صرنا في مواجهته. علا الـرذاذ حـين ضـربت الأمـواج مكعبات الأسمنت الهائلة. كان السلسان ناحية اليمـين. رش وجوهنا فأنعشنا. خلعنا البيادات وفككنا الأربطـة بصـعوبة. رحنا ندوس بأقدامنا القواقع المتراكمـة. وننصـت لصـوت الانكسار الهش.

غمرت المياه أرجلنا والصفاء أرواحنا. كنا نجـري كصبية.

تذكرت طفولتي التي حكى لي عنها.هل نحـاول أن نخرج من قوقعة الأوامر الصارمة والطاعة العمياء لنبحـث عن إنسانية طمرتها أيام الجندية؟

سبقنا باهي بخطوات ، سألت محمد : ما الذي يؤلمه؟

ضغط على يدي : سأحكي لك فيما بعـد. أصـابته شظية قاتلة.

سألت ملحاً : في أكتوبر.

هز رأسه : في أكتوبر !

تنفس في عمق : كانت إصابته بجانب القلب تمامـاً. هتكت ضلعين ، وأتلفت جزءاً من مرارته.

قلت : كتب له عمر جديد؟

تمتم : حين أخليناه كان في حساب الخسائر.

وقف باهي واضعاً يديه في وسطه : هيا يا كسالى.

ضحك ورشاش الماء يغسل وجهه : عساكر صفا.

قلت محاولاً مجاراته المرح الذي غاب عنا كثيـراً : استرح.

قال محمد : تموتون في الميـري. مـا المـانع أن تتطوعوا.

أعطيناه ظهورنا. التفت نحوه باهي ، وعنفه : أنـت الذي تموت من أجل شريط جديد على كتفك.

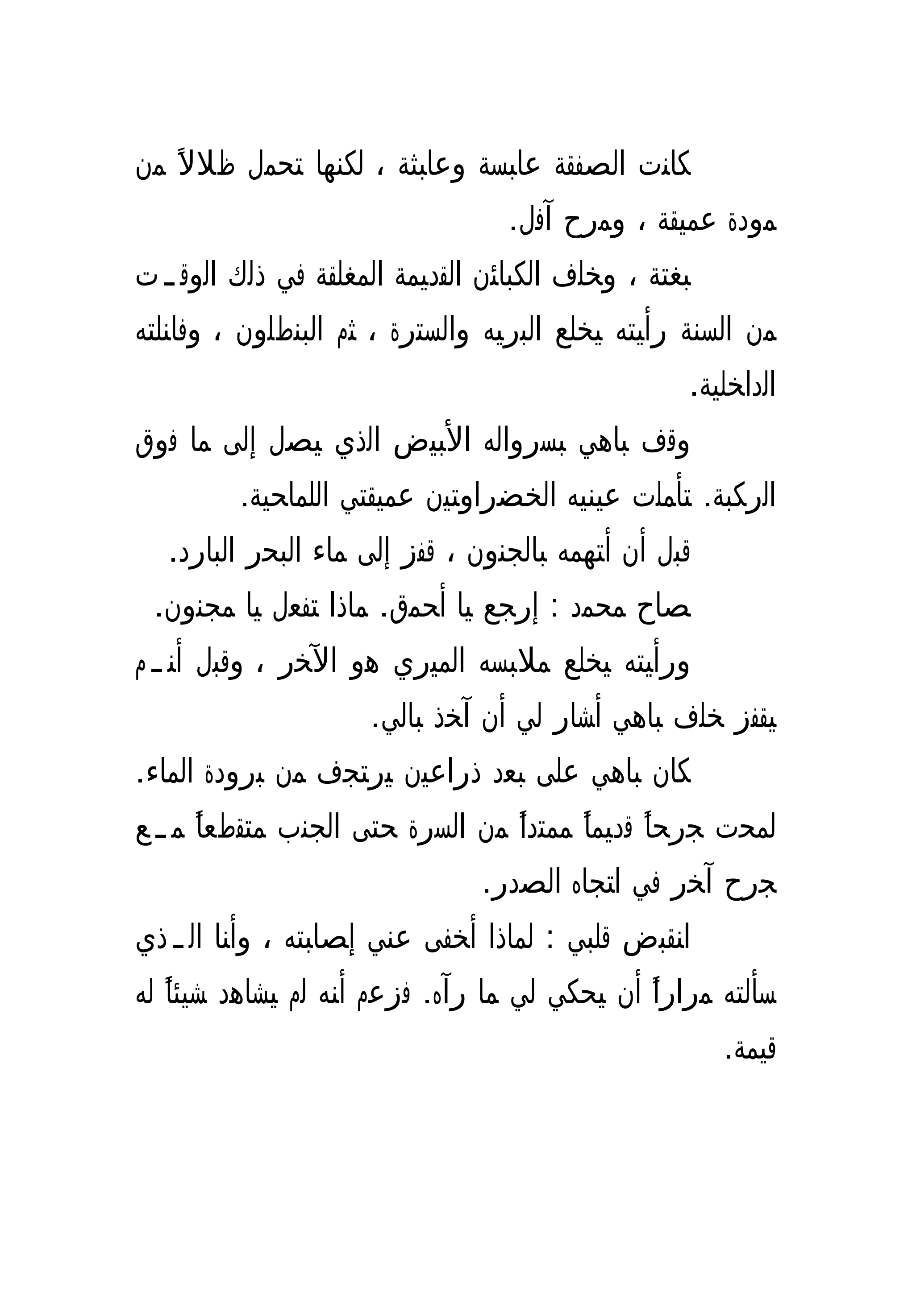
لما سكت ، عاد يعنفه أكثر : الحمد . دخلت جندياً وسأخرج جندياً. أما أنت فلك في العسكرية باع طويل.

كشف محمد حمام أوراقه : ومن الذي حصل علـى وسام. أليس أنت.

تمتم مصطنعاً الغضب : أتشتريه.

رد برعة : بكم؟

اقترح باهي الثمن : معافاة نهائياً من الخدمـة. مـا رأيك؟



كانت الصفقة عابسة وعابثة ، لكنها تحمل ظلالاً من مودة عميقة ، ومرح آفل.

بغتة ، وخلف الكبائن القديمة المغلقة في ذلك الوقـت من السنة رأيته يخلع البريه والسترة ، ثم البنطلون ، وفانلته الداخلية.

وقف باهي بسرواله الأبيض الذي يصل إلى ما فوق الركبة. تأملت عينيه الخضراوتين عميقتي اللماحية.

قبل أن أتهمه بالجنون ، قفز إلى ماء البحر البارد.

صاح محمد : إرجع يا أحمق. ماذا تفعل يا مجنون.

ورأيته يخلع ملابسه الميري هو الآخر ، وقبل أنـم يقفز خلف باهي أشار لي أن آخذ بالي.

كان باهي على بعد ذراعين يرتجف من برودة الماء. لمحت جرحاً قديماً ممتداً من السرة حتى الجنب متقطعاً مـع جرح آخر في اتجاه الصدر.

انقبض قلبي : لماذا أخفى عني إصابته ، وأنا الـذي سألته مراراً أن يحكي لي ما رآه. فزعم أنه لم يشاهد شيئاً له قيمة.

رحت اخلع ملابسي وأنا أتأمل الجرح ثانية قبـل أن أخلع نظارتي الطبية ، وأنزل معهم حيث الأمواج.

نغسل تعبنا. يضرب البحر صدورنا. لقـد أرهقتنـا الأرض بضجيجها فهو الملاذ.

نادى محمد حمام بأعلى صوت : ادخل يا رعديد.

صرخ باهي : خض الماء أكثر يا جبان.

كانا يضحكان كطفلين ، يمسحان تعب الحرب التـي لم أخضها.

قلت : سآتي معكما !

(٨)

" كانت مهمة الكتيبة المحددة هـي احـتلال دشـمة الدفرسوار وتل سلام...

تقدم رجال المشاة بقذائف أر. بي. جـي ، وطوقـوا النقطة التي ظلت تطلق نيرانها على جموع العسكر الزاحفين بكفاءة عالية ، ومن مزاغل جد خفية.

كنا شمال البحيرات المرة في المنطقة التـي تفصـل الجيش الثاني عن الجيش الثالث ، نمثل – نحـن – أقصـى الحد الأيمن للجيش الثاني الميداني.

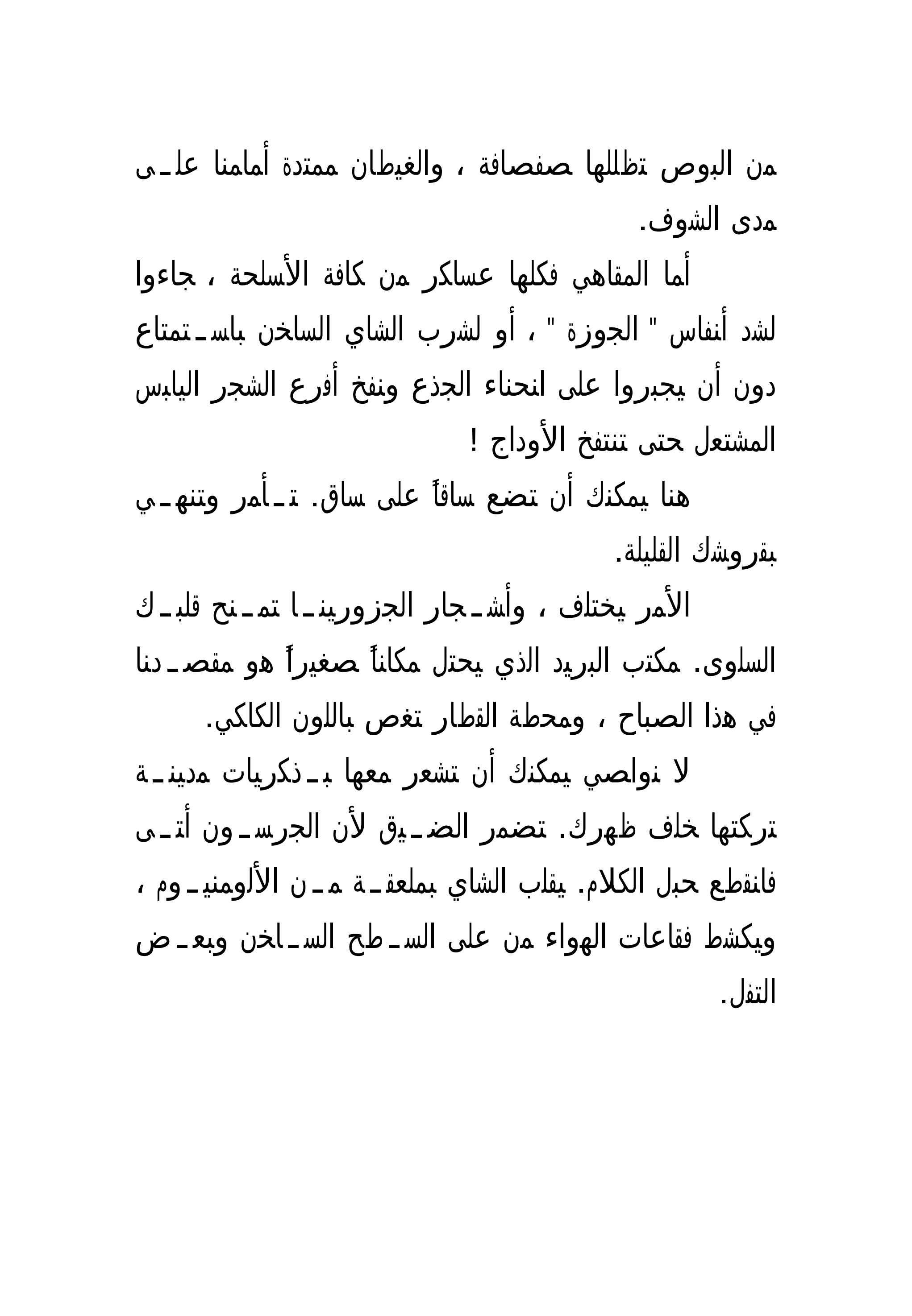
حول دشمة الدفرسوار تساقط جنود كثيرون. كانـت نقطة قوية بحق ، وكان معنا قائد شجاع. ليتني أتذكر اسمه. لا بد أنه مدون بالسجلات العسـكرية وفـي أوراق عمليـة الكتيبة. كان برتبة الملازم. كل ما أتذكره وجهـه الأسـمر وشامة على خده تميزه عن غيره من الرتب ، ونظرة محـدد لا تعرف الشرود.لقد اندفع نحو النقطة غير عابئ بالطلقـات التي حولته إلى خرقة مثقوبة من لحم ودم وعظام.

كان منظراً يثير الرعب. لكن الجنود اندفعوا في إثره. واحتلوا الدشمة بعد مقاومة رهيبة ، وقتال بالسلاح الأبيض. تم تطهير الموقع ، وسقنا الأسرى إلى المؤخرة. لقد رأيتهم بنفسي ، وأنا أتابع طلعات طيرانهم ألقيت عليهم نظرة عجلى. كانوا يزفرون في ضيق مكتوم. "

أبو سلطان ببيوتها الطينية الفقيرة حولنا ، نجلس على أحد مقاهيها ، والمقاعد الخوصية تغوص بنا.

يدعك محمد حمام جبينه ويحكي. تراه يغمض عينيه، وتتجعد جبهته إذا ما فاته اسم أو واقعة دون أن يتذكرها.

يأتي الجرسون بأكواب الشاي الستة. يضعها برفق على منضدة مكسورة الحافة من رخام قديم ناصع البياض ، مشبع بعروق رمادية. من خلفنا ترعة ، وحولها من ناحية الأسفلت النسوة جالسات يضعن في الأواني قطع الجبن القريش ، ومكعبات الزبدة ، وأشجار الكافور يغطي ظلها جلستنا. شجرة توت وحيدة خلف البيوت تنفض آخر أوراقها. فلاح يمسك " الشرشرة " ويدفع حماره أمامه ، وآخرون يسوقان جاموسة في اتجاه المصرف. على بعد خطوات عشة



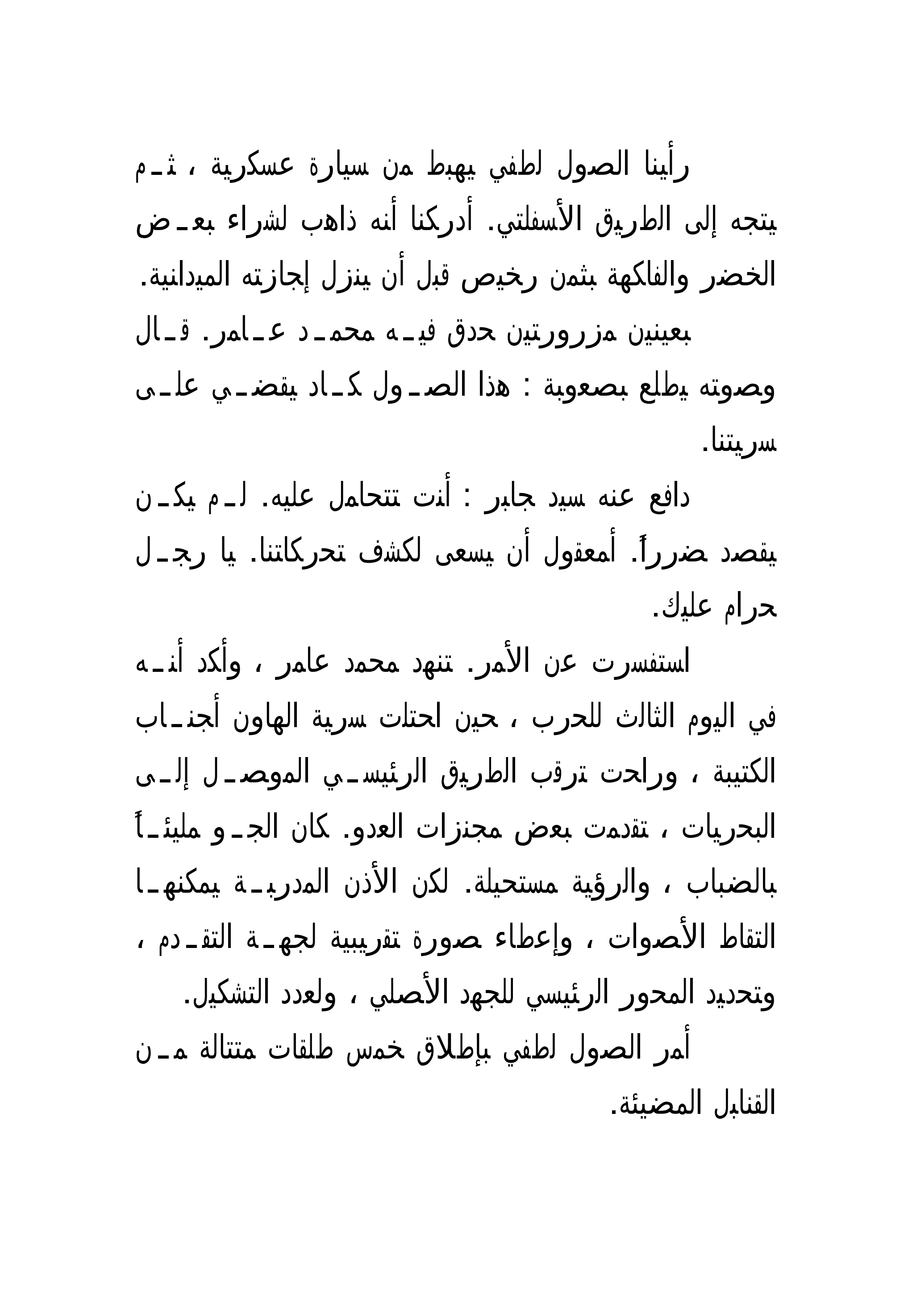
من البوص تظللها صفصافة ، والغيطان ممتدة أمامنا علـى مدى الشوف.

أما المقاهي فكلها عساكر من كافة الأسلحة ، جاءوا لشد أنفاس " الجوزة " ، أو لشرب الشاي الساخن باسـتمتاع دون أن يجبروا على انحناء الجذع ونفخ أفرع الشجر اليابس المشتعل حتى تنتفخ الأوداج !

هنا يمكنك أن تضع ساقاً على ساق. تـأمر وتنهـي بقروشك القليلة.

الأمر يختلف ، وأشـجار الجزوريـنـا تمـنح قلبـك السلوى. مكتب البريد الذي يحتل مكاناً صغيراً هو مقصـدنا في هذا الصباح ، ومحطة القطار تغص باللون الكاكي.

لا نواصي يمكنك أن تشعر معها بـذكريات مدينـة تركتها خلف ظهرك. تضمر الضـيق لأن الجرسـون أتـى فانقطع حبل الكلام. يقلب الشاي بملعقـة مـن الألومنيـوم ، ويكشط فقاعات الهواء من على السـطح السـاخن وبعـض التفل.



رأينا الصول لطفي يهبط من سيارة عسكرية ، ثـم يتجه إلى الطريق الأسفلتي. أدركنا أنه ذاهب لشراء بعـض الخضر والفاكهة بثمن رخيص قبل أن ينزل إجازته الميدانية.

بعينين مزرورتين حدق فيـه محمـد عـامر. قـال وصوته يطلع بصعوبة : هذا الصـول كـاد يقضـي علـى سريتنا.

دافع عنه سيد جابر : أنت تتحامل عليه. لـم يكـن يقصد ضرراً. أمعقول أن يسعى لكشف تحركاتنا. يا رجـل حرام عليك.

استفسرت عن الأمر. تنهد محمد عامر ، وأكد أنـه في اليوم الثالث للحرب ، حين احتلت سرية الهاون أجنـاب الكتيبة ، وراحت ترقب الطريق الرئيسـي الموصـل إلـى البحريات ، تقدمت بعض مجنزرات العدو. كان الجـو مليئـاً بالضباب ، والرؤية مستحيلة. لكن الأذن المدربـة يمكنهـا التقاط الأصوات ، وإعطاء صورة تقريبية لجهـة التقـدم ، وتحديد المحور الرئيسي للجهد الأصلي ، ولعدد التشكيل.

أمر الصول لطفي بإطلاق خمس طلقات متتالة مـن القنابل المضيئة.

كشفت الطلقات عن كائن أفـراد لمشـاة ، وأبانـت الموقع.

" أمطرونا بالرشاشات نصف البوصة ، ولولا سـتر ا لقضي علينا.

كانت فرصة ذهبية كي يكشفوا تشكيلاتنا ".

رأيتهم ينظرون للسيد جابر. كانت للـريح رائحـة الزرع والماء الجاري.

تمال في جلسته. صاح في وجوههم : " فضوا تلـك السيرة. صلوا على النبي ".

قرصني المغاوري في ركبته. مـال بشـفتيه حتـى حاذت شفتاه أذني ، همس :

" لقد أصيب هناك ! "

قال رزق معنفاً جابر : " أتمنعنا من الكلام؟ "

رد بغلاظة : " نعم. أمنعكم. لا تذكرونا بتلـك الأيـام التي انقضت. "

قلت محاولاً تفويت الأزمة : " يا جماعة.. لا داعـي للشجار ".

شوح بيده في وجوههم ، فرأيت أصابعه الطويلـة ، وخاتم الفضة : " أصلهم خرجوا كالشعرة من العجينـة. لـم يمت واحد منهم. لم يجرح أحدهم. هل منكم أسـرى؟ " راح يدق على صدره ويكررها..

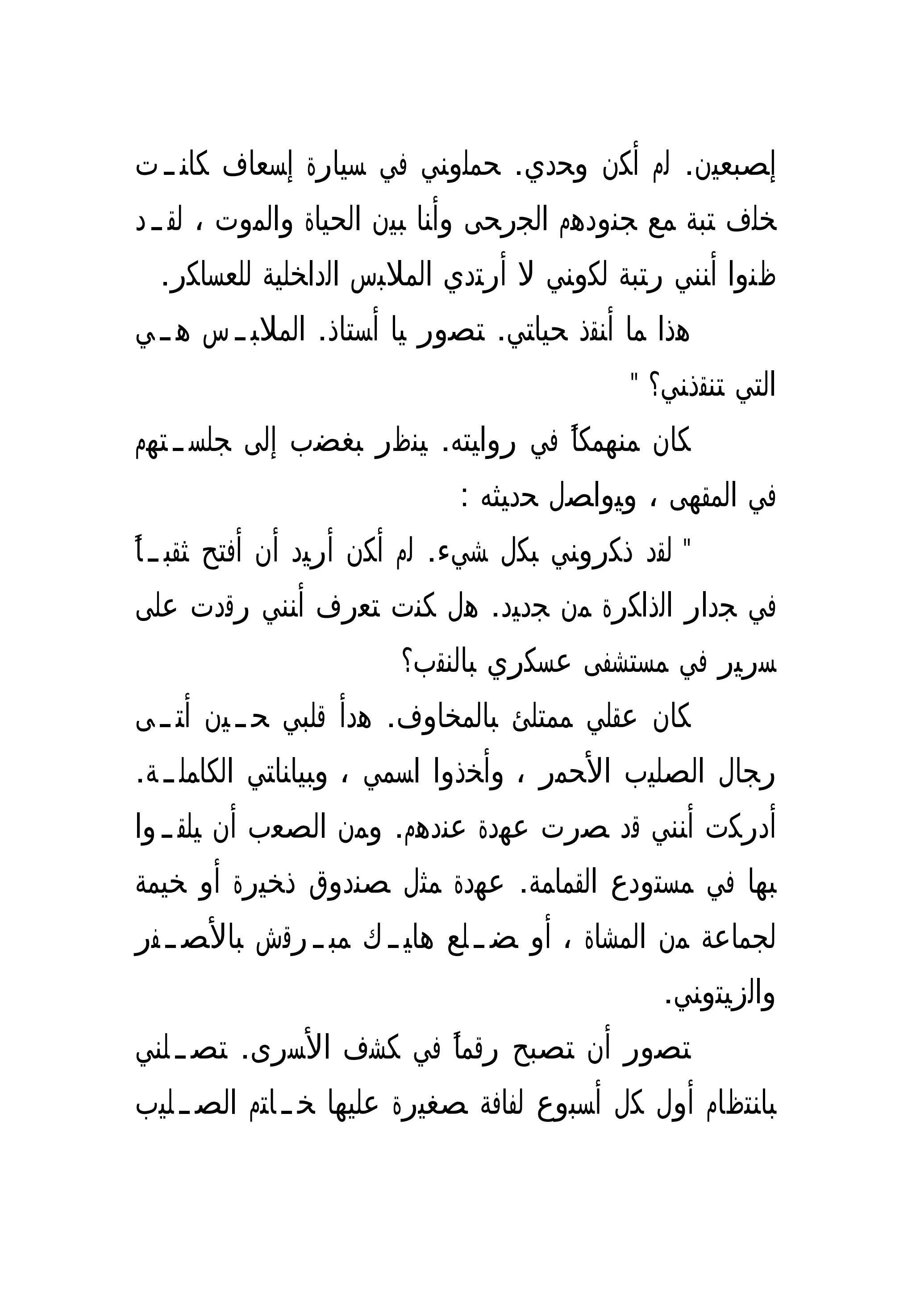
" الذين ماتوا صمتوا إلى الأبـد ، والـذين جرحـوا أخرستهم دماءهم التي ترقرقت وانتم ليل نهار تثرثرون. "

استبد بالمغاوري الغضب ، أراد أن يوقف هجـون. وسُمع طلق ناري فسكت الجميع. فوجئت به يأخـذني مـن ذراعي : " سنذهب لشراء جائر ! "

كان يعرج في سيره ، ولا يمكنني رغم ذلك مجاراته في خطواته المتسارعة. تطلع إلى وجههي ، وشـعرت بـأن شيئاً في داخله متضارب ومتردد :

" أتريد الحقيقة يا أستاذ؟ هذه الكتيبـة ُأنهكـت فـي الحرب تماماً. لحقها من الخسائر مـا لا أسـتطيع وصـفه. أتعرف أنني جُرحت جرحاً بالغاً؟

حين أطبقت المجنزرات على مواقعنا قاومنا بكل ما نستطيع. واجهنا بأجسادنا كتل الفولاذ الهائلة. لم أطلق ساقي في الريح.. تم أسري بعد أن أصابت ساقي شظية ، بتـرت



إصبعين. لم أكن وحدي. حملوني في سيارة إسعاف كانـت خلف تبة مع جنودهم الجرحى وأنا بين الحياة والموت ، لقـد ظنوا أنني رتبة لكوني لا أرتدي الملابس الداخلية للعساكر.

هذا ما أنقذ حياتي. تصور يا أستاذ. الملابـس هـي التي تنقذني؟ "

كان منهمكاً في روايته. ينظر بغضب إلى جلسـتهم في المقهى ، ويواصل حديثه :

" لقد ذكروني بكل شيء. لم أكن أريد أن أفتح ثقبـاً في جدار الذاكرة من جديد. هل كنت تعرف أنني رقدت على سرير في مستشفى عسكري بالنقب؟

كان عقلي ممتلئ بالمخاوف. هدأ قلبي حـين أتـى رجال الصليب الأحمر ، وأخذوا اسمي ، وبياناتي الكاملـة. أدركت أنني قد صرت عهدة عندهم. ومن الصعب أن يلقـوا بها في مستودع القمامة. عهدة مثل صندوق ذخيرة أو خيمة لجماعة من المشاة ، أو ضـلع هايـك مبـرقش بالأصـفر والزيتوني.

تصور أن تصبح رقماً في كشف الأسرى. تصـلني بانتظام أول كل أسبوع لفافة صغيرة عليها خـاتم الصـليب

الأحمر ، وبها أطعمة مجففة ، وبطاقة بريـد ، ومظـروف ومعه دفتر صغير ، وزجاجة عطر.

من يمول الصليب الأحمر هذا؟ إنهم أثرياء. في كل مناسبة يحضرون أطعمة ومجلات وفي مرة أتـوا بزهـور وضعوها بجوار أسرتنا.

المرة الأولى التي يقدم فيها السيد جابر زهور كانت وأنا أسير. جاءت فتاة سويسرية وقدمت الباقة وهـي تحنـي رأسها وتشملني بابتسامة ساحرة.

رائحة المطهر ، والضمادات التي أحاطت سـاقي ، ومنظر المجندات. وهن يرمقنا بنظـرات عدائيـة جعلتنـي أصرخ طالباً الموت أو العودة إلى الوطن.

سألت مندوبهم : متى نعود؟

مط شفته السفلى ، وهز رأسه : حين يـأتي موعـد تبادل الأسرى.

ابتسم ابتسامة لا لون لها ، وأعطاني ظهره ، ومضى في طريقه إلى عنبر آخر.

قذفته بآنية الزهور فلم تصـبه ، اتسـعت ابتسـامته وأشار بسبابته أن أجيد التصويب في المرة التالية.

كانت الممرضة " جانيت شاؤول " تترجم ل عباراته، وكنت أشعر به كراقـ ـ ـص باليه ، وبحركات ساقيه التـي تشبه البجعة.

كانت جانيت من أصل مصري ، وهاجرت إلى تـل أبيب بعد حرب ١٩٥٦ ، تسألني باستمرار أن اروي لها نكتة مصرية.

كنت ممروراً ، والأسـرى مـن حـولي صـامتين وجروحهم نافذة. وحدي كنت الأعلى صوتاً. خصـوماتنا لا تنتهي ، وثرثرة لعينة تطوقنـا ، وتلـون أيامنـا بالرمـادي المتعجرف.

أسموني المشاغب. كانت تحـدق فـي ملامحـي ، وتصيح بي : سيد جابر. سيعطونك عكاز بعد أيام.

كنت أصرخ في وجهها فتفزع : لا أريد عكـازكم. أريد العودة.

تسألني عن مدينتي ، وحين أخبرها أنها الإسكندرية ، تقفز في فضاء الغرفة.

وتشهق : البحر والعشب ، وشاطئ جليم.

كنت أصدمها باسكندرية التـي أعرفهـا : مـرابط الخيل، ومزاود التبن ، وساحات غيط العنب ، حيث البيـوت متراصة تزهو بفقرها.

حتى لو لم تهاجري يا جانيت وظللت في الإسكندرية ما تقابلنا. لأن حي غيط العنب لا يشبه شاطئ سان استيفانو.

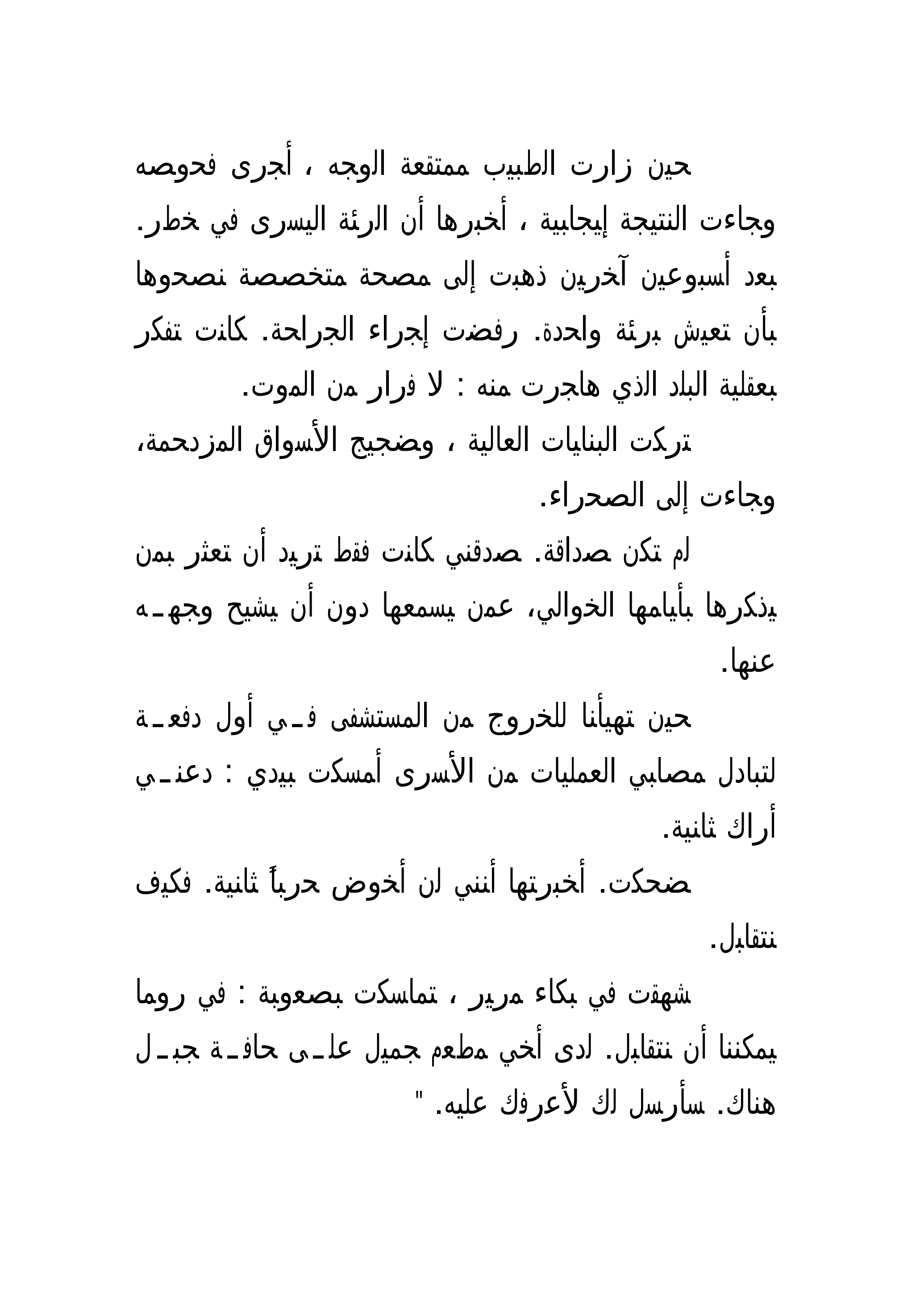
كانت تتأملني مغتاظة ، وحين يشتد بي الغضـب ، تصيح بي أن أصمت : أنت أسيرنا.

كانت المرة الأولى التي لا تدوس دباباتهم الأسرى ، فتطحن عظامهم. هل لأن الموازين اختلفت. وصـار لـدينا نحن أيضاً أسرى من كتائبهم.

لا أعتقد أنه أحبتني قط. كانت تعشـق اسـكندريتها القديمة ، تجلس على طرف سريري دون الآخرين. تحـدثني عن طفولة بهيجة انتزعت منها كدمية جميلة دون سبب.

تتندى عيناها بالدموع وهـي تهتـف بـي أن يـود الشاطبي ما زالت رائحته تغزو صدرها المريض. همسـت في أذني مرة أنها مريضة.

قامت من نومها منذ عامين فوجدت نفسـها تسـعل وتسعل ، وتبصق دماً.



حين زارت الطبيب ممتقعة الوجه ، أجرى فحوصه وجاءت النتيجة إيجابية ، أخبرها أن الرئة اليسرى في خطر. بعد أسبوعين آخرين ذهبت إلى مصحة متخصصة نصحوها بأن تعيش برئة واحدة. رفضت إجراء الجراحة. كانت تفكر بعقلية البلد الذي هاجرت منه : لا فرار من الموت.

تركت البنايات العالية ، وضجيج الأسواق المزدحمة، وجاءت إلى الصحراء.

لم تكن صداقة. صدقني كانت فقط تريد أن تعثر بمن يذكرها بأيامها الخوالي، عمن يسمعها دون أن يشيح وجهـه عنها.

حين تهيأنا للخروج من المستشفى فـي أول دفعـة لتبادل مصابي العمليات من الأسرى أمسكت بيدي : دعنـي أراك ثانية.

ضحكت. أخبرتها أنني لن أخوض حرباً ثانية. فكيف نتقابل.

شهقت في بكاء مرير ، تماسكت بصعوبة : في روما يمكننا أن نتقابل. لدى أخي مطعم جميل علـى حافـة جبـل هناك. سأرسل لك لأعرفك عليه. "

سألته وروايته الغريبة تحاصرني : أهذا معقول. أنت سيد جابر الصموت تخفي كل تلك الأسرار؟

كلمت نفسي : هذا الجندي الأعرج الذي ينتظر بفارغ الصبر إجراءات الرفت من الخدمة منذ أشهر يحمل كل هذه الحكايات المأساوية.

لاحظ شرودي ، هزني من كتفي : " لا تظـن أنـك تعرف أسراري وحدك.

حين عدت من الأسر أسرعت المخابرات الحربية في استجوابنا واحد واحد. ولقد رويت لهم كل شيء.

أما فير سرية الهاون فهم لا يعرفون أكثر من أننـي كنت أسيراً. أرجوك لا تحكي لهم عن جانيت شاؤول. إنهـا علاقة محيرة ، خاصة جداً ، وغريبة.

كلما أتذكر لحظة وداعها لي أقترب من حافة البكاء. أشعر بها وحيدة ويتيمة. لم يكن حباً ولم تكن صداقة. إنهـا تكبرني بسنوات رغم جمالها ، خيط لامع حاولت الإمسـاك به. لقد كانت صادقة في مشاعرها ، وكنت أبحث عن ذلـك. كانت تحاول أن تعيش في الماضي ، تهرب إليه لأن الحاضر حاصرها بقسوته ولا جدواه ".

كانت الذكريات قد استهوته ، وأغواه صمتي ، ومنظر الماء الرائق الذي يتدفق عبر قنوات تسير بمحاذاة الحقول. الأخضر الفسيح أمامنا. يزفر أنفاساً حارة ويواصل:

"... رئيسة الممرضات كانت بولندية الأصل ، كثيراً ما حدثت مشادة كلامية بينها وبين جانيت. كانت إرملة متزمتة ، قوية الشخصية ، وقد أضفى عليها المنصب صرامة ، فازداد وجهها تقطيباً.

عندما تراها تحدثني ، تشير بيدها : اتركي هذا البرغوث قليلاً.

ألححت عليها أن تخبرني ماذا تقول. بعد محاولات مضنية صارحتني وترجمت لي العبارة من العبرية إلى العربية. اغتظت ودبرت لها مكيدة.

جعلتها يوماً قادمة في آخر الممر تتبختر في مشيتها الواثقة. خلف الباب الموارب قبعت. وفجأة جذبت بكل قوة سجادة الممر ، تطوحت وانزلقت على ظهرها.

دخل مدير المستشفى وأجرى تحقيقاً في العنبر. لم يعترف جريح واحد. اتهمتني ضيقوا علي الخناق فلم

أعترف. أعادوا استجواب الأسرى في أسرتهم. لم يظفـروا بنتيجة. في نهاية الأمر أغلقوا باب التحقيق في الموضوع.

كانت كلما تدخل العنبر بعد التحقيق تتحسس فقـرات ظهرها ، ترمقني بنظرة عدائية ، لكنها لم تعد تشتمني فقـد أدركت أنني عرفت بأمر البرغوث.

كانت جانيت قد لقنتني الجملة التـي سـهرت ليـال عديدة أحفظها بالعبرية. حين تحرك الأتوبيس ، لوحت لهـا بالعكاز : إلى اللقاء أيها البرغوث العجوز.

ضحكت كل ممرضات المستشفى أما هي فقد راحت تضرب الأرض بقدميها... "

عدت إلى المقهى ، وكنت أغالب رغبتـي فـي أن يكمل حديثه. كان حمام يلعب (الدومينو) مع عـامر. أمـا رزق فقد راح يساوم امرأة جميلة بزيها الأسود الواسع على شراء دجاجة. كنت أعرف أنه لا يملك مليماً من ثمنها. بكل تأكيد يتأمل اتساع عينيها ويعربد بنظراتـه المختلسـة فـي تضاريس جسدها.

عاد ليجلس أمامنا ويضرب كفاً بكف : سأجن يا خلق ا . حور في العيون واحمرار في الخدود. أريد منك يا رب

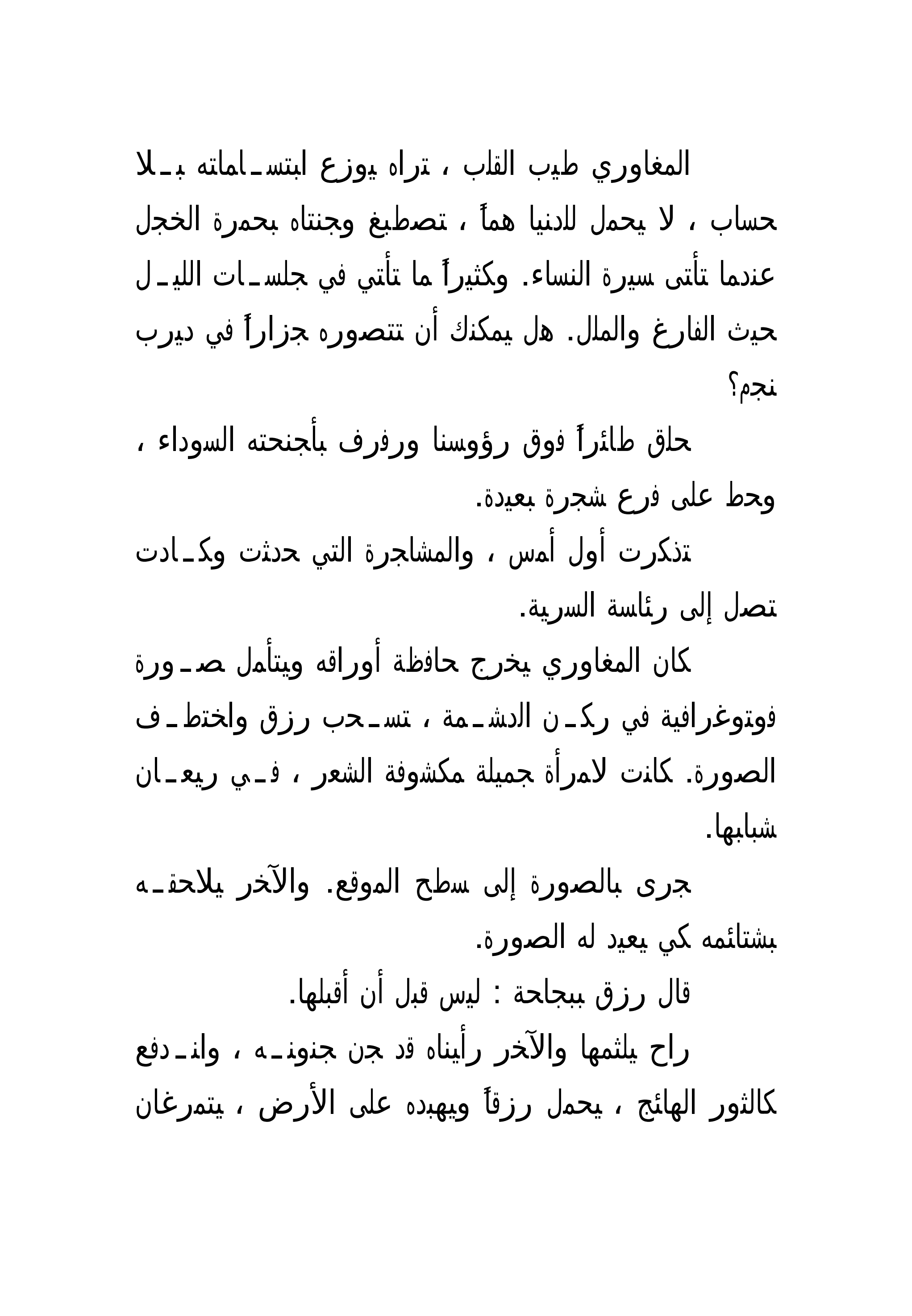
امرأة في مثل جمالها وسيارة وعمارة. هل هذا كثيراً علـى عبد فقير؟

اتهمه سيد جابر أنه فلاح من ساقية مكي. ما الـذي أفهمه في العيون وهو أحول وفي الخدود بينما وجهه أصفر. ولماذا يريد سيارة وهو بالكاد يسوق حماراً بصـعوبة. أمـا العمارة فلا يصلح إلا ليكون بواباً لها ، وبواسطة من عضو مجلس الشعب.

وأنه حين يسرح من الكتيبة سيرجع إلـى أصـله ، ويعمل في مصنع المياه الغازية. وأن عليه أن يلم الـدور ، ويعيش عيشة أهله.

يتبلل وجه رزق بالعرق ، ويدافع عن ساقية مكـي ، يخبرنا أنها أنجبت أفذاذاً ، من رجال العلم وكبار الساسـة ، وان طلمبات المياه صارت في كل زاوية ، والنور قد دخلها منذ أعوام. وأن الشيخ " الطبلاوي " الذي سـمعته كالطبـل يجاورهم في السكن ، وأنه حين يقف فوق السـطوح يـرى بوضوح تام عمته وقفطانه.

لقد أحيا ليلة المأتم حين توفي الوالـد دون أن يأخـذ مليماً أحمراً. فهل في حارتك شيخ مثله يا جابر؟



المغاوري طيب القلب ، تراه يوزع ابتسـاماته بـلا حساب ، لا يحمل للدنيا هماً ، تصطبغ وجنتاه بحمرة الخجل عندما تأتى سيرة النساء. وكثيراً ما تأتي في جلسـات الليـل حيث الفارغ والملل. هل يمكنك أن تتصوره جزاراً في ديرب نجم؟

حلق طائراً فوق رؤوسنا ورفرف بأجنحته السوداء ، وحط على فرع شجرة بعيدة.

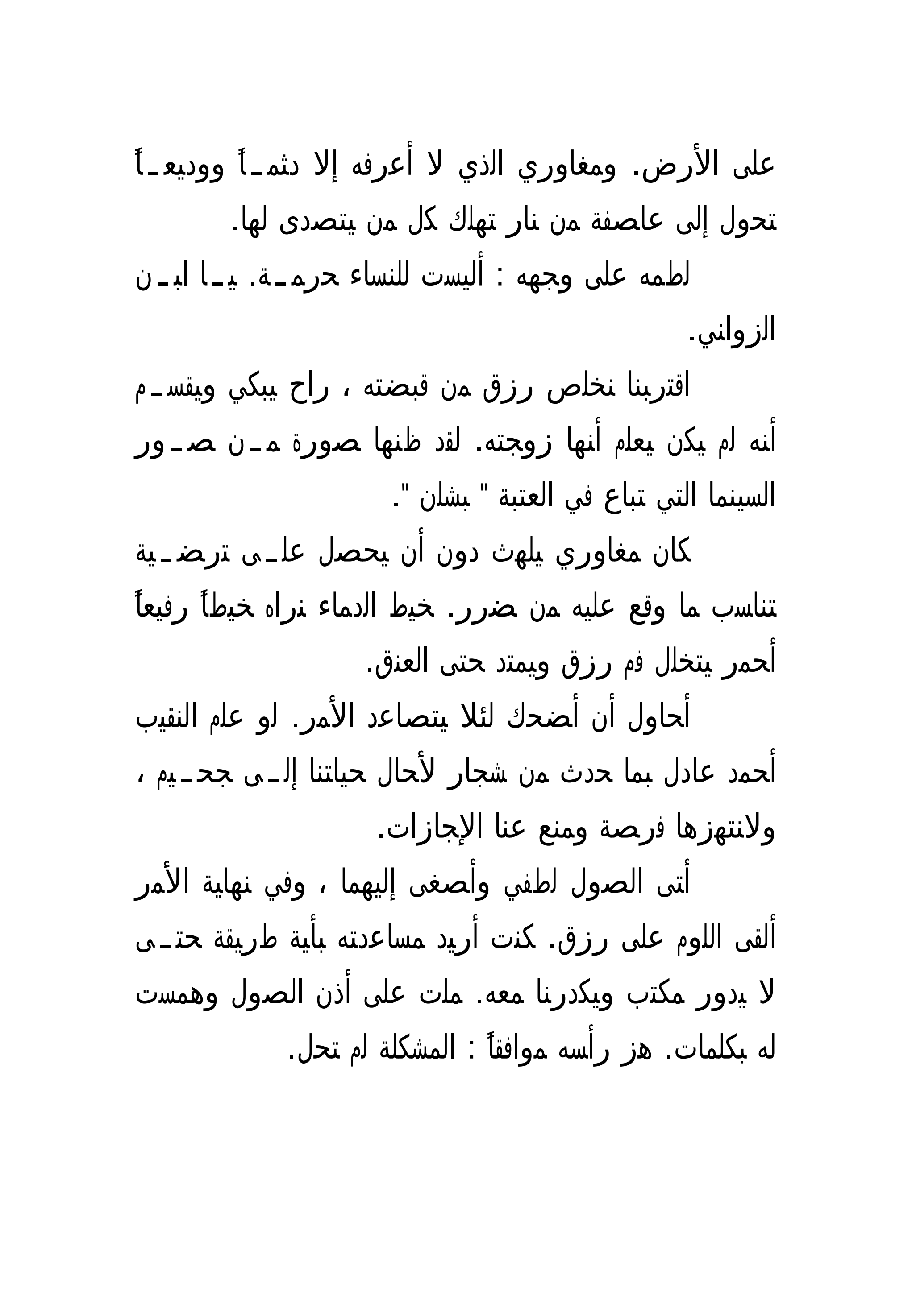
تذكرت أول أمس ، والمشاجرة التي حدثت وكـادت تصل إلى رئاسة السرية.

كان المغاوري يخرج حافظة أوراقه ويتأمل صـورة فوتوغرافية في ركـن الدشـمة ، تسـحب رزق واختطـف الصورة. كانت لامرأة جميلة مكشوفة الشعر ، فـي ريعـان شبابها.

جرى بالصورة إلى سطح الموقع. والآخر يلاحقـه بشتائمه كي يعيد له الصورة.

قال رزق بجاجة : ليس قبل أن أقبلها.

راح يلثمها والآخر رأيناه قد جن جنونـه ، واندفع كالثور الهائج ، يحمل رزقاً ويهبده على الأرض ، يتمرغان


على الأرض. ومغاوري الذي لا أعرفه إلا دثمـاً ووديعـاً تحول إلى عاصفة من نار تهلك كل من يتصدى لها.

لطمه على وجهه : أليست للنساء حرمـة. يـا ابـن الزواني.

اقتربنا نخاص رزق من قبضته ، راح يبكي ويقسـم أنه لم يكن يعلم أنها زوجته. لقد ظنها صورة مـن صـور السينما التي تباع في العتبة " بشلن ".

كان مغاوري يلهث دون أن يحصل علـى ترضـية تناسب ما وقع عليه من ضرر. خيط الدماء نراه خيطاً رفيعاً أحمر يتخال فم رزق ويمتد حتى العنق.

أحاول أن أضحك لئلا يتصاعد الأمر. لو علم النقيب أحمد عادل بما حدث من شجار لأحال حياتنا إلـى جحـيم ، ولانتهزها فرصة ومنع عنا الإجازات.

أتى الصول لطفي وأصغى إليهما ، وفي نهاية الأمر ألقى اللوم على رزق. كنت أريد مساعدته بأية طريقة حتـى لا يدور مكتب ويكدرنا معه. ملت على أذن الصول وهمست له بكلمات. هز رأسه موافقاً : المشكلة لم تحل.

رزق قبل صورة مغاوري. العـين بـالعين والسـن بالسن. ستفعل مثلما فعل. "

امتدت يد رزق تمسح خيط الدم. هز رأسه متحدياً :

" لا زوجة لي. أنتم تعرفون ".

نهره الصول : " أخرج حافظتك دون كلمة واحدة ".

هؤلاء الرجال الذين حاربوا حملوا معهـم ، داخـل أعماقهم ذلك التراث الشرقي المعقد الغريب. لم يخلصهم منه الموت الذي رأوه ، ولا الكون الذي تفسخ أمام أعينهم لحظة المجابهة. أمعقول أن تحدث مشاجرة من أجل صورة؟

في مكمن في أعماق نفوسهم توجد مضغة لا يمكـن أن تتغير أو تتحول.

بحث الصول في الأوراق : أرانيك عيادة ، بطاقـة التجنيد ، طوابع بريد ، أوراق مالية مطوية بعناية. ثم انتزع صورة فوتوغرافية لامرأة عجوز.

صاح رزق : " إنها أمي ".

قال الصول لطفي بمكر : " عز الطلب ".

مد يده إلى مغاوري الذي تأمل الصورة فـي بدايـة الأمر بعدم اقتناع ، ولما لم يجد مفر من الانتقام لشرفه اندفع يقبلها بجنون : " واحدة بواحدة ".

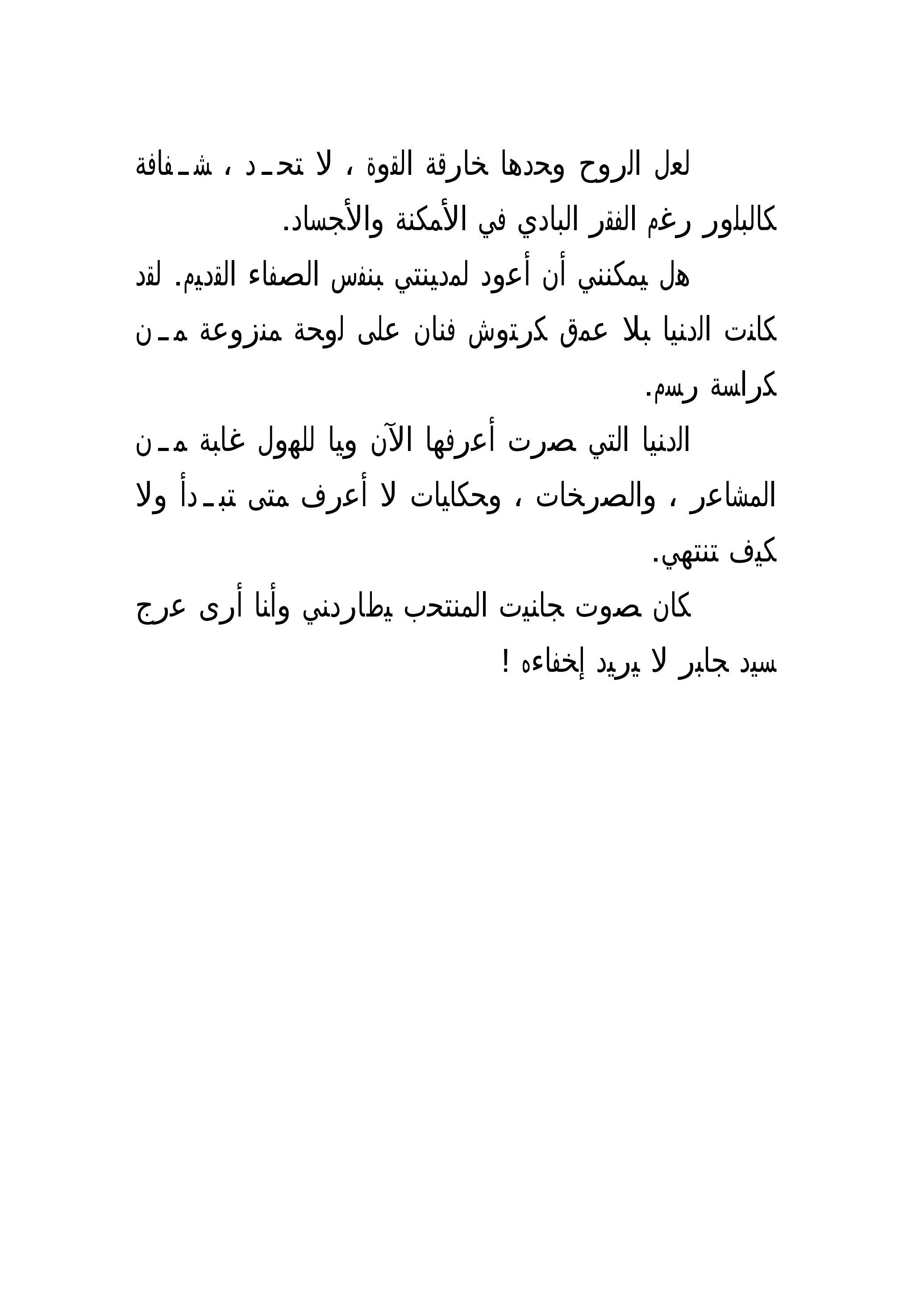
أما نحن فقد كادت قلوبنا تكف عن الخفقـان. كـدنا نموت من الضحك الذي لا ينقطع إلا ليتواصل مـن جديـد. ورزق يصرخ ولا أحد يرد عليه :

" كله إلا أمي.. كله إلا أمي.. احتشم يا مغـاوري.. عيب عليك "

زعق فيه الصول الذي ارتدى ثياب الوعظ : ولكـم في القصاص حياة !

من منا بلا نقائض. تأملت الوجوه من حولي. قمنـا عائدين إلى الموقع ، وأنا مثقل بالحكايات والرؤى وذكريات الأسر ، وبدائية الريفيين ، وأنين الروح.

وجوه الفلاحات مليحة ، ورجال مسربلون بالحكمة. هنا في أبي سلطان كل شيء واضح وبسيط. حتى النفوس لا تعرف الخبث والالتواء. إذا غضبت لا تمد يدل لتصافح. إذا أحببت تدفع عمرك فداء لمن تحب.



لعل الروح وحدها خارقة القوة ، لا تحـد ، شـفافة كالبلور رغم الفقر البادي في الأمكنة والأجساد.

هل يمكنني أن أعود لمدينتي بنفس الصفاء القديم. لقد كانت الدنيا بلا عمق كرتوش فنان على لوحة منزوعة مـن كراسة رسم.

الدنيا التي صرت أعرفها الآن ويا للهول غابة مـن المشاعر ، والصرخات ، وحكايات لا أعرف متى تبـدأ ولا كيف تنتهي.

كان صوت جانيت المنتحب يطاردني وأنا أرى عرج سيد جابر لا يريد إخفاءه !

(٩)

تم اختيارنا للحصول على فرقة استطلاع بالعامرية : رزق ، والمغاوري والشربتالي وأنا.

كانت هناك ثلاث شخصيات قـد تعلقـت بهـا فـي الكتيبة: محمد حمام من الـ م. ط ، والمغاوري رغم سذاجته وريفيته الزائدة من الهاون ، وأحمد عبد ربه من الـ م. د.

قبل السفر بأسبوع جاء النقيب متفقداً شئون الفصيلة. يحمل العصا الأبنوس بيمنه ويضرب كـف يـده اليسـرى برتابة، وثنية البنطلون تغوص في حذاء لامع له رقبة تصل إلى قصبة الساق.

في الساحة نواصل تدريباتنا اليومية في فك الهـاون وحمله ، وتركيبه في أقل من ثلاثين ثانية.

دخل الملاجئ وراح يتأمل ترتيب الأسرة والمهمات. أمضى وقتاً طويلاً في دشمتنا. لا شك أنه يقلب فـي الكتـب المرصوصة خلف وسادتي ، والتي لا أجد الوقت لتصـفحها إلا نادراً.

دخل دشمة الطابق الثالث وغاب أكثر من نصف الساعة. خرج يحمل دفتراً صغيراً بغلاف أزرق من الشفاف. كان يخص الشربتالي. وكثيراً ما لمحته يدون فيه مذكراته في الخفاء. أحضر له الصول لطفي مقعداً ، فجلس تحت شجرة التوت العتيقة يتصفح الدفتر.

إربد وجهه وهو يقرأ ما خطه أحمد طاهر بيده في كراسته. كان مثلي يجمع ذكريات الحرب الفائتة. كنت حذراً أدون في ذاكرتي أكبر حشد من التفصيلات ثم أنتهز فرصة إجازتي الميدانية التي تمنح لي كل ثلاثين يوماً لأدونها كرؤوس مواضيع ، وإشارات خفية ، وعناوين رئيسية ، وتحتها بخط منمق دقيق كل ما أتذكره من تفصيلات دون أن أغفل شاردة أو واردة.

بشكل مفاجئ أشار بيده للصول لطفي أن يصرف في طابور التدريب قبل موعده. كان يحاول أن يكبح جماح ثورته دون أن يتمكن من ذلك.

تكهنت أنه قرأ رأي رفاق الهاون القدامى فيه.

لقد كان يمنع حكمدارية الأطقم من إطـلاق نيـران الهاون إذا شعر مجرد الشعور البسيط بأن ثمـة رد عنيـف ينتظره من قوات العدو.

كان لا يملك شجاعة قائد ثاني الكتيبة مقدم محسـن فوزي الذي كان يشارك رجاله صـنع الحفـر البرميليـة ، وتغطية الـ م. د بشـباك التمويـه ، وقيـادة مجموعـات الاستطلاع في عمق دفاع العدو.

ولم يكن بمقدوره أن يملك جسـارة العقيـد أحمـد إسماعيل عطية الذي عبر مع النسق الأول دون أن يطلب من أحد ذلك.

لم يكن مثلهما له قلب إنساني يعفو ويسامح ، وفـي الأوقات الحرجة يمكنه أن يصبح مثل حـد السـيف قاطعـاً صارماً دون أدنى تنازل.

أكثر ما كان يهمه أن يعود سالماً ، وذلك بأن يناور ، ولا يطلق قذائفه إلا في الوقت الذي يتأكد من أنه خلف ساتر يخفيه تماماً. كان يدير في إصبعه خاتم الخطوبـة الـذهبي ، ويتأمل السلسلة التي يعلقها حول عنقه. وكل ليلة يعود إلـى

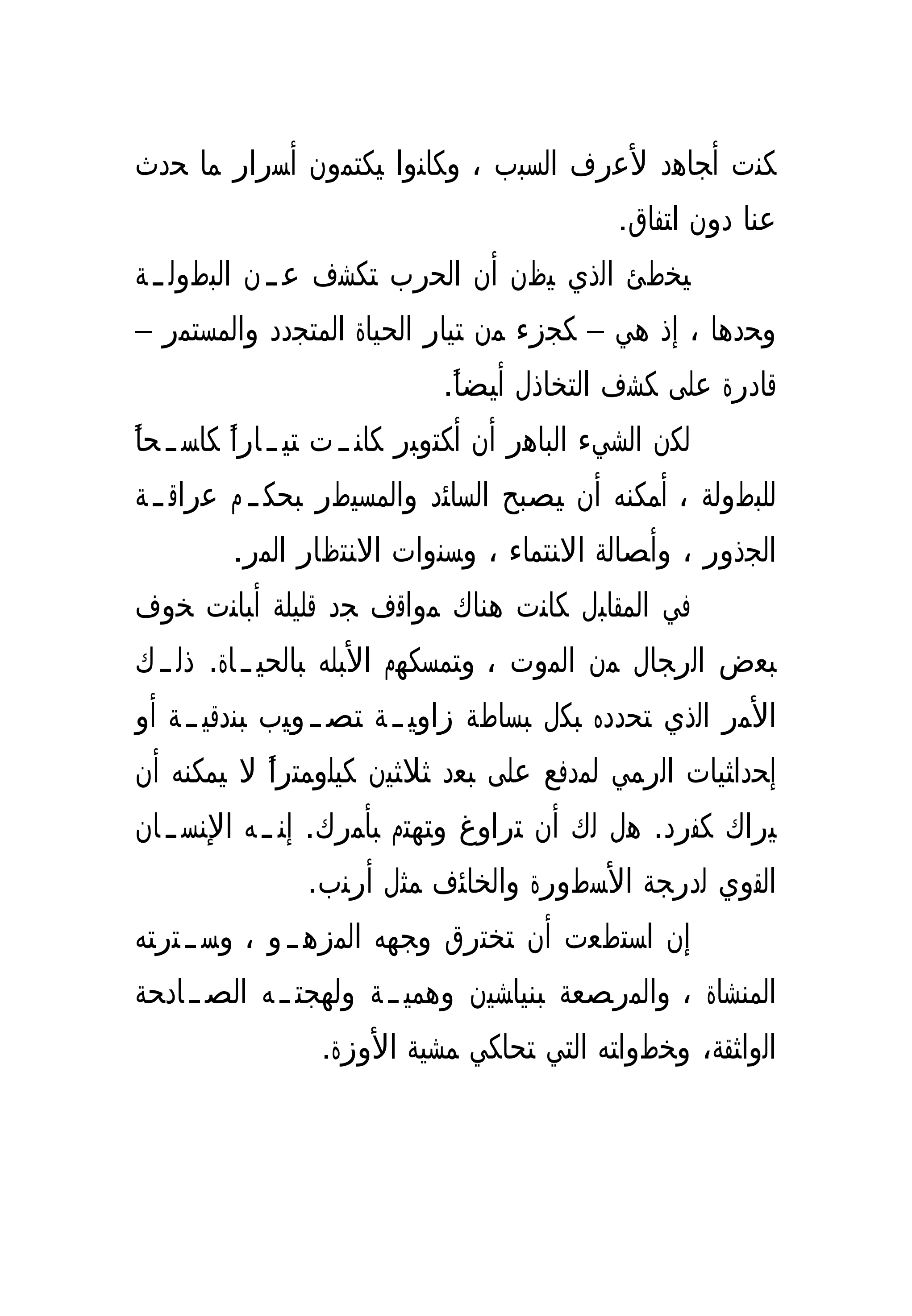
المؤخرة بدعوى الاطمئنان على إرسال كميات جديـدة مـن الذخيرة ، ويسند مسئولية السرية للملازم أول فرج.

لم يكن ما خطه الشربتالي من وحي خياله. فهو مثلي لم يره ، لكنه التقط تلك المعلومات بطريقته وضمنها دفتره.

لم أكن أضع للأمر أهمية لأن الإنسان الكامـل لـم يوجد بعد. كنت أدرك أن النفس البشرية مليئة بالانعطافـات ونواحي الضعف ، ونوازع القسوة ، وأن الضعف الإنسـاني لا يمكن نفيه لأنه نقيض الشجاعة وقـوة الإرادة ، كلاهمـا موجود.

امتلائي بالأسئلة والأجوبة كشف لي بشكل محدد أن تحت الجماجم عقول نيرة وأخرى مظلمة. كنت قبل أن ألتحق بالجندية غير محصن بأكذوبة الملامـح الجميلـة والأعـواد الفارعة لرجال كشفت الأيام الصعبة معادنهم ، وأبانت خطـأ أفكاري التي بنيت على فرضيات واهنة.

حين صنع النقيب العسكري المستجد محمد عبـاس بشكل فجائي وفوري ، وغير إنساني أدركت أن ثمة خصومة ستنشأ بيننا ، نحن الذين أتينا إلى هذا المكان بصفحات بيضاء لم تسودها أية كتابات بعد وبينه. فما المبرر الذي دفعه لذلك؟



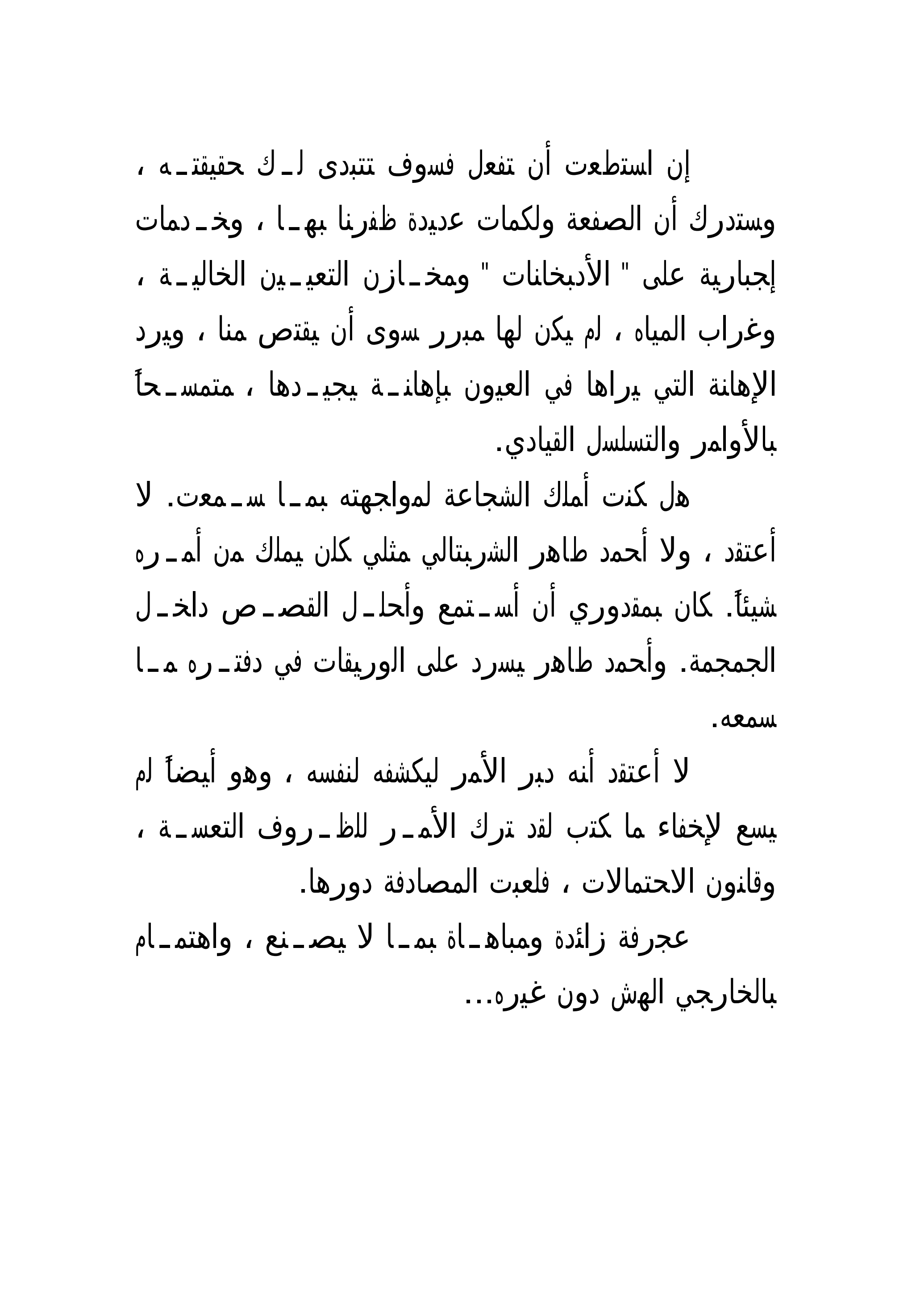
كنت أجاهد لأعرف السبب ، وكانوا يكتمون أسرار ما حدث عنا دون اتفاق.

يخطئ الذي يظن أن الحرب تكشف عـن البطولـة وحدها ، إذ هي – كجزء من تيار الحياة المتجدد والمستمر – قادرة على كشف التخاذل أيضاً.

لكن الشيء الباهر أن أكتوبر كانـت تيـاراً كاسـحاً للبطولة ، أمكنه أن يصبح السائد والمسيطر بحكـم عراقـة الجذور ، وأصالة الانتماء ، وسنوات الانتظار المر.

في المقابل كانت هناك مواقف جد قليلة أبانت خوف بعض الرجال من الموت ، وتمسكهم الأبله بالحيـاة. ذلـك الأمر الذي تحدده بكل بساطة زاويـة تصـويب بندقيـة أو إحداثيات الرمي لمدفع على بعد ثلاثين كيلومتراً لا يمكنه أن يراك كفرد. هل لك أن تراوغ وتهتم بأمرك. إنـه الإنسـان القوي لدرجة الأسطورة والخائف مثل أرنب.

إن استطعت أن تخترق وجهه المزهـو ، وسـترته المنشاة ، والمرصعة بنياشين وهميـة ولهجتـه الصـادحة الواثقة، وخطواته التي تحاكي مشية الأوزة.



إن استطعت أن تفعل فسوف تتبدى لـك حقيقتـه ، وستدرك أن الصفعة ولكمات عديدة ظفرنا بهـا ، وخـدمات إجبارية على " الأدبخانات " ومخـازن التعيـين الخاليـة ، وغراب المياه ، لم يكن لها مبرر سوى أن يقتص منا ، ويرد الإهانة التي يراها في العيون بإهانـة يجيـدها ، متمسـحاً بالأوامر والتسلسل القيادي.

هل كنت أملك الشجاعة لمواجهته بمـا سـمعت. لا أعتقد ، ولا أحمد طاهر الشربتالي مثلي كان يملك من أمـره شيئاً. كان بمقدوري أن أسـتمع وأحلـل القصـص داخـل الجمجمة. وأحمد طاهر يسرد على الوريقات في دفتـره مـا سمعه.

لا أعتقد أنه دبر الأمر ليكشفه لنفسه ، وهو أيضاً لم يسع لإخفاء ما كتب لقد ترك الأمـر للظـروف التعسـة ، وقانون الاحتمالات ، فلعبت المصادفة دورها.

عجرفة زائدة ومباهـاة بمـا لا يصـنع ، واهتمـام بالخارجي الهش دون غيره...

أما الأبطال الحقيقيون فقد رأيتهم يتحركون دون ضجة ، لم أر أحدهم يحمل عصا أبنوسية أو يضع بنطلونه داخل حذائه برقبة تصل إلى سمانة الساق.

وحده كان يفعل ، وكأنه يطارد الخزي الذي يعرف أنه قد لحق به ، وهو يختبئ ، ويعود إلى المؤخرة في اللحظات الحاسمة ، ويناور ضعفه.

في لحظة من لحظات التجلي والمباسطة حكى عامر كل شيء ، وفي نهاية حديثه أدرك أنه قد تخطى الخط الأخضر واقترب من دائرة الخطر.

" أفلت لساني. لا تقل ذلك لأحد. أرجوك. الموقف دقيق. لم يبق لي في السرية سوى أشهر قليلة وأسرح.. لا أريد مشاكل ".

كان قد حكى لي عن تلك اللحظة المريرة التي طوقت دبابات السنتوريون الموقع ، وراح أفراد " الموليتكا " يتعاملون في الأجناب مع الأرتال المتزايدة بهمة وحماس.

جاءت الأوامر بعمل ستارة من قنابل ش. ف. لقطع الطريق الرئيسي. جاء جندي افشارة برسالة تحمل نفس المعنى. لكن وضح أن الرمي سيكشف مواقعنا. لذا أجل

النقيب العملية قليلاً. وعندما جاء الاستفسار عن سبب التأخر. دافع النقيب عن ذلك بأن المواقع ستتعرض للتدمير. وستخسر الكتيبة بذلك مصدر نيران متحرك أساسي وهام.

جاء المقدم محسن بنفسه ، وأمضى ليلته مع الأطقـم الضاربة يناول بيده الذخيرة ، ويعـدل زاويـة الضـرب ، والنقيب واقف في نصف هدومه. يتلجلج لسانه.

رأوه يأخذه بعيداً ينزع عنه دبابيره اللامعة ، ويلقـي بها على الأرض :

" لا تستحق أن تحصل على شريطي عريف. "

سكت وابتلع الإهانة ، فتصاعد غضبه : " هل أنـت محارب حقاً؟

عد إلى ناديك. اخلع ملابسك هناك. تمدد على رخام حمام السباحة بين الحسناوات. أنت لا تليق بالحرب ".

جرى الملازم أول فرج ، حاول أن يلاطف الجـو ، تعهد أن تكون هذه هي أول وآخر غلطة.

زجره المقدم بنظرة نارية : " الخواطر لا تنفع فـي الحرب. نحن أول الخاسرين يا فرج. ما معنى أن تمهل تنفيذ الأوامر. أنحن في مشروع تدريب يحتمل الصواب والخطأ؟ "

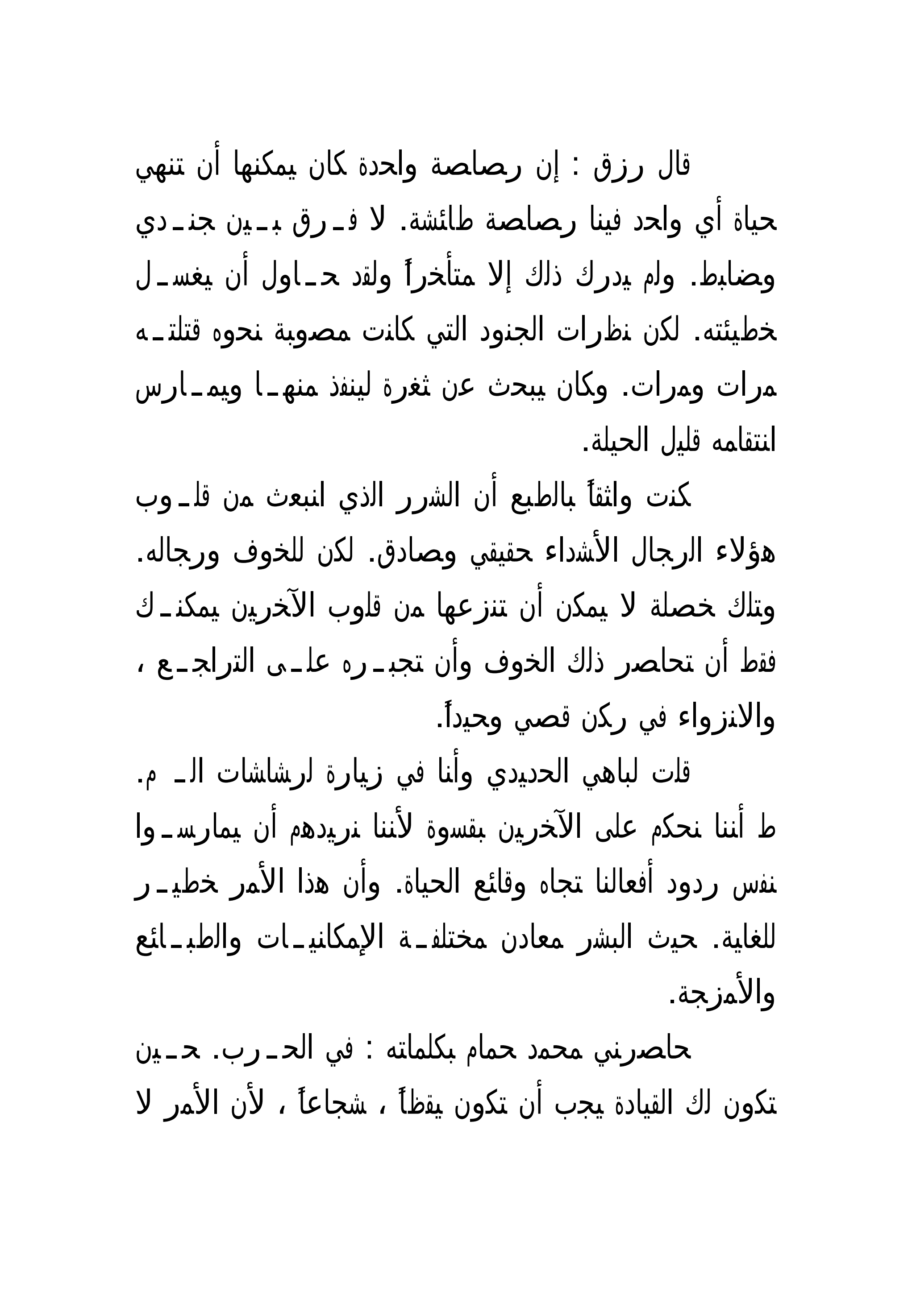
ترك الموقع ومضى ، وحين عاد للحفر التبادلية منكس الرأس ، لامه الملازم أول فر رفق ، وتمتم النقيب بأن الخطأ غير مقصود.

كانت القذائف قد بدأت تنهمر على الموقع ، وعجنت قنبلة الألف رطل أجساد جماعة من مشاة الفصيلة الثانية بالسرية المجاورة حد أيمن الكتيبة وفي المفصل بين الجيشين. كانت تتأهب لاحتلال موقع متقدم.

نزف سيد جابر ، وتراجعت قوات السرية. فمن حكى لأحمد طاهر الشربتالي ذلك الموقف. هل تراه رزق. لا أعتقد أنه يخشى غضب النقيب.

كنت أستطيع أن أدرك أن الذي يضع يده في النار وحده القادر على أن يدين ويغفر ويعفو. أما نحن فلم نشارك في الأمر ، وليس بمقدورنا أن نحاكم الآخرين على تقاعسهم.

لكن الصفعة دللت على حقيقة أنه لم يغفر لنفسه. لقد أخبرني محمد عامر أنه في العمليات التالية كان يحاول أن يمسح تخاذله بمواقف جنونية مبالغ فيها. لقد كان يخلع خوذته وسط معمعة القتال ، ويقذف بنفسه في آتون أي تبادل وكأنه ينفي عن نفسه تهمة التقصير.


قال رزق : إن رصاصة واحدة كان يمكنها أن تنهي حياة أي واحد فينا رصاصة طائشة. لا فـرق بـين جنـدي وضابط. ولم يدرك ذلك إلا متأخراً ولقد حـاول أن يغسـل خطيئته. لكن نظرات الجنود التي كانت مصوبة نحوه قتلتـه مرات ومرات. وكان يبحث عن ثغرة لينفذ منهـا ويمـارس انتقامه قليل الحيلة.

كنت واثقاً بالطبع أن الشرر الذي انبعث من قلـوب هؤلاء الرجال الأشداء حقيقي وصادق. لكن للخوف ورجاله. وتلك خصلة لا يمكن أن تنزعها من قلوب الآخرين يمكنـك فقط أن تحاصر ذلك الخوف وأن تجبـره علـى التراجـع ، والانزواء في ركن قصي وحيداً.

قلت لباهي الحديدي وأنا في زيارة لرشاشات الـ م. ط أننا نحكم على الآخرين بقسوة لأننا نريدهم أن يمارسـوا نفس ردود أفعالنا تجاه وقائع الحياة. وأن هذا الأمر خطيـر للغاية. حيث البشر معادن مختلفـة الإمكانيـات والطبـائع والأمزجة.

حاصرني محمد حمام بكلماته : في الحـرب. حـين تكون لك القيادة يجب أن تكون يقظاً ، شجاعاً ، لأن الأمر لا

يخصك وحدك. وإلا فعليك أن تلازم حفرتك وتبحث عن نجاة ذاتك. لكنك ستخسر كل شيء. فليس هناك مجـال للهـرب الفردي.

وقفنا قبالته أمام العنبر الواسع في أحراش المطـار القديم ، وبقايا مدفئة من أيام الإنجليز ما زالت تحمل رونـق الماضي ، ورائحة الكفاح المسلح حين ألغي مصطفى النحاس المعاهدة التي وقعها.

كانت الشمس قد غطست لتوها في الغـرب فأبانـت حزن الأشجار للرحيل.

رحت أستنشق عبير الكافور ، وبحر القناة القريـب يختفي وراء النخيل المكسور بالغبار ورائحة بـارود قـديم. كان يجازف بدخول المنطقة الخطرة.

أبقانا ساعتين ونحن نتساءل ما الذي سيفعله معنا؟

هل سيحاول أن يحدثنا في الأمـر ، وينفـي تهمـة التقصير؟

هل بمقدوره أن يواجه سيد جابر الذي تركه ينـزف وتقهقر عائداً؟

أيمكنه أن يودع محمد عـامر السـجن ، ويعرقـل إجراءات التسريح التي ينتظرها ليعود إلى أولاده فـي كـوم حماده حيث تركهم لدى أخوالهم. أو يعود إلى ايتاي البـارود حيث منزله المغلق الأبواب؟

أطلت التأمل لانزعاجي من فكرة العقاب الذي يمكنه أن ينزله بالشربتالي.

لم يسبق لي أن واجهت موقفاً كهذا. هل هناك أوراق أخرى يمكنه أن يبرزها في اللحظة الحاسمة؟

خرج فأدى جندي الحراسة التحية : " سلام سلاح ".

ضرب دبشك البندقية بقبضة الكف ، وأحدث جلبـة. أمرنا النقيب أن نخلع الكابات. راح يعبث بأصابعه في شعر الرؤوس ، ولم يكن طويلاً.

توقف أمام أحمد طـاهر. أمـره أن يحلـق شـعره (زيرو)، وأن ينفذ الأمر فوراً وفي التو ، ويعطيه تمام بعـد ساعتين.

ألقى في وجهه بالدفتر ، صاح فيه ألا يضيع وقته في هراء كهذا ، وأنه لم يجند كي يكتب مذكرات كلها تخـاريف كتاك التي اطلع عليها.

وأن هناك أسرار عسكرية ذكرها في أوراقه يعاقب عليها بالسجن. وأنه انتزع بنفسه الأوراق التي رأى فيها ما يمس أمن الكتيبة.

كان يكمل كلامه حين سمعنا ارتطام جسده بمربعات البلاط المتعرج.

كان الشربتالي قد سقط مغشياً عليه ، وتذكرت أول لحظة دخلنا فيها رئاسة الكتيبة. لكن السقوط هذه المرة من القهر وليس من التعب.

حملوه إلى الداخل ، وعندما تمكنوا من إفاقته ، راح يصرخ صراخاً مستمراً ، ويلعن المغول والهكسوس وسليم الأول ، وتوفيق باشا ، وفرديناندو ديلسيبس ، ويستنجد بالطواشي صبيح وتحتمس الثالث ، ومحمد عبيد وحسن طوبار.

رأيته يخرج مشطاً من جيب سترته ثم يمشط شعر رأسه ، ويغني.

تعجبت : هل يمكن أن يمسه الجنون فجأة؟

ذعرت. ومحمد عباس راح ينظر إلى النقيب من طرف خفي ، وكأنه يتوعده.

أتى (الصاغ) نواريـن وسأل عن سبب الجلبة ، لما رأى الجندي أحمد طاهر ممسكاً بالمشـط ، ومسـتمراً فـي الاستنجاد بقطز وصلاح الدين الأيوبي. استوعب الموقـف ، وأمر بتجهيز سيارة السرية الطبية والذهاب به إلى مستشفى القصاصين العسكري.

اعترض النقيب : أنت لا تعـرف ألاعيـب هـؤلاء العسكر ولا تدرك طرواتهم.

زأر نوارين : بل أعرف الكثير.

بلع ريقه : هؤلاء أولاد ناس.

تقدم من المقعد الذي كان يعتليه الشربتالي ، وقد كف عن الاستنجاد بالقادة والعظماء. راح يشتمهم لأنهم تـأخروا. الفيالق معطلة والمعركة تحتاج من يحمل الألوية. راح ينادي بأعلى صوته على " بديعة مصابني " ورعيـل الراقصـات اللواتي رآهم في السينما.

تقدم منه وفحص وجهه الممتقع وعروقـه النـافرة : اهدأ يا دفعة.

دون نظر إلى الرتبة راح أحمد طاهر يحدثـه عـن أزمة الأمشاط. وأنه لا يليق بنا أن نحلـق شـعر الـرؤوس (زيرو) والعدو يتقدم.

كانت جمله تخرج من فمه بلا رابط. عبارة من هنـا وأخرى من هناك. جاء جندي الحراسة ، وأخبره أن سـيارة السرية الطبية في الصيانة وأن الحملة الميكانيكية ليس بهـا سوى سيارات المهام القتالية. قطع ورقة وأعطـى أورنيـك عيادة لمحمد عباس.

نظر نحوي : هل أنت معه في سرية الهاون. هززت رأسي : نعم يا أفندم !

بلهجة آمرة : اذهبا معه. ومرا علي فـي العـودة ، وأخبراني بالنتيجة.

تحركت بنا السيارة تجاه الإسماعيلية ، ومنهـا إلـى القصاصين. وفي الطريق الزراعي الذي كان يغط في الظلمة أوقف السائق سيارته ، وتقدم من (غرزة) علـى هـامش الطريق الفرعي لأبي صوير.

كان الشريتالي قد كف عن صراخه الملتاث ، وجلس هادئاً يتأمل الشوارع بلونها الكحل ، والمارة القلائل. يحـرك كوب الشاي بين راحتيه ، ويهمهم.

أخبرنا الطبيب بحالته ، وظـروف إصـابته بـذلك الاضطراب النفسي المفاجئ.

هز رأسه فاهماً ، أشار لنا بالخروج ، أمره بالتمـدد على طاولة من المعدن المطلي بالأبيض. في الخارج جلسـنا على مقعد خشبي في الردهة. مضى وقـت لـيس بالطويـل سمعناه بعدها يستنجد بطه حسين ، وأحمد لطفـي السـيد ، والعقاد. سمعنا صرخة هائلة ثم صمت تام.

انفتح باب الحجرة بعد دقائق. صاح في وجوهنـا : أعطيته حقنة مهدئة. سينام الليلة. وهاكم أشرطة من حبـوب كل ثمان ساعات حبة واحدة.

في طريق العودة كنا سـاهمين ، والحـزن يلفنـا ، وخوار البقر في المزارع القريبة يأتي ثقيلاً. قرقعة العجلات يتبعها مباشرة صوت قطع الزلط تتـراكض علـى جـانبي العربة. أوقف السائق سيارته ، ثم هبط من الكابينـة ، وراح يطارد أسراب البط. أمسك بواحدة. قلت له : حرام.

سخر مني : أقسم لك أنك جندي مستجد. لو دخلـت الحرب ما تفوهت بهذه الكلمة.

بين حين وآخر ينظر نحوي يلومني : هـل الأرواح التي أزهقت في الحرب ليست حراماً. جسـد عبـد الخـالق الموجي الذي تطايرت أشلاؤه حلال؟

كنت أحاول أن أتنهد بعمق ، وأطلب الهـواء لـئلا أختنق !

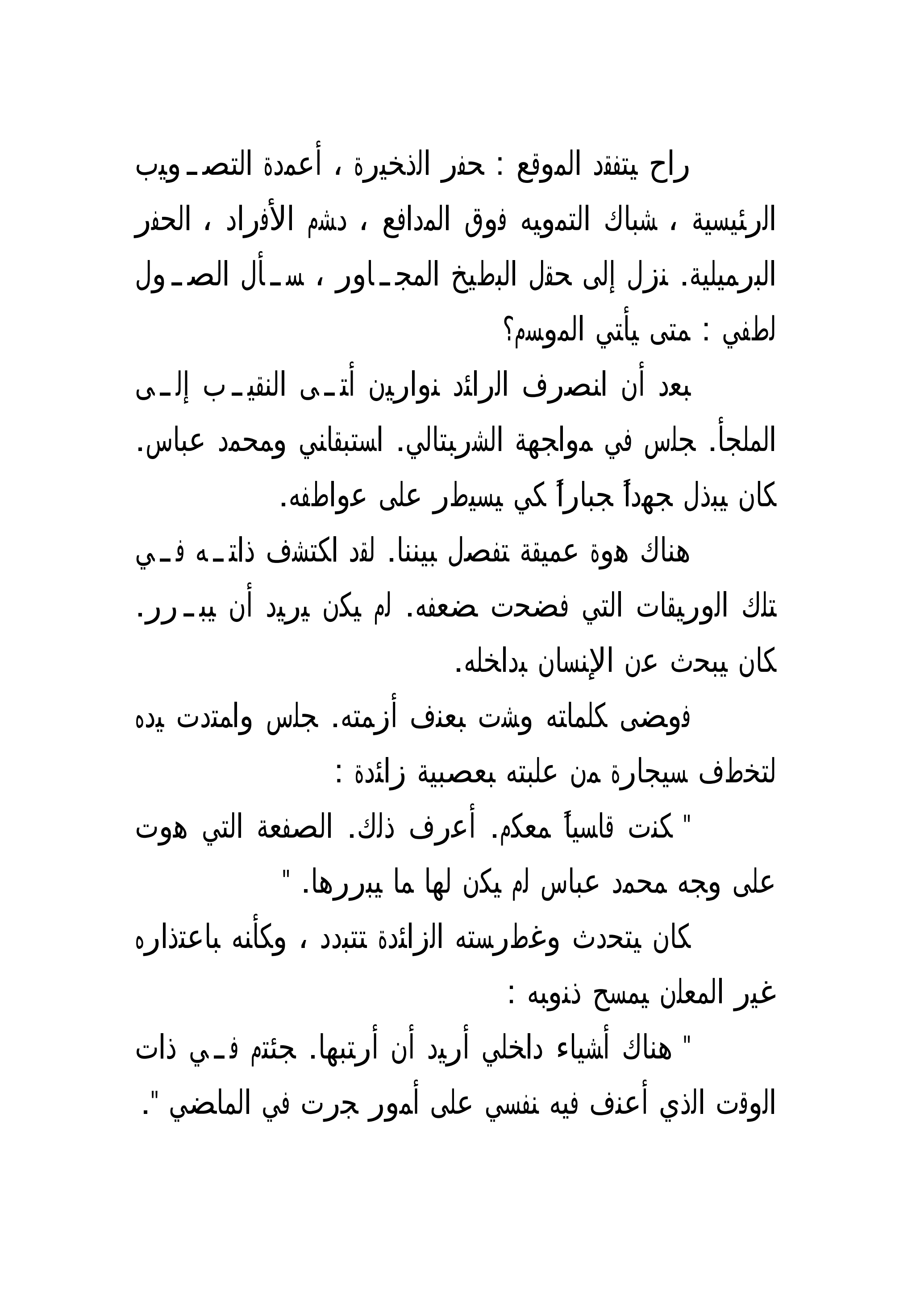
حين عدنا ومددناه على سريره فـي الملجـأ ، راح شخيره يعلو. لم يصرخ بعدها قط.

حين جاء الصباح. كان الرائد نوارين يزورنا بنفسه. أول مرة يأتي إلى موقع الفصيلة تاركاً غرفة عمليات الكتيبة.

صافح قدامى الجنود ، كان يعـرفهم واحـد واحـد. بالاسم والموطن. معهم حارب ، تقدم ، نـاور ، تراجـع ، انتصر ، اندحر. يداً بيد شاركهم.

اعتدل الشربتالي على سريره وأدى التحيـة عـاري الرأس : كيف الحال الآن؟

ربت على كتفه : لا يا بطل. ستذهب بعد أيام لفرقة العامرية. أريد أن أسمع عنكم أخبار مطمئنة.



راح يتفقد الموقع : حفر الذخيرة ، أعمدة التصـويب الرئيسية ، شباك التمويه فوق المدافع ، دشم الأفراد ، الحفر البرميلية. نزل إلى حقل البطيخ المجـاور ، سـأل الصـول لطفي : متى يأتي الموسم؟

بعد أن انصرف الرائد نوارين أتـى النقيـب إلـى الملجأ. جلس في مواجهة الشربتالي. استبقاني ومحمد عباس. كان يبذل جهداً جباراً كي يسيطر على عواطفه.

هناك هوة عميقة تفصل بيننا. لقد اكتشف ذاتـه فـي تلك الوريقات التي فضحت ضعفه. لم يكن يريد أن يبـرر. كان يبحث عن الإنسان بداخله.

فوضى كلماته وشت بعنف أزمته. جلس وامتدت يده لتخطف سيجارة من علبته بعصبية زائدة :

" كنت قاسياً معكم. أعرف ذلك. الصفعة التي هوت على وجه محمد عباس لم يكن لها ما يبررها. "

كان يتحدث وغطرسته الزائدة تتبدد ، وكأنه باعتذاره غير المعلن يمسح ذنوبه :

" هناك أشياء داخلي أريد أن أرتبها. جئتم فـي ذات الوقت الذي أعنف فيه نفسي على أمور جرت في الماضي ".

بلع ريقه بصعوبة. قدم لمحمد سيجارة : " أرجـو أن تصفحوا عني. يمكنكم أن تعتبروني أخاً لكم. الأخ كثيراً مـا يقسو على أخوته الصغار.

قال محمد عباس بتحد : لست أخاً لنا.

كانت كلماته تجرح مشاعره أكثر. تحمـل صـراحة دامية. رد بعفوية :

" أعرف. نريد أن نبدأ صفحة جديدة. "

لم يكن يمسك عصا الأبنوس هذه المرة. ما التحـول الذي طرأ عليه فجأة. هل عنفه الرائد نوارين ! لا أعتقد. لا شك أنها لحظات التطهير التـي تسـبق محاسـبة الـذات ، وستكشف الأيام عن صدقها.

قال أحمد طاهر وهو يصافحه : نحن جميعـاً هنـا لنؤدي الواجب. نحمي بيوتنا.

ارتجفت يـده : لأم أكـن بطـلاً. لكننـي سـاندت بطولاتهم. أتفهمون؟

هز محمد عباس رأسه بضـيق ، تحسـس مكـان الصفعة. بكى. اقترب منه النقيب :

إيه يا ولد. كن رجلاً. صاح فيه : أهنتني. احتضنه ، وعباس الذي بدا عنيفاً أول الأمر ألقى برأسه على صـدره. قال له ، وهو ينشف دموعه : أعطني سـيجارة كنـت أرى النقيب يخرج من شرنقة عزلته ، ويقترب من عساكره حثيثاً حثيثاً !

(١٠)

كان صدري مثقلاً بالألم وأنا أدوعه. أخبرني أنه لن يسرح قبل أسبوعين من الآن. لقد جـاءت الموافقـة علـى تسريح الدفعة في ١١/ ١/ ١٩٧٥.

قلت لخطاب وأنا أسترجع رواية حمـام : أريـد أن أزورك في الأقصر.

ضحك ضحكة صافية : هاك بادياتك يعرف منزلي. احضره معك. سأريك الرمسـيوم ومقـابر وادي الملـوك ، وسأهديك جعراناً مقدساً من حجر الجرانيت.

قبل أن أرحل طلبت منه أن يقص علـي المراحـل الأخيرة من الحرب. عند ذكرهـا يصـمت أفـراد الهـاون ويلوذون بأحاديث أخرى.

صاح في حمام: بعد أن تعود من فرقة العامرية. ما زال هنـاك متسـع مـن الوقـت. لـن أسـرح إلا فـي ١٩٧٥/١٢/٣١. عام كامل سأقضيه معـك. سـتذهب إلـى فرقتك وتعود ، وسأكون هنا في ملجـأي أو أمـام مواسـير الرشاشات. لن أهرب. هل أكتب لك تعهداً بذلك؟

تجهم وجه خطاب : ولماذا لا تكمل روايتـك الآن؟ الرجل يريد أن يسمعك..

"... دخلنا بعد تطهير النقطـة لاحـتلال الطريـق الأوسط الذي يمتد من داخـل عمـق سـيناء إلـى شـمال البحيرات، وحتى ليلة ١٦ أكتوبر كنا نتوغل. نصد الهجمات المضادة ونكسر رؤوس الكبـاري المعاديـة ، ونقبـع فـي انتظارهم ملتفين في ترقب حذر صامت ، وحين يقعون فـي نطاق أسلحتنا المؤثرة ينطلق الـ م. د والفهد ، وصـواريخ المولتكا التي تضرب من على الأرض حصدت مئات أفراد المشاة المحصنين داخل المجنزرات. والقنابـل اليدويـة ٣٦ ميلز المضلعة لعلك تعرفها. نعم. أحضر قنبلة يا رمضـان. احترس وأنت تأتي بها. أتعرفها؟

قذائف الأر. بي جي ٧ استطاعت أن تجهـز علـى القول الأول الذي دفع به العدو مساء ليلة ١٦ أكتـوبر. فـي تلك الأثناء كنا في صراع هائل مع مجنزراتهم. صدقني لقـد دمرنا لهم أربعين دبابة.

حتى أن جندياً من قوات " الكوماندوز " التي ألقيـت بالهليكوبتر لتلغيم العمق وقطع خطوط الإمداد فـي مـؤخرة

العدو جاء يلهث ، وأخبرنا أن خلف التبات حشود هائلة مـن الدبابات. وأن العدو سيدفع بقوته الضاربة بعد ساعات قلائل.

وفي الليل سمعنا هدير الجنازير الهائل. قادمة علـى محاور شتى من جهة الشرق.

اعترض فرض الاستطلاع دبابات المحور الرئيسـي بالرغم من كونها ترفع العلم المصري وتحمل علامات قواتنا المسلحة. قال قائدهم : نحن مصريون. كنا نقـوم بعمليـات خاصة داخل مواقع إسرائيلية ، وعائدون بعد نجاح المهمة.

لم يتركهم يعبرون قبل أن يخبر قائد العمليات. طلب منهم الانتظار لحظات حتى يتصل باللاسلكي حتى شـعروا بانكشاف خطتهم الخادعة باستخدام دبابات مصرية اسـتولوا عليها خلال حرب يونيو ١٩٦٧ ، أطلقوا نيران رشاشـاتهم على فرد الاستطلاع ، ودمروا حفرته ، وزحف بقية الأفراد الذين كانوا يتابعون الموقف إلى قيـادة الفرقـة وأخبـروهم بالخدعة.

انتشروا في المواجهة بدباباتهم ، وبدأ التعامل معهـم بكل ما نملك من مصادر نيران ، وكانوا يطلقون رشاشـات النصف بوصة بغزارة. قاومنا بمـدافع الجرانـوف. وكـان

الهاونزر يطلق قذائفه على الحد الفصـل بـين مـدرعاتهم وأجساد مشاة سرايانا.

ركز الهاون قصفه على الـدبابات المتحركـة فـي الخلف. وأظهر أفراده صموداً حقيقياً واصلوا فيه الضـرب لساعات دون توقف حتى كادت مواسير مدافعهم أن تنصهر.

اسأل الملازم أول فرج يخبرك بما كان من بطولات. استطاع مرسي أن يلحق بهم خسائر فادحة. لا أعرف اسـمه كاملاً. اسمه مرسي ولقبه لا يحضـرني الآن. لكنـه مـن كرموز. نعم. كانت له طريقة مفضلة في الإفطار مع مغرب رمضان.

يتناول طعامه ثم يقوم بالعدو مسافات طويلـة حتـى يهضم ما ابتلع ويكمل طعامه.

كان يحمل القنابل اليدوية ويعتلي أجنـاب الدبابـة ، وينزع مسمار الأمان ويلقيها من البرج داخل جسم الدبابـة. كان يقوم بتلك العملية مرة بعد مرة. حتى اقترب من الدبابـة الخامسة. حين أراد أن ينتزع مسمار الأمان لمحه قائد الدبابة فأطلق رصاص طبنجته. انفجرت القنبلة في يده. وأطـارت يده ، وغطى الدماء البرج ، وتقدمت لدهس الموقـع وهـي

تحمل جسد مرسي. مرسي كرموز الـذي علامـة مميـزة لجلسات إفطار رمضـان. راح والـدبابات تتكـاثر علينـا. وجاءت الأوامر بأن نحول رشاشاتنا للتعامل مع مشاة العـدو داخل المجنزرات التي تزايد عددها.

في هذه الليلة تجمع المصابين تحت كوبري صـغير داخل سيناء ، استعداداً لإخلائهم في أقرب فرصة.

وكانت هناك ترعة ماء جافة. كنـا نسـتخدمها فـي التحرك دون أن نخشى كشف مواقعنا. تقدمت عربات مجنزة وتداخلت مع طلائع المشاة. أمكننا بالموليتكا إصابة عربة نقل ذخيرة. ظلت مشتعلة لساعات طويلة في حمايـة الهاونـات الثقيلة وتقدموا. كانت قنابلهم تغطي مساحات هائلة.

أذكر هذا الاسم جيداً قبل أن أنساه. " نبيه حمـام ". كان قد خرج من السجن الحربي قبل العمليات بثمان وأربعين ساعة لغيابه أكثر من شهر أثناء الخدمة.

كنت أعرفه شخصياً. وكل أفراد الكتيبـة يعرفونـه. كاص صغير ومحتال. هو من المنوفية.

كان يقوم في الحرب بعمـل سـرية كاملـة العتـاد والرجال. لا أكذب عليك إن أخبرتك أنه كان ينقل الصناديق

بمفرده وسط هجوم الدبابات ، يحملها علـى كتفـه دون أن يزحف ، ويواجه الموت كل لحظة. دائماً تـراه يقفـز بـين دباباتهم ليصطاد جندياً أشقر الشعر أو ليقذف بقنبلة يدوية.

أسر جندياً إسرائيلياً ، وأعجبه زيه الضيق الأنيـق ، أمره بخلعه ، لم يفهم الإسرائيلي ، كان فزعاً ، فـراح يفـك ازرار السترة ، والبنطلون الذي كان مليئاً " بالسوست "..

وقف يتأمل ذاته بملابس الجندي الأسـير الذي لـم يفهمه. قال له نبيه وهو يسوقه أمامه. اخلع بيادتـك أيضـاً. جلسا يتعاركان. الإسرائيلي لا يرضخ لكـل طلبـات نبيـه ونزواته. والآخر يهدده بالسونكي. بعد مفاوضـات سـريعة خلع بيادته ومشي أمامه بالملابس الداخلية. كنا نعرفه جميعاً. لكنها لحظات الحرب.

حين اقترب نبيه من خندق مواصلات بالحد الدفاعي الأول حاصرته طلقات الرصـاص ، ظـل يصـرخ : أنـا مصري يا أولاد الكلاب.. يخرب بيوتكم.

والجندي الإسرائيلي ممتقع الوجه. لأن الرصاصات لا تمسه ، لكنه يخشى ان تصيبه.

كلما اقترب تشـتد الطلقـات. رآه الرائـد نـوارين وعرفه، أراد أن يعاكسه.

طلب منا أن نأسر هذا الإسرائيلي. اقترب منه نبيـه حمام : أنا نبيه؟

سأله الرائد باستخفاف : نبيه من..؟

ضرب صدره بيده : الحرامي؟

انفجرت الخنادق بالضحك وأسموه الإسرائيلي ، أمـا الأسير فانتهزها فرصة كي يهرب ، وعندما رأى الرصاص يحاصره عاد مرفوع اليدين.

لكن الموقف لم يعد يحتمل الهذر ، رمى نبيه الـزي الذي أعجبه ، قال له : رائحة عرقكم لا تعجبنـي. ثـم راح يلبس زيه الكاكي ، ويعاود حمل صناديق الذخيرة ، وإخـلاء الجرحى ، والتصويب على الدبابات التي صارت الآن فـي مواجهة خط الدفاع الثاني للكتيبة. أسموه أيضاً بـ " القط " لأنه بسبعة أرواح. كل الجنود داخل الخنادق. لكنـه وحـده يقفز بين التباب. نبيه حمام. له محل فول وطعمية في شـبين الكوم. لكنه الآن البطل غير المتوج للسرية. سـاق الأسـير

أمامه : ألبس هدمتك يا إسرائيلي. حظك في قدميك. مكتوب أن يكون الزي لك وحدك.

حين سلمه في المؤخرة وعاد كانت المعركة تـدور طاحنة. وقف يستغرب أن يعود الإسـرائيليون ثانيـة بعـد الخسائر الفادحة. " كل من يطأ أرضنا لا بد من ذبحه " يشير بيده نحو العنق إشارة سريعة. تشعر حين تره بقوة سـحرية تنشعب بحرارة داخلك. تمسك بعمق. ما الذي ذكرني بنبيـه حمام؟

أسند إليه النقيب شافعي مهمة توصيل الرسائل الهامة بين السرايا خوفاً من التقاط لاسلكي العدو الإشـارات وفـك شفرتها. وافق على الفور ، هز كتفيه : " بوسطجي يعنـي.. لا يهم ".. تصور أن هذا الجندي الفاقد حصل علـى نـوط الواجب ، وأعفوه بعد انتهاء العمليات من محاكمة كان لا بد أن يحصل بموجبها على مدد طويلة بالحبس. كان يهز يديه : " ولا يهمك يا دفعة.. حرب تفوت ولا حد يموت ". تسأله أن يخفي نفسه ، يهز رأسه وهو يثبت الخوذة : " السلطانية. هذه تذكرتي بعوف الأصيل.. وبدكان الفول والطعمية.. أوحشني

الزبائن ورذائلهم.. " ، يستدير نحوي وضحكاته تصـهل : " هل يأكل اليهود طعمية مثلنا يا أومباشي محمد.. ".

انطلق يحكي وخطاب ينصـت ، ووجهـه يتلـون بالزهور والغضب ، بالنشوة والانكسار وكأنه يعقب على كل الأحداث بملامح الوجه.

".. أخذت الدبابات تتزايد. طلب العقيد أحمد إسماعيل عطية من قيادة الفرقة دفع مجموعات اقتناص دبابات لغلـق الطريق أما الدبابات التي تحاول إيجاد ثغرة.

جاءت تعزيزات قليلة. كان من الواضـح أن الجهـد الرئيسي للعدو يركز على هذا الاتجاه. طيلة الليـل اسـتمر القتال الضاري. تقدمنا لقطع الطريـق فرصـدنا اسـتطلاع العدو، وأسقط المظلات تحمل طلقات كاشفة ، فأحالت الليـل إلى نور ، وفجأة هدرت الدبابات تلو الدبابات. بينما طلعـات النيران تقصف مواقعنا وتعاود القصف فـي موجـات إثـر موجات.

وكأن الجيش الإسرائيلي كله يهاجم اللواء ١٦ مشـاة بكتائبه الثلاث ١٦ ، ١٧ ، ١٨.

جرى القتال بالسناكي ، والطلقـات. بـل بالأيـدي وتماست مواسير الدبابات ، وكان نبيه حمام يصـارع كتـل الفولاذ ، وغيره كثيرون من رجال المشاة الذين لا يملكـون سوى أسلحتهم الشخصية. ليسوا داخل مجنـزرات تحمـيهم. يواجهون الموت ببسالة ويعرقلون تقـدم مفـارز العـدو ، ووحداته التي راحت تشدد هجومها.

تمكنت بعض الدبابات من الإفلات ، واستطاعت أن تخترق ستارة النيران. كنا نواجه قوة هائلة ، لكننا صـمدنا. بقيت الكتيبتان ١٦ و ١٧ داخل سيناء ، وجـاءت الأوامـر بانسحاب الكتيبة ١٨ إلى سرابيوم لمنع الدبابات الإسـرائيلية من التقدم نحو الإسماعيلية.

كنا نشاهد بعـض تلـك الـدبابات ذات المواسـير المزدوجة تتسلل في حدائق المانجو بالدفرسوار. وكانت فرق الصاعقة تحاصرهم ، وتطاردهم ليل نهار.

ظللنا نقاوم حشودهم حتى انكسرنا. لم نستسلم. ولـم يلق أحد سلاحه لقد قاتلنا حتى نفذت ذخيرتنا. وحين صـار الانسحاب أمراً لا بديل له ، كنا نطلق نيران أسلحتنا ونحـن

نتعاهد على العودة. رغم الموت لم تكن في أفواهنا مـرارة الهزيمة.. "

صار صوته ممروراً ، ورحنا نتطلع إلـى أسـماك طائرة تتقافز فوق المياه الزرقاء ، تفـتح زعانفهـا وتعـاود تالقفز فوق السطح الرائق. نتوق سوياً الاستنشـاق نسـمات طازجة. بينما الشمندورات أُعيد طلاؤها وسيارات الـ " U. N " بلونها الأبيض وسواعد سـائقيها الموشـومة تمـرق. والكراكة تحمل كتل الصخر وتطهر القناة من بقايـا المعبـر الحجري المواجهة للطريق الأسفلتي.

كنت أعرف بقية ما حدث ، لكن صوته تسـال فـي رفق:

".... تجمعنا في مدرسة ابتدائية مهدمـة الجـدار ، جاءت عربات حملتنا إلى معسكر عزت شرف بالتل الكبير. أعدنا تنظيم صفوفنا ، وسد الخسائر التي كانت مرتفعة ، بعد تعويض العجز في الرجال والعتاد عبرنا القناة ثانية ، وكانت هذه رغبتنا فحين حدث التقهقر كنا نبكي في صمت.

كانت لدينا قناعة أننا سنظل نحارب دون أن نستسلم مهما كانت النهاية.

لقد رأينا الموت ولم نعد نخشاه. حين عدنا واجهتنـا طلعات الفانتوم ، كانت تلقي بالقنابل العنقودية. وكانت بعض سرايا الكتيبة من المدربين على أعمال الصـاعقة قـد بقـوا محاصرين الثغرة في غرب القناة. كانت تصل أخبار أعمالهم الانتحارية الهائلة.

تزايد قلقنا والميراج تقصف مواقعنـا الجديـدة فـي سيناء. طائرات الهليكوبتر تأتي في الليل ، وتلقي بمنشورات معادية بأن الغرب كله محاصر ، وأن دباباتهم في أبي عطوة على مشارف الإسماعيلية ، وأن المسألة مسألة وقت.

دربونا في الأيام القليلة التي عشنا فيها نلملم أرواحنا المرهقة على العمليات الانتحارية ، وحصـلنا علـى فـرق مركزة للتعامل مع قوات العدو في الأحراش وداخل المدن.

كنا لا نحتاج إلى خـرائط. فـنحن نحفـظ مسـالك الدفرسوار جيداً.

في الليل تأتي بعض الوحدات من المنطقة المركزية لاحتلال تباب سيناء ، وتنسحب بعض فصائل المشاة خـلال دقائق على متن القوارب المطاطية ، وتقوم بعمليات غاية في الصعوبة. حتى أن اليهود كانوا يديرون محركات الدبابات ،

ويفرون إلى الأشجار القريبة. ولقد رأيت السيد هارون. ليلة ٢٣ أكتوبر يرفع يده ليحذرنا من أن طائرات مغيرة قادمة في نفس اللحظة التي نزلت فوق طلقة هاون الثقيلة مسحته مـ ن على الأرض تماماً.

الموت وعر. ولا يترك خلفه سوى بكـاء مريـ ر ، ولون رمادي ، ونحن نلهث ونقف أمامه خاشعين. مات السيد هارون ولحق بغيره. فمن يتذكره الآن؟

لقد مضينا نحارب حتى يوم ٢٤ أكتوبر وبعد سريان وقف إطلاق النار ، استمرت محاولاتهم للفتك بنا وكنا نـ رد الصاع صاعين. ولا أنسى حين جاءوا بحاخامـاتهم وفـ وق أدمغتهم قبعات سوداء ، في حماية الصليب الأحمر وقـ وات الطوارئ الدولية ، في كل موقع بالدفرسوار نبشـ وا الأرض وأخرجوا موتاهم.

فجأة رأينا محمد حمام يقفز ويشير لهم هنا وهنـ اك. وهم ينبشون ، ويستخرجون الجثث ، ويضعونها في أكيـ اس بلاستيك سوداء. وينظرون نحو نبيه في غل وحسرة. صـ اح أحدهم فقي وجهه بعربية مكسرة : أبعدو هذا " الدوج ".

أنشب أظفاره في عنقه وكادت تحدث أزمة سياسية ، والمدافع لم تغطي أفواهها بعد. لحق به النقيب شافعي وجذبه من ملابسه : مالك وقتلاهم. هل أنت الكلب " هول "؟

كلما اخرجوا جثة راحوا يفتحون التوراة ويرتلـون بأصوات كالفحيح بعض العبـارات ونحـن نشـاهد النظـر ونتعجب. وعاب سجائرهم " تايم " ملقاة في إهمـال داخـل الحفر ، وخاف الأسلاك الشائكة. قال نبيه وهو يخرج لهـم لسانه : " ودين الإسلام أعرف أماكن قتلـى كثيـرون مـن اليهود.. ولن أرشدكم إليه "

قبعات سوداء ، وغربـان تطـوف فـي المكـان ، وأشجار متفحمة ، ونبيه حمام يمارس الفوضى ، ولا يخـاف الحبس الذي جربه كثيراً. "

كانت أسماء جديدة تضاف إلى قائمة الذين سـأكتب عنهم : السيد هارون ، نبيه حمام ، عبد الخـالق المـوجي ، يسري ابن كرموز ، وحسين عبد المولى.

هل يتسع العمر لأن أقابل أسرهم ، وأسأل عن ذلـك النداء الغامض الذي جذبهم إلى دائة النسيان ، فـي خبطـة عشوائية دون اختيار.

للحظة أسلمت نفسي للشرود ، كنـت أعتبـر تلـك الروايات عن أشخاص أسلموا وجههم للوطن تقودني رغمـاً عني إلى مواجهة مع ذاتي القلقة. لن أغلق ملـف الحـرب والأسماء تترى والتفصيلات المروعة مترعة بحقائق غيـر قابلة للتصديق.

تماماً وكما يحدث حين تحين ساعات الوداع ، كـان علي أن أصافحهم وأقبل جبينهم : محمد خطاب ، رمضـان أبو حويلة ، وعزيز سيدهم الذي أتى من غراب الماء بعد أن ملأ الجراكن في نوبته.

سألني محمد حمام وزقزقـة العصـافير الخضـراء مبرقشة بالأرض تطير فوقي : إذا نزلت إجازة فاسأل عنـي في مقهى شاهين. قد نلتقي.

نهضت عند الفجر كان الشربتالي قد ارتدى ملابسـه كاملاً ، وأدخل طرفي البنطون في رقبة البيادة ، وانتهى من تجهيز الجربندية. هززت رزقاً كي يفيق. أتى مغاوري وقـد لفه ضباب خفيف. ثمة نسمات رقيقة تلفح وجوهنا.

البيوت الوطيئة المطلية بالجير الأبـيض المحاصـر بحقول المانجو فتحت نوافذها مبكراً لتبيـع الجـاز وعلـب

السجائر وباكوات الشاي للعسكر. لا أذكر أنني رأيت وجهـاً جميلاً مثل وجه تلك الفتاة البدوية التي كانت تقف أمام عـين الماء في هذا الوقت الذي حط الندى فيـه علـى الأسـطح الباردة.

في طريقنا إلى المدق عبرناها. التفتت تخفي بطرف الشال الأبيض فمها : صباح الخير يا رزق.

تلألأ ماء القناة ، عينان واسعتان ، وفم دقيق. تعجبت من هذا الفتى الفظ كيف يفتن هؤلاء الفتيات وهو يخلو مـن الوسامة. حدجته بنظرة مستنكرة. سألته في براءة : أمسافر؟

تمتم في إحراج : إن شاء ا .

دست في يده قطعة نقود ورقية ، لمحتها بسـرعة ، أطبق يده عليها : زجاجة عطر. لن نغادر المكان قبل عام.

تقدمنا في سيرنا ووق معها قليلاً ثم لحق بنا. كـان يرتجف والمغاوري صرخ فيه : لا تستغفلنا. كيـف تقبلهـا أمامنا.

راح رزق يقسم بأغلظ الأيمان أنه كان يحدثها همساً، وأنه لم يفكر في تقبيلها ، لأنها صفعته أول مرة تعارفا فيها ،

قال المغاوري: إلعب غيرها. إن قدميك ترجفـان يـا ابـن الفاسق.

قال الشربتالي : أنت تعلب لعبة خطرة. أقلـع عـن إغواء الفتيات. لو أخطأت معها لقتلوك؟

الأرض تفوح برائحة طازجـة ، والحصـى تحـت الأقدام له ملمس خشن. البخار يتصاعد في الضوء. والأغنام تثغو في راحة وسلام. قال وقد صارت الفتاة عند البئر نقطة بيضاء ملفوعة بطوق أحمر : إنها تحبني. أجريمـة هـذه؟ رحت أجيل النظر حولي. والشربتالي يهدأ المغاوري : دعه يجرب. هو الذي سيدفع الثمن في النهاية.

سخر من أقوالنا : ما الثمن الذي سأدفعه يا غجر؟

هز كتفيه بلا مبالاة : عفاف مخطوبة وهي طفلة من ابن عمها ، وهي لا تريده ! مهرها يا أولاد أسـاور ذهبيـة ثقيلة ، وقطعان جمال ، وخيمة من الوبر. حين أرجع سيكون لي معها شأن آخر.

قلت أهدده : سيدق أبوها عنقك. ولو علم أنك لمست يدها فلن يغسل عاره إلا بالدم.

ضحك رزق باستخفاف : يا شيخ. هذا الكلام كـان زمان لا تهتموا بالموضوع.

سأله مغاوري : هل تحبها حقاً يا رزق؟

فكر في السؤال ومط شـفتيه : لا أعـرف. لكنهـا جذبتني بجمالها. كل ما بيننا كلام. إنها مبهورة بحديثي. ولا؟ أعرف كيف ينتهي الأمر.

قال أحمد طاهر : لا مغـامرة فـي هـذه الأمـور الحساسة. أترك البنت.

قلت أحبذ الفكرة : هل تتركها يا رزق؟

سرنا لفترة دون حديث ، وظل السؤال معلقاً. انتهينا إلى الطريق الأسفلتي. علقنا أجسادا فـي عربـة (الـزل) المتجهة إلى الإسماعيلية. تراخت قبضاتنا ونحن نهـبط فـي مفارق الطريق.

طلب منا رجال الشرطة العسكرية إبراز تصـاريح حضور الفرقة. كان لكل منا تصريحه الخـاص. اسـتبقونا قليلاً. طلب قائد النقطة حمل فلنكات خشبية من أمام القشلاق إلى منطقة تبني حديثاً كمركز للتفتيش. حاول أحمـد طـاهر الاعتراض ، سحبوا تصريحه. وكنت أعرف أنه من الصعب

الإفلات من ذلك الشرك الذي وقعنا فيه بأرجلنا. رحنا ننقـل الفلنكات مع عساكر من كافة الكتائب أوقعها حظها العاثر في قبضة من لا يرحم.

بعد أن انتهينا ارتمينا على الأرض نلهث. قـال لنـا أومباشي يحمل وجهه أثر جدري قديم : حتـى لا تتـأخروا عليكم مسح هذه الفوانيس من السناج بعدها ترحلون.

كنت كقنبلة موقوتة ، صرخت فيه : وا لن نفعـل شيئاً بعد نقل الفلنكات أنحن عبيد !

جاء الصول وطلب مني أن أخفض صوتي. جـاءت سيارة جيب ، اقتربت من نقطة التفتيش. صاح رزق : " يـا حضرة الصاغ نوارين. "

أوقف سـيارته ، وترجـل. أدى جنـود الشـرطة العسكرية التحية. سألهم : لماذا تحتجزون هؤلاء العساكر؟

أربدت وجوههم. اندفعنا نحمل الجربنديات. قال أحمد طاهر : احتجزوا التصارح. مد الأومباشي يده بهـا ، وهـو يعتر. أشار لنا أن نركب في العربة. اندفعنا وقد عاد الحماس لقلوبنا. أخرج مغاوري لسانه لهم. وانطلقت الجيب.

كانت وجهتنا القاهرة ومنها نستقل القطـار الحربـي إلى الإسكندرية. أنزلنا الرائد عند المحطة وتمنى لنا السلامة. قلت لهم : عنده أصل.

قال رزق وهو يهز رأسه : كان وحشاً وقت القتال.

ركبنا القطار إلى القاهرة. حين وصلنا وسألنا عـن قطار الإسكندرية على رصيف آخر طلب منا رزق أن نبيت عنده في ساقية مكي. اعترضنا جميعاً. فانفجر في البكاء لأنه يريد أن يرى أمه المريشة ، وهي فرصة ليحضر فرح ابـن عمه الذي يصادف الليلة.

عند الظهيرة كنا في حجرة رزق نخلع زي الجيش ، ويرتدي كل منا جلباباً واسعاً من الأكمام مطرز الياقة.

ذبحت أمه بطة سودانية ، وطهت باميـة خضـراء. قلت لرزق : معرفتك تنفع.

أما المغاوري فعلق على الموضوع بأن هذا أحسـن عمل قام به منذ الميلاد وحتى الوفاة إن شاء ا .

أحمد طاهر الشربتالي كان يأكل بالشوكة والسكينة ، ويمارس " الأتيكيت " على أصوله.

بعد راحة قصيرة خرجنا إلى السوق نتفرج. عربات الفاكهة تغص بأشكال وألوان قبل الفرقة حصلت على مرتبي الشهري ثلاث جنيهات وثمانين قرشاً.

لم يشتر أحدنا شيئاً. أسقانا الشربتالي عصير قصـب في أكواب لها قعر من الزجاج يوفر للبـائع نصـف ثمـن المشروب.

قلت لرزق : هذا حي كله نصب. وما شابه حيه فما ظلم.

فتح فاه : ماذا تقول؟

في السرداق الواسع أمام فسحة الدار كانت الكراسي مرصوصة ، وفي الصدر طقطوقة مذهبة من خلفها " كوشة " مزينة بالعطر شان والورد الجوري.

جاءت أمه لتسلم علينا ونحن نتأهب لحضور العرس. كانت في ثيابها السوداء الواسعة امـرأة مصـرية تعـرف الأصول ، تريدنا أن نبقى أياماً في ضـيافتها ، وتصـينا أن نفوق لابنها الذي غلبها مثل أبيه. كانت التجاعيد تملأ وجهها.

غمزت لمغاوري مذكراً إياه بالصورة : سـلام علـى الحاجة يا مغاوري.

احمر وجهه خجلاً وسلم عليها من جديد. أمـا رزق فقد لكزني بكوعه.

في المساء لم يحضر الشيخ الطبلاوي كمـا أشـاع رزق وحاول أن يجعلنا نبيت لنستمع إلـى صـوته فتشـت عقولنا.

تحت ضوء " الكلوبات " سارت العروس ، وصـوت الأعيرة النارية تدوي كل لحظة.

قلت أعاتبه : فرح هذا أم موقعة حربية؟

كان ابن عمه يخرج من بيته يستقبل عروسه ، فـي كامل زينته ، يلبس جلباباً أبيض اللون ، وسـنته الأماميـة مكسوة بغطاء ذهبي ، وشاربه الأصفر مقصوص بعنايـة ، وعلى كتفه " لاسة " بلون دم الغزال. رائحة عطر نفاذ تحيط به.

احتضن رزق الذي أخرج من عبه خمس جنيهات : " رزق.. رزق.. الأومباشي رزق.. كتيبة ١٨. سرية الهاون.. الأبوكاتو أحمـد طـاهر.. والأسـتاذ المـدرس.. والمعلـم مغاوري.. وأنا وأنت.. رقصني يا جدع.. ".

لم أكن أعرف مهارته فـي الـرقص. راح يحجـل ويدور دورات صاخبة ، وهو يهز جسده هزاً عنيفاً والأعيرة لا تكف.. لا تكف مطلقاً !

في محطة مصر بالإسكندرية رحنا نسير تحت ظلال الأشجار المزهوة بالضوء. سألنا عن أتوبيسـات العامريـة. أشاروا لنا نحو الكورنيش في الجهة المقابلة للبحر. اجتزنـا محطة الرمل واجهات الكازينوهات اللطيفة تستنشـق اليـود الطازج ، والنسائم المعبقة بالشجن.

كان يسير خلفنا ، وكأنه رزق الذي لم يرقص أمس. أحمد طاهر وقف أمام النصب التذكاري متأملاً. كنا مبهورين بالمدينة المغسولة بالضوء والسحر.

متعبين بحكايات البطولة والقهـر. صـفعات علـى الوجه، وأجساد اخترقها الرصاص وأخرى مدلاة في الحفر. ماذا تعني الأعيرة النارية لساقية مكي؟ لماذا هـذا الضـجيج والأمر يتعلق بفرح شخصي؟

كنت أريد أن أرى غيط العنب. سألتهم بلطف : السيد جابر أرسل معي خطاباً. تجهوا جميعاً. صاح رزق : لـيس وقته. أذهب بمفردك حين تحصل على إجازة.

اعتقدت أن هذه الجولات القسرية من المعادي إلى الدفرسوار مروراً بساقية مكي وحتى مشارف العامرية ستجعلني أكثر فهماً لغوامض البشر ، وأسرار دواخلهم.

كم من الصدقات العابرة مرت بي ، لم يكن لها مثل هذا العمق. هؤلاء أناس عاشرتهم. عشت معهم. أدركت نواقصهم. بطولاتهم الصغيرة. كذبهم. لحظات زنقتهم. صدقهم. طهرهم ودنسهم. صارت الكلمات تأتي بصعوبة. حين كنت أصغي بالأمس إلى محمد حمام ابن المساعد مصطفى بمطافئ السويس يحكي الانكسار كان قلبي يفيض بالأسى. كنت اشعر بطقطقة عظامي. بنحيب روحي التي عصتني دوماً. روحي التي أحبت بعنف ، ولم تكره إلا الخلاء الذي لا طعم له ولا لون.

أفكر أن أبطالاً لا يعرف أحد أسماءهم ترقد أجسادهم في الحفر البرميلية بسيناء. وددت أن تعود أيام المبارزة القديمة. أن يقف رجل في مواجهة رجل. بلا أقنعة. دون دبابات عملاقة ، لتتصارع السيوف علانية ، فيظهر في التو معدن الرجال.

من الذي يجيد مهارة الطعن دون أن يخفي ضعفه في هيكل عملاق لطائرة أسرع من الصوت ، أو داخل حصـن حصين لدبابة من الفولاذ.

كنت أضحك من ذاتي المليئـة بـذرات التشـاؤم ، وبعواطف لا نهائية يثير فوضاها نور جامح يحالو أن يبـدد الظلمة.

أتى الأتوبيس ، وككل مرة ، كنا لا نملـك طـرف الجلوس حيث المقاعد الإسفنجية. لم نطلب من أحد أن نجلس مكانه. ولم يفكر أحد أن يمنحنا مقعداً واحد لنسـتريح. كـان اللون الكاكي يعني بكل الوضوح والصراحة أن تحتمل فوق الطاقة دون أن تسخطك أو تئن. ولا أدري لمـاذا كنـا فـي الغالب راضين عن ذلك.

حتى ونحن نرى أجسادنا تتأرجح على السلم المعدي الأخرس. كنا في غاية الرضى وكان علينا أن نحتمل حتـى النهاية دون أن نئن.. حتى النهاية بكل الرضى !

(١١)

أيام العامرية أجمل ايام الجندية. كم هـو ممتـع أن تعيش داخل خيمة تقع على ربوة عالية ، وتطل على أعشاب متدرجة الخضرة حيث الخلاء الفسيح.

لن تسمع أصواتاً غاضبة قاسية. هنا السـكون هـو السائد. وعفار السيارات يكاد ينعدم.

طوابير الاصطفاف في الصباح ، ثـم تحيـة العلـم والتفتيش على النظافة الشخصـية والعامـة ، يعقـب ذلـك تدريبات ميدانية. وبعد الظهر توزع الخدمات.

النوبتجي هو الذي يبقى أما الآخرون فيحصلون على تصاريح بإجازات حتى الساعة الثانية عشر مساءاً. تمتد فترة التصريح المسموح لك بالغياب خلالها لساعات طويلة. مـاذا يمكنك أن تفعل بهذا الوقت ، وأنت لا تملك إلا القليـل مـن النقود؟

ومیض الجبهة ، والتوتر الخفي الذي يعتري الجنود حين يشاهدون بقايـا المجنـزرات ، والخـوذ المثقوبـة ،

والسترات المهترئة مضى. صرت في مواجهة نباتات التـين الشوكي وأشجار الكافور.

وحين تجتاز الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمعسـكر فيمكنك بسهولة أن تسير على قدميك ربع الساعة لتصبح في قلب المدينة ذاتها ، حيث مطاعم الفول والطعمية ، والمقاهي التي تكتظ بالعسكر ، وهناك يمكنك أن تشتري كيزان الـذرة المشوية ، وتتابع البائع وهو يمسك " الماشة " ويقلـب قطـع الفحم المتوهجة.

يمكنك أيضاً أن تشاهد البنات البدويات يسرن بقامـة مشدودة ، ونظرات وديعة. تسـألهن : أيـن الطريـق إلـى الإسكندرية؟

يشرن بأصابعهن الدقيقة الموشاة بالخواتم : هناك؟!

كلماتهن مسرعة ، ولها رنة جميلة ، وعيونهن شديدة السواد ، تفتك بالقلوب الرقيقة.

مارس رزق هوايته. إذ كنا نهبط المنحدر: الشربتالي والمغاوري ، وأنا.

عندما رأيناه يهش الغنم خلف فتاة بدوية ترتدي ثياب البدو المزركشة ، والمحلاة بخيوط ملونة بهيجة. على ذقنهـا وشم دقيق.

كانت تنظر نحوه ، وتنهره كي يرجع ، وهو يواصل حديثه دون كلل.

قلت لهما مغتاظاً : إن الولد رزق يملك قوة سـحرية لا تقهر. ما من مكان تطأه قدماه إلا ويكون له فيه فتاة !

رد أحمد طاهر : إنه يفرض نفسه قسراً.

حين رآنا تهلل وجهه ، واستمر في دائـرة العفـار والثغاء. والفتاة تتدلل وتضربه على ظهر يده ضربات خفيفة فيها من الود أكثر مما فيها من الغضب.

وعلى حين بغتة برز من المنحدر رجل فارع القوام، ضخم الجثة. كان يرتدي عقالاً أحمر ، ويمسك بيـده عصـا معلقة تلمع.

استوقف القطيع. رأيناه يكلم الفتاة بعصـبية ، وهـي ترد عليه بتجهم.

بدت في الجو نذر مواجهة ، قال المغـاوري : لـن يفلت رزق هذه المرة.

اقترب منه الرجل ، ولوح بالعصا في وجهـه. أمـا رزق فقد بدا ثابتاً ، لم تكن الأصوات تصلنا ، لكننا نسـتطيع أن نخمن. قال أحمد طاهر : لو اعتـدى عليـه بالضـرب سنتركه حتى يتأدب. قلت أوافقه : هذا طبيعي.

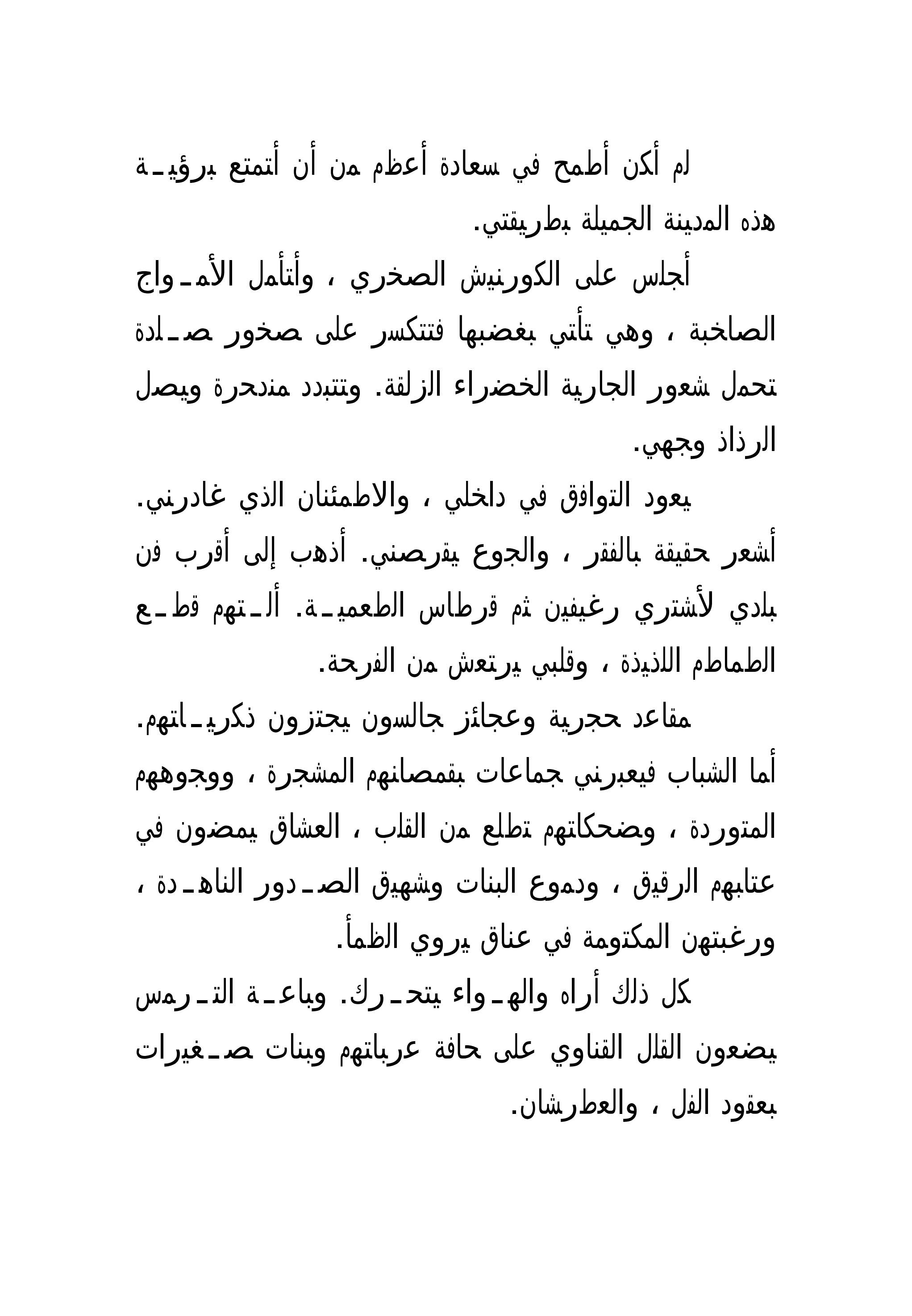
اعتقدنا أن الرجل سيدشدش عظامه جزاء من اقترفه من مجون. لكن الدهشة استبدت بنا ، حين أخرج رزق شيئاً من حافظة نقوده ، خذها الرجل في راحته ، وراح يفحصها في عناية. ثم وجدناه يأخذ بـذارع رزق ويسـيران خلـف القطيع، والبنت تنظر خلفها وتضحك في سرها.

ما الذي قدمه رزق للرجل. قال مغاوري : لن أبرح مكاني حتى أعرف لماذا يكسر رأسه؟ هذا الولد الأفعى كيف يفلت؟

قال أحمد طاهر : لقد التهمنا في ساقية مكـي بطـة بأكملها. اعتبارها ترضية.

قلت : سنعلم الحقيقة حينما نعود في المساء !

يجلس أحمد طاهر والمغوري على مقهى بـأطراف العامرية ، وأبحث عن سيارة تقذف بي في محطة الرمل.



لم أكن أطمح في سعادة أعظم من أن أتمتع برؤيـة هذه المدينة الجميلة بطريقتي.

أجلس على الكورنيش الصخري ، وأتأمل الأمـواج الصاخبة ، وهي تأتي بغضبها فتتكسر على صخور صـلدة تحمل شعور الجارية الخضراء الزلقة. وتتبدد مندحرة ويصل الرذاذ وجهي.

يعود التوافق في داخلي ، والاطمئنان الذي غادرني. أشعر حقيقة بالفقر ، والجوع يقرصني. أذهب إلى أقرب فن بلدي لأشتري رغيفين ثم قرطاس الطعميـة. ألـتهم قطـع الطماطم اللذيذة ، وقلبي يرتعش من الفرحة.

مقاعد حجرية وعجائز جالسون يجترون ذكريـاتهم. أما الشباب فيعبرني جماعات بقمصانهم المشجرة ، ووجوههم المتوردة ، وضحكاتهم تطلع من القلب ، العشاق يمضون في عتابهم الرقيق ، ودموع البنات وشهيق الصـدور الناهـدة ، ورغبتهن المكتومة في عناق يروي الظمأ.

كل ذلك أراه والهـواء يتحـرك. وباعـة التـرمس يضعون القلل القناوي على حافة عرباتهم وبنات صـغيرات بعقود الفل ، والعطرشان.

فكرت لنفسي : " أية سعادة هنا ، وأية أفراح تطوق ذاتي ".

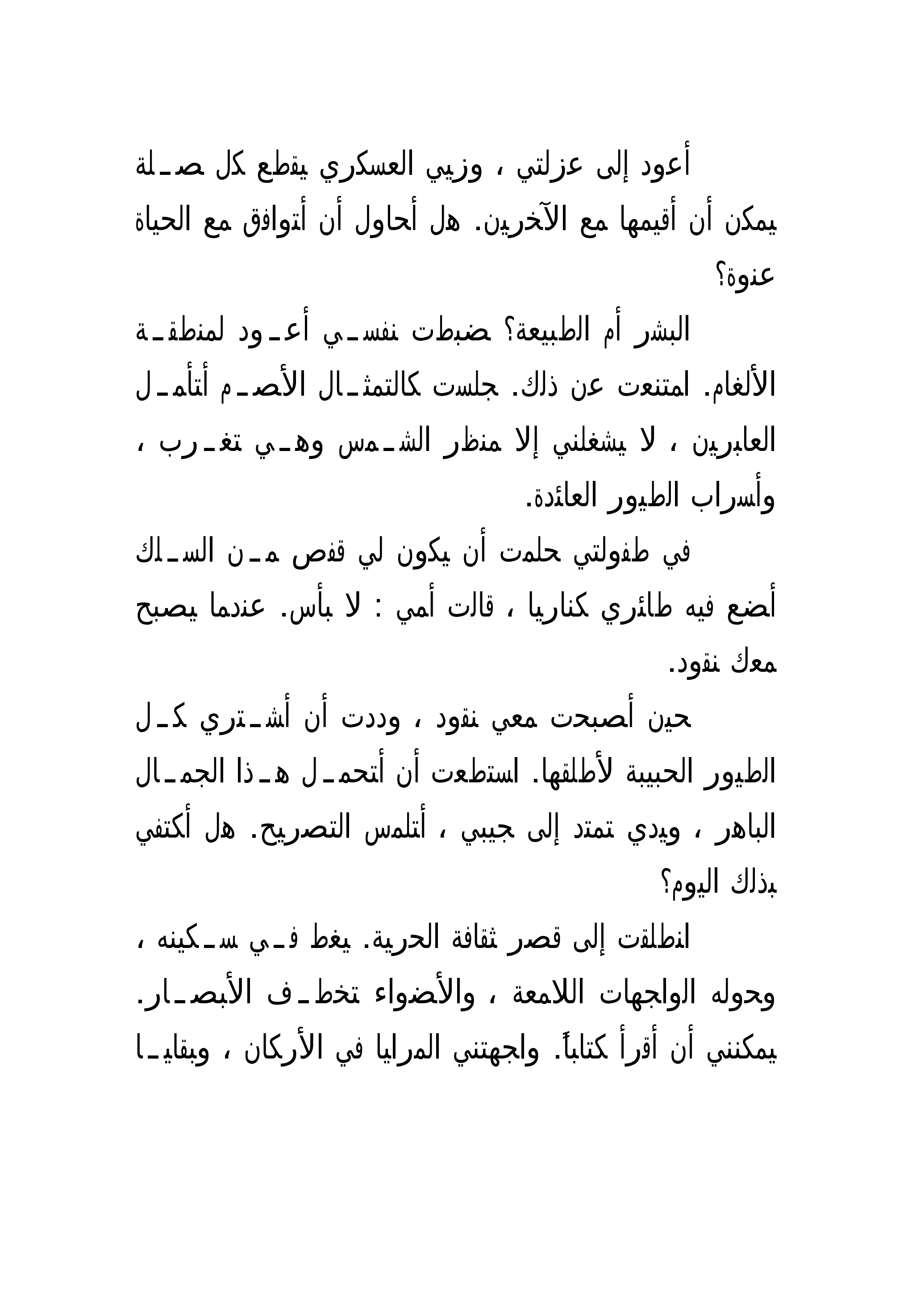
الأشياء ذاتها منذ سنوات عديدة. وأنـا هنـاك فـي الدفرسوار أضع الطوق حول عنقي وأضيقه.. أضيقه حتـى أكاد أختنق !

هل لهذا القلب المطرب أن يهدأ؟

لم يكن اختياراً أن أبحث عن معنى أفزعنـي. قلـت لنفسي : هذا أدعى للحيطة. حين تعود ستواصل ما بدأت.

أطفال بملابس زاهية ، يرفلون في سعادة ، يحملون لعبهم الصغيرة ، بعضهم يتعثر حين تصطدم قدمه الصغيرة ببروز بلاط الطوار. أقفز من مكاني وأحمل الصغير ، أنفض الأتربة. تومئ الأمهات برؤوسهن عرفاناً. ويشكرني الآبـاء والأبهات بكلمات رقيقة مهذبة.

لماذا يكون الجيش خشناً وفظاً ، وبلا كلمات رقيقـة. الشمس ذاتها تشعرك بالظلم ، وبأنها تنفذ فيك عقوبة لا مفر منها. ما السبب يا ترى؟



أعود إلى عزلتي ، وزيي العسكري يقطع كل صـلة يمكن أن أقيمها مع الآخرين. هل أحاول أن أتوافق مع الحياة عنوة؟

البشر أم الطبيعة؟ ضبطت نفسـي أعـود لمنطقـة الألغام. امتنعت عن ذلك. جلست كالتمثـال الأصـم أتأمـل العابرين ، لا يشغلني إلا منظر الشـمس وهـي تغـرب ، وأسراب الطيور العائدة.

في طفولتي حلمت أن يكون لي قفص مـن السـلك أضع فيه طائري كناريا ، قالت أمي : لا بأس. عندما يصبح معك نقود.

حين أصبحت معي نقود ، وددت أن أشـتري كـل الطيور الحبيبة لأطلقها. استطعت أن أتحمـل هـذا الجمـال الباهر ، ويدي تمتد إلى جيبي ، أتلمس التصريح. هل أكتفي بذلك اليوم؟

انطلقت إلى قصر ثقافة الحرية. يغط فـي سـكينه ، وحوله الواجهات اللامعة ، والأضواء تخطـف الأبصـار. يمكنني أن أقرأ كتاباً. واجهتني المرايا في الأركان ، وبقايـا

أثاث عتيق. رائحة القدم ، طنافس تدل على عصـر غـابر انقضى ولن يعد.

تذكرت بيت جدتي لأمي ، وصـندوقها الأبنـوس ، ودولا بها من خشب الصندل ، ورائحة الماضي الذي أخافـه وأعشقه.

لم يسبق أن سيطر علي اهتمام خالص كهـذا الـذي يعتريني كي أقرأ. تقدمت من المكتبة. بعد السـلم الرخـامي الدائري بحجرتين.

دخلت وبحثت عن " الغريب " لألبير كامي. قرأت :

" ثم تقلبت في فراشي ، وبحثت في الوسـادة عـن عبير الماء الملح الذي خلفه شعر ماري فيها... " تصـورته يرتدي قميصه الأزرق ، ولحيته نامية يسير في حي " سـان جر مان دي بريه " وهو يتأبط ذراع " ميرسو ".

قلت لنفسي أريد أن أذهب إلى المتحف الرومـاني. هبطت السلم. وظللت أتجول نصف الساعة. وأنا أسأل عنه. أخيراً أمكنني الاهتداء إليه.

كان مغلق الأبواب. ترثيت قليلاً قبل أن أعود إلـى المحطة حيث أتوبيس العامرية المزدحم.

في اليوم التالي وجدته على مكتبه ، سلمت عليـه ، قدم لي مقعد فجلست إلى جواره. رحت أحدثه عن ضـرورة أن يكتب الأديب عما رآه وعرفه. كان ينظر إلى صامتاً. لم يتفوه بكلمة ، لكنه ينظر إلى الحائط المواجه باهتمام كانـت قشرة الجير توشك أن تسقط ، وهو يرقبهـا بفـزع دون أن ينبس.

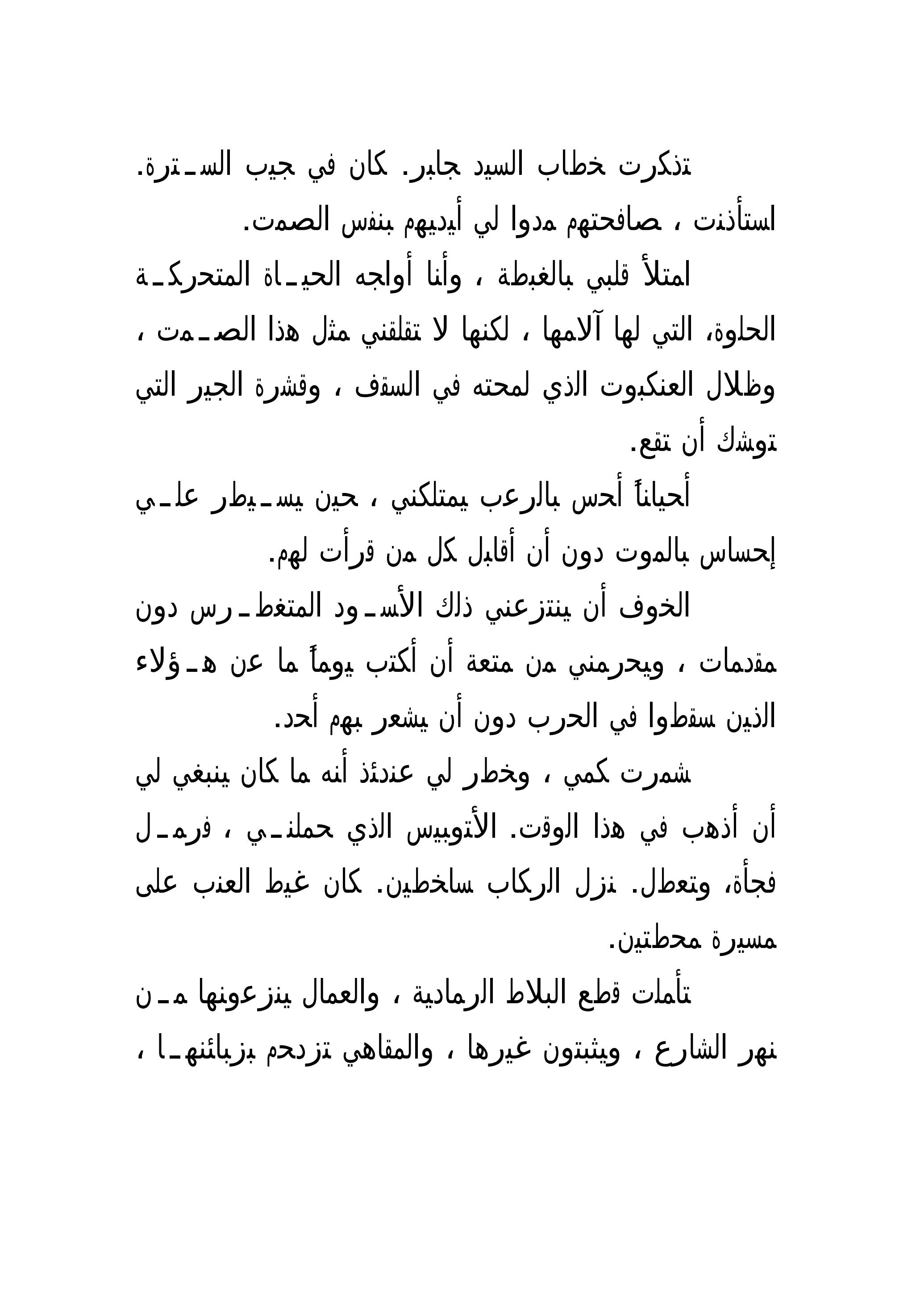
قلت لمحمد حافظ رجب : ما رأيك فيما أقول؟

أدهشني رده المقتضب : لا بأس.

جاء الساعي بكوب شاي. رحـت أرتشـف بتلـذذ. وأمامنا كان يجلس عجوز يحرك فمه الخالي مـن الأسـنان ويهرش صدغه الأيمن في ازمة عصبية.

تراوى لي إحساس بأنني في مأزق. وأن هؤلاء الذين معي في الحجرة يريدون قتلي بصمتهم وقلة اكتراثهم.

كان الجميع يجلس بلا حديث ، وحدي كنت أثرثـر. أما الآخرون فهم متجهمون صامتون لم اجسر على مواجهتهم بذلك. ظللنا برهة طويلة على هـذا النحـو. أبـدأ الحـديث وأخوض فيه ، وحين أتأملهم أجد نظرات حائرة في أعينهم.



تذكرت خطاب السيد جابر. كان في جيب الســترة. استأذنت ، صافحتهم مدوا لي أيديهم بنفس الصمت.

امتلأ قلبي بالغبطة ، وأنا أواجه الحيــاة المتحركــة الحلوة، التي لها آلامها ، لكنها لا تقلقني مثل هذا الصــمت ، وظلال العنكبوت الذي لمحته في السقف ، وقشرة الجير التي توشك أن تقع.

أحياناً أحس بالرعب يمتلكني ، حين يســيطر علــي إحساس بالموت دون أن أقابل كل من قرأت لهم.

الخوف أن ينتزعني ذلك الأســود المتغطــرس دون مقدمات ، ويحرمني من متعة أن أكتب يوماً ما عن هــؤلاء الذين سقطوا في الحرب دون أن يشعر بهم أحد.

شمرت كمي ، وخطر لي عندئذ أنه ما كان ينبغي لي أن أذهب في هذا الوقت. الأتوبيس الذي حملنــي ، فرمــل فجأة، وتعطل. نزل الركاب ساخطين. كان غيط العنب على مسيرة محطتين.

تأملت قطع البلاط الرمادية ، والعمال ينزعونها مــن نهر الشارع ، ويثبتون غيرها ، والمقاهي تزدحم بزبائنهــا ،

ومحلات العصير على الجانبين ، وأعواد القصب تطل مـن الفتحات الخلفية.

الصعايدة يبيعون عناقيد العنب البناتي في أقفاص من الجريد ، و " الكلوبات " لم تبخ صهدها بعد.

استفسرت عن العنوان. أشارت لي سيدة ملتفة فـي ملاءة سوداء ، وعلى الوجه " بيشة " من الحرير الطبيعـي الأسود.

الوقت ليس متأخراً ، ولم أكن على كل حال مطالبـاً بالاعتذار. نسوة كثيرات متربعات أمام عتبـات البيـوت ، والغسيل منشور على أحبال موصلة بين شبابيك من قضـبان حديدية مشغولة. قلت : بيت السيد جابر؟

نظر أبوه من نافذة مفتوحة ، سعل : إطلع.

انتابني شيء من الشرود ، اضـطررت للصـعود ، وفي يد الخطاب. فتحت الأم الباب ، وضعت علـى رأسـها طرحة تلم شعرها المهشوش : خير !

قبل أن أجيب ، هز رأسه مرحباً : أدخل يـا بنـي. استرح.

إلى جواره جلست. قلت له أن سيد بخيـر ، وأنـه يرسل له السلام. وأن إجازته قد تتأخر قليلاً فلا يقلق.

سألتني أمه بفضول : هل سيحصل على مكافأة؟

في المسقط كانت الأحصنة تصهل ، وأمامها جوالات التبن.

قلت : إجراءات الرفت لن تطول. والصليب الأحمر قد أرسل شهادة عن مدة الأسر ، وسيتضمنها ملفه.

في هذه اللحظة دخلت أخته. سلمت علي وجلست إلى جوار أنها صامتة.

سألني فجأة بلا مقدمات : هل تناولت عشاءك؟

قبل أن أجيب، همس لزوجته أن تجهز لنا " الطبلية".

كانت لها عينان جميلتان ، صافيتا الخضرة ، وبشرة سمراء ، على وجهها نمش خفيف.

ابتسمت لي وهي تتأملني ، فخفق قلبي.

سألني : أول مرة تصل الإسكندرية؟

أجبته : نعم ، لكنها أعجبتني كثيراً.

قالت وهي تحكم طوقاً فضياً حول شـعرها : هـل شاهدت عامود السواري؟

لم أكن قد شاهدته. ولم أكن مهتماً به على أية حـال.

هززت رأسي نفياً.

لم أفهم ما ضرورة أن أشاهده.

أذهب للأقصر. سيريني محمـد خطـاب الأعمـدة الفرعونية السامقة ، والصروح المشيدة من الجرانيت. أمـا هذا العمود الأملس الذي يخلو من النقوش فماذا يمثل لي؟

كان الأب بساق خشبية ، اكتشفت ذلك حـين تهيأنـا للجلوس على (طبلية) من خشب : أطباق مليئة بالملوخيـة الناشفة ، وقطع البصل المبشور ، وأرغفة ساخنة.

قلت محرجاً : لماذا هذا التعب؟

قالت الأم : أنت مثل سيد.

البنت قالت : مد يدك. لا تخجل.

وكأنه كان منذ البداية يتوقع أن يسمع منـي تـاريخ خروجه من الخدمة :

ألا تعرف متى يحصل على شهادة الإعفاء؟

انتهى بي المطاف إلى أن أدافع عن بطء الإجراءات، وأن أزعم أن هذا أمر طبيعي.

قالت وهي ترمقني : هل حاربت معه في الجبهة؟

قلت أنفي الأمر : لم أحارب. لقد التحقت على قـوة الكتيبة منذ أشهر قليلة.

قالت أمه : لماذا لا تزورنـا باسـتمرار. العامريـة ليست بعيدة.

حين فرغنا من العشاء ، شربنا الشـاي ، أوصـلني حتى الباب. كان يدق أرضية الغرفة بساقه دقات منتظمة : لا بد أن تزورنا ثانية.

ربتت الأم على كتفي : شرفت.

تكاثف الظلام في الخارج ، بسرعة فائقة ، كان السلم معتماً ، ألقيت نظرة إلى أعلى ، في الضوء الشحيح كانـت تلوح لي. ابتسمت. قالوا : سننتظرك.

أردت أن أشرب فنجاناً من القهوة. أحصيت ما معي من نقود. أدركت أن علي أن أختار بـين فنجـان القهـوة ، ومشاهدة فيلم جديد.

كان علي أن أستعيد وقائع الزيارتين. فضلت فنجـان القهوة. جاء ماسح الأحذية ، وراح يطرق على علبتـه : " تلميع يا بيه ! ". أغرقت في الضحك سألته : " تلمع أنت ! "

(١٢)

بعد شهرين عدنا إلى الدفرسـوار. عنـد وصـولنا الإسماعيلية فوجئنا بوجود الكثير من الأهالي العائـدين إلـى المدينة.

عبر الممرات القديمة التي تتوغل في الحقول عدنا ، ونحن نطوح في خفة أعواد قصب اشتريناها من سرابيوم.

رحنا نشق طريقنا للكتيبة بعد أن حصل معظمنا على تقديرات عالية في فرقة الاستطلاع. وضربنا بالهاون علـى أهداف ثابتة وأخرى متحركة في الصحراء الغربية.

تسلمنا في حفل التخرج الذي حضره قادة كثيـرون شهادات بالمدة التي قضيناها ، وتمكن أحمـد طـاهر مـن الحصول على رتبة العريف.

في البيان الختامي الذي سبق الحفل شاهدنا مشـروع تكتيكي شاركت فيه جميع أنواع الذخيرة الحية لمختاف أنواع الأسلحة. رأينا طائرات الميج ٢١ ، و ف ١٦ ، وتحركـت الدبابات ٥٥ وبرزت القدرة الفائقة على إصـابة الأهـداف المتمركزة على ميول التباب الحاكمة.

انبهرت بما رأيت وكنا نجلس على هيئـة صـفوف خلف منصة لاطلاق الصواريخ.

قلت : كأننا في حرب.

هز رزق كتفيه : معارك مفبركة ، وحرب ملفقة.

شاركه المغاوري الرأي : لا فوضى هنا ، لا أجساد تطوح بها القنابل. لا دماء تسفك الحرب التي رأيناها ليسـت هكذا.

قلت وصوت انفجـارات عنيفـة تتـوالى ، فتـرتج الأرض : أتريدون قتلي حتى تكون معركة.

صرخ رزق في بصورة أزعجتني : نحن لا نريـد. لكنك لن تشعر بالفارق إلا إذا اكتويت بنارها !

لم أكن أريد أن أكتوي بنار الحرب. فكـرت وأنـا أسبقهم في طريقي إلى مرابض نيران الكتيبة ١٨ مشاة أننـا سنعود ثانية إلى نوبات الحراسة المشددة. راح مغاوري يحك في عنف شعره القصير الداكن.

رحنا نتطلع حولنا ، وقد ألم بنا الضيق لأن بعـض الممرات قد تغيرت معالمها ، وصار من الصعوبة بمقدار أن نخترق الحقول كما كنا نفعل للوصول إلى مواقعنا.

تعثر رزق ، وهو يزيح أفرع الأشجار الملتفة ليبحث عن الطريق الأسفلتي خلف مزارع داكنة الخضرة. قلت فـي اغتياظ كاذب : قلت لكم لا داعـي للاختصـار. ستضـلون طريقكم.

فقد رزق أعصابه ، وخانه صوته ، فأشـار بيـده : أبحثوا عن مخرج. يبدو أننا نسينا المكان.

كنت سعيد بالعودة لأنني سأقابل أصدقاء الـ م. ط ، وسيمكننا أن نقضي جلساتنا المرحة على حافة القناة. كل ما كان يمكن للرفاق أن يقولوه حول أيام العامرية تركوه لحـين العودة. لا شيء يشعرون به سوى أنهم قـد أوشـكوا علـى الوصول بسلام إلى نطاق الكتيبة ، وعلـيهم أن يسـتريحوا الليلة.

جميع الأشياء التي كانت الجربندية تحتويها لا يمكن الاستغناء عنها. فكرت في أصداف وضعتها داخل المنـديل الكاكي. سوف أدسها تحت الوسادة في الدشمة كتعويذة لأيامنا الجميلة في تلك البقعة الهادئة.

أصبحنا فجأة في مواجهة الطريق الإسفلتي بعـد أن كنا قد فقدنا الأمل في الاهتداء إليه.

بعد مسيرة دقائق أصبحنا في مواجهـة الملاجـئ ، وكنا قد أحضرنا معنا باكوات الشاي وجرائد اليوم ، وأرغفة طازجة ، وأخفينا في جيب الجربندية حبات البرقوق الأحمر التي ابتعناها من اسماعيلية.

صاح رزق ونحن نخترق الموقع من خلف الأسلاك الشائكة لمفاجتهم بعودتنا قبل الموعد بأربع وعشرين ساعة :

يا محمد عامر.. يا سيد جابر.. يـا عبـد الـرحمن حباص.

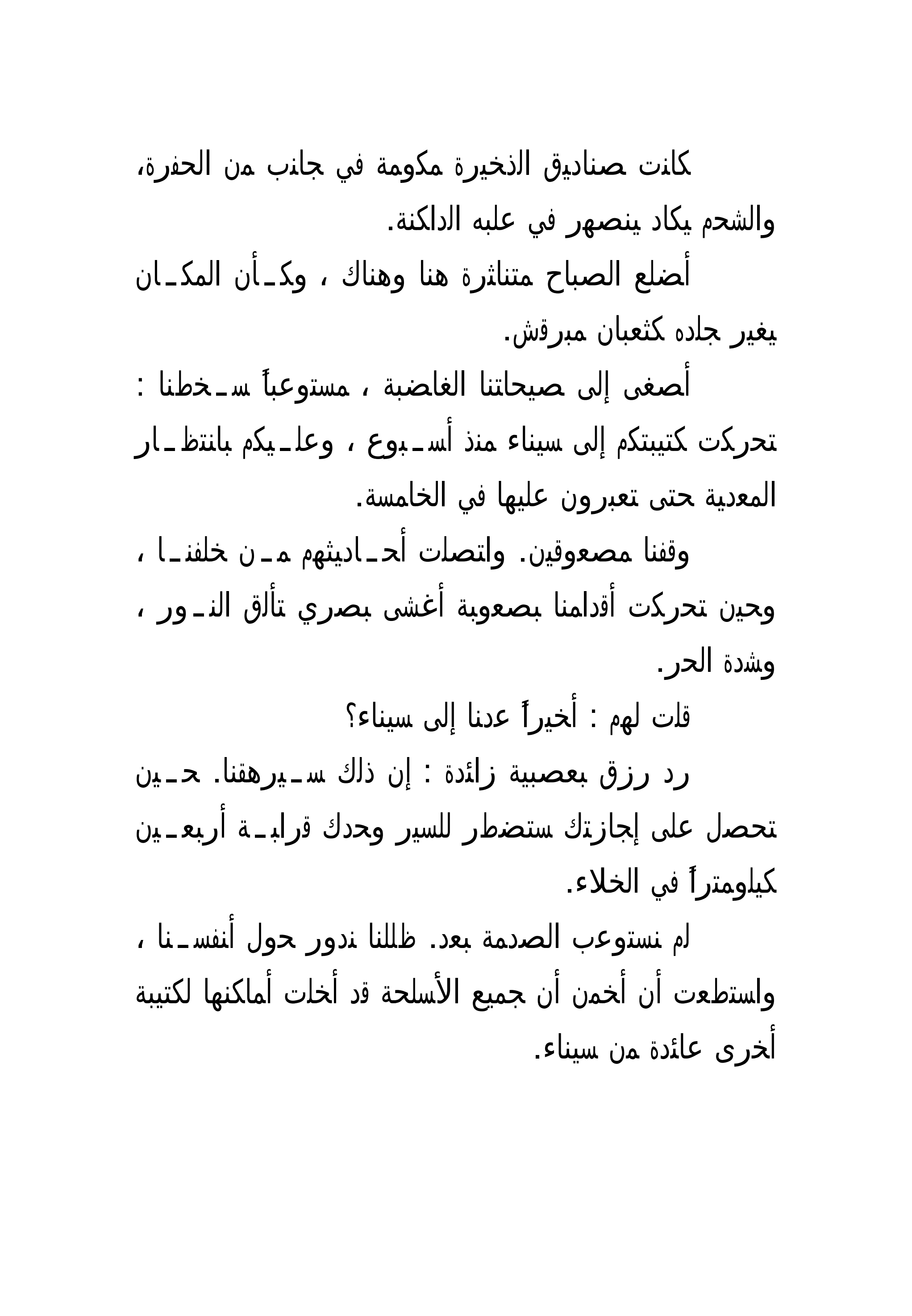
برزت من الملاجئ رؤوس حليقة ، وأعين تحملـق فينا بريبة. صعد باشجاويش لا نعرفه من ملجأه وسألنا عـن سبب وجودنا.

قال المغاوري : من أدخلك ملجأنا؟

كانت رائحة بنزين تملأ المكان ، وانعكاسات الشمس على مواسير الهاون ترهقنا.

هز الباشجاويش رأسه : أنتم من ك ١٨؟

صحنا في صوت واحد : نعم ، وهذه هـي ملاجـئ سريتنا.



كانت صناديق الذخيرة مكومة في جانب من الحفرة، والشحم يكاد ينصهر في علبه الداكنة.

أضلع الصباح متناثرة هنا وهناك ، وكـأن المكـان يغير جلده كثعبان مبرقش.

أصغى إلى صيحاتنا الغاضبة ، مستوعباً سـخطنا : تحركت كتيبتكم إلى سيناء منذ أسـبوع ، وعلـيكم بانتظـار المعدية حتى تعبرون عليها في الخامسة.

وقفنا مصعوقين. واتصلت أحـاديثهم مـن خلفنـا ، وحين تحركت أقدامنا بصعوبة أغشى بصري تألق النـور ، وشدة الحر.

قلت لهم : أخيراً عدنا إلى سيناء؟

رد رزق بعصبية زائدة : إن ذلك سـيرهقنا. حـين تحصل على إجازتك ستضطر للسير وحدك قرابـة أربعـين كيلومتراً في الخلاء.

لم نستوعب الصدمة بعد. ظللنا ندور حول أنفسـنا ، واستطعت أن أخمن أن جميع الأسلحة قد أخلت أماكنها لكتيبة أخرى عائدة من سيناء.

أحمد طاهر لم يعر الأمر اهتماماً. صاح فينا مؤنباً : ما الفرق بين الدفرسوار وسيناء؟

هزه المغاوري من كتفيه : ستعرف الفارق. هنـاك كوب الماء يساوي عمرك !

لن ترى تلك الخضرة ، وأشجار التوت التـي كنـا نتسلقها سنفتقدها.

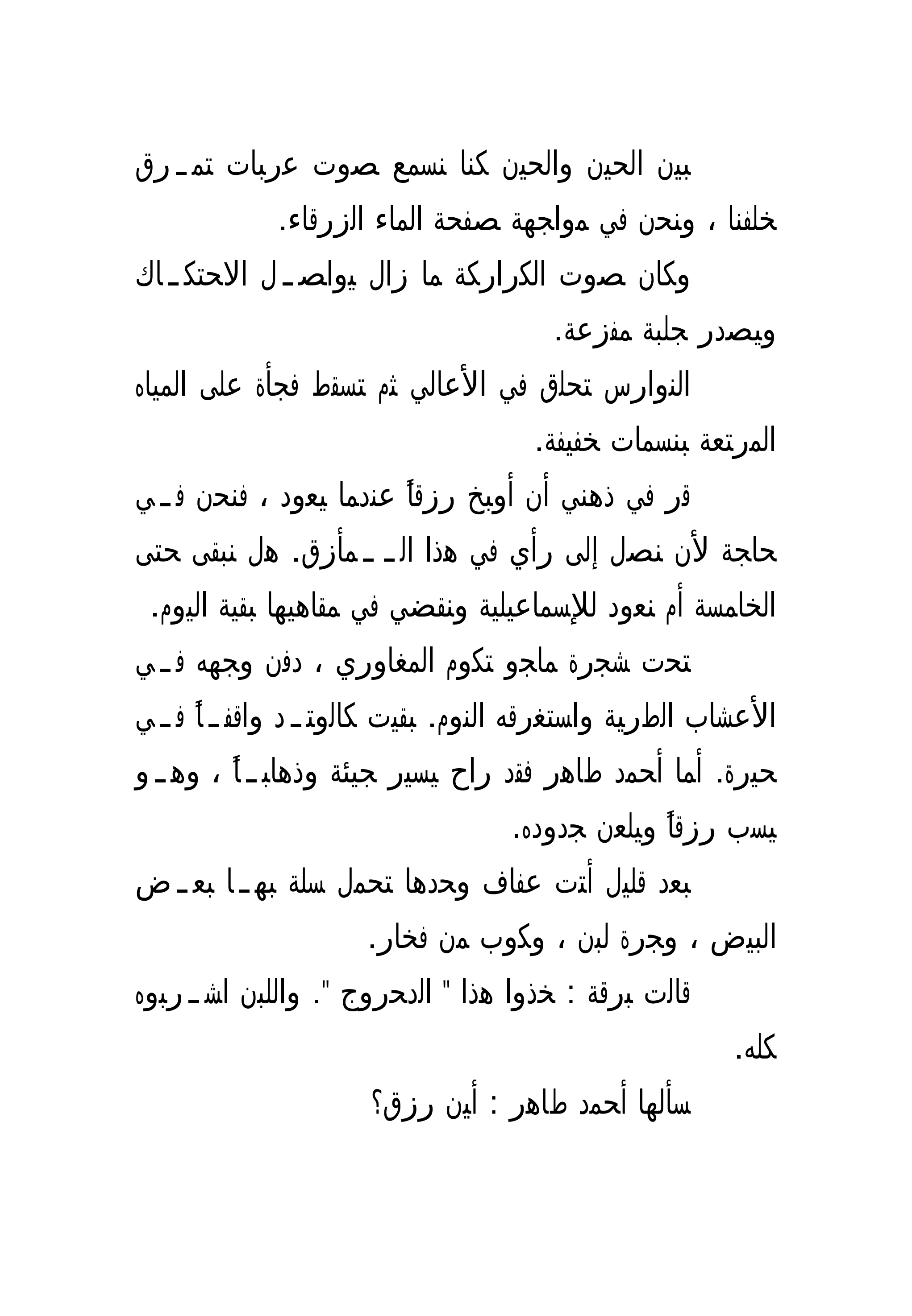
كان رزق يتلفت حوله. أردت أن أملأ عيني بتفاصيل المكان قبل أن أغادره. لم يفتني شيء من الطبيعـة حـولي. وجدت عناء في تصديق هذا الانتقـال المفـاجئ ، وكـأنني عقدت أواصر محبة وألفة مع الأشجار ، والتبـاب ، وعـين الماء ، ومرابض البدو.

خلع رزق الجربندية وهمس لنا : دقيقة واحدة.

راح يعدو ناحية عين الماء. تتبعناه حتى انحدر ناحية الخيام البعيدة. صاح مغاوري غاضباً : لسنا في خدمة أهله.

قال أحمد طاهر معقباً : نحن هنا ننفجر غيظاً ، وهو ذاهب ليقابل عفافا.

لم يبد لي ميل للعودة إلى الإسماعيلية. كنت متعبـاً ، ومثلي الشربتالي والمغاوري.



بين الحين والحين كنا نسمع صوت عربات تمرق خلفنا ، ونحن في مواجهة صفحة الماء الزرقاء.

وكان صوت الكراركة ما زال يواصل الاحتكاك ويصدر جلبة مفزعة.

النوارس تحلق في الأعالي ثم تسقط فجأة على المياه المرتعة بنسمات خفيفة.

قر في ذهني أن أوبخ رزقاً عندما يعود ، فنحن في حاجة لأن نصل إلى رأي في هذا المأزق. هل نبقى حتى الخامسة أم نعود للإسماعيلية ونقضي في مقاهيها بقية اليوم.

تحت شجرة ماجو تكوم المغاوري ، دفن وجهه في الأعشاب الطرية واستغرقه النوم. بقيت كالوتد واقفاً في حيرة. أما أحمد طاهر فقد راح يسير جيئة وذهاباً ، وهو يسب رزقاً ويلعن جدوده.

بعد قليل أتت عفاف وحدها تحمل سلة بها بعض البيض ، وجرة لبن ، وكوب من فخار.

قالت برقة : خذوا هذا " الدحروج ". واللبن اشربوه كله.

سألها أحمد طاهر : أين رزق؟

دارت فمها بطرف الشال. ردت بنعومة لا اصطناع فيها : مع أبي يشرب القهوة.

استدارت عائدة. طفق أحمد طاهر يغلي من الغـيظ. سألني : ما رأيك أن نسلق هذا البيض ، وبعد أن نشرب اللبن نفكر في حيلة تطرد هذا الجبان من عندهم.

قلت وكان الغيظ يملأني مثله : يدي على يدك.

تثاءب المغاوري ، فهززته ، قام مذعوراً : هل أتت المعدية.

قال الشربتالي وهو يلاطمه برفـق علـى وجهـه : صاحبك في استضافة القبيلة.

سأل كالمأخوذ : صاحبي من؟ قلت ساخراً : قيس بن الملوح. وكانت ليلى هنا. ولقد تركت لك جرة اللـبن وهـذا البيض.

الهواء الذي يمر في هبوبه بمياه القناة يحمـل إلينـا نسمات منعشة ، لكن للإسكندرية برائحة يودها ، وبشوارعها المغسولة بالضوء حنين لا ينضب.

شربنا اللبن ، وأشعلنا النار لنسلق البيض. وكنا بالفعل جائعين. أفرغنا حبات البرقوق والتهمناها تشفياً من أفعال رزق الطائشة.

حزمنا أمرنا على الدس لرزق ، وهز صورته أمام والد عفاف حتى يطرده شر طردة.

سرنا قليلاً ثم انحدرنا نحو التل ، صرنا في أحضان الدفرسوار.

تفحصنا الخيام ، حتى وجدناه متكئاً على حشية مزركشة ، يشرب القهوة في فنجان من الصيني ، وأمامه أبريق نحاسي مشغول. صفق أحمد طاهر الشربتالي : يا شيخ رزق.

خرج الرجل بعقاله ، ورحب بنا ، كانت التجاعيد تملأ وجهه : تفضلوا. على الرحب والسعة.

كانت جلبابه الأبيض بخطوط خفيفة وفتلة من القصب.

قال أحمد طاهر : أيرضيك أن يترك رزق زوجته مريضة ويأتي للجيش. أليس هذا حرام !

قلنا أنها المفاجأة التي ستنسفه ، توقعنا أن يصفعه الرجل على وجهه. قطب جبينه مفكراً ، يقلب الكلام على أوجهه : لماذا يا ولدي تترك زوجتك. أليس لك قلب؟

تعجبنا. لم يثر الرجل مطلقاً. ليست هناك نية لزواج رزق بعفاف. يا ترى ما سر العلاقة التي تربط بين رزق وهذا البدوي؟

شربنا القهوة المحمصة ، وصافحنا الرجل. أما رزق فقد عانقه عناقاً حاراً وأفهمه أن الكتيبة قد تحركت إلى سيناء.

تمنى له البدوي التوفيق ، وسأله أن يعاود الزيارة كلما أمكن. حين صرنا على مبعدة من الخيام جذبناه من ملابسه وأوسعناه ضرباً بقبضاتنا وركلاً.

سألنا وهو يمتص صفعاتنا : ماذا فعلت؟ ألم تشربوا على حسي قهوة ولبناً؟

أفحمه أحمد طاهر بسؤال محدد : كيف ضحكت على الرجل ودخلت بيته؟

ضحكت مصححاً السؤال : ودخلت خيمته؟

هز كتفيه في استخفاف : أمـور لا تفهمهـا. رزق وحده يعلمها.

حين صرنا في مواجهة المعدية ، أحسسنا بالشـمس تحت ثيابنا تكوي الجلود. خلعنا البيادات وتمـددنا ، توسـدنا الجربنديات.

قلت كاظماً غيظي : سأكشف سرك يوماً يا رزق.

رحت أتطلع إلى الخضرة خلفي ، والزرقة الصافية ، ثم الأصفر الممتد حتى خط الأفق.

قال رزق وهو يتنهد : لا تشغلوا بالكم بي. عندكم ما هو أهم مني.

كانت فترة راحة إجبارية تبعث الشـجن. اسـتعدت وجه سوسن. وسألت نفسي هل تحبها حقـاً أم أنهـا نـزوة عابرة؟

حين قابلتها صدفة أمام شـاطئ الأنفوشـي كانـت تعصب رأسها بمنديل زهري تعلوه كرات بيضاء صغيرة لها شكل نوارة البرسيم. تمشي مع صويحباتها.

مدت يدها تسلم : لم نرك مرة أخـرى. لمـاذا لـم تحضر؟

سألتها بدوري : هل أتى سيد جـابر فـي إجازتـه الميدانية؟

هزت رأسها بالنفي : أبي قلـق عليـه. هـل أتـى لطمأنته؟

فطنت أن يدها ما تزال ترقد فـي يـدي ، مسـتني رجفة، أغمضت عينيها ، وهي تتأمل وهج الشمس الغاربة : سأحاول.

أشرعة بعض الزوارق تمتد فـي أقـواس لتعـانق الفضاء ، وللشمس خيوطها الأرجوانية.

لاحظت أن الشاطئ يزخر بالأطفـال ، والمظـلات الملونة ، وأن بائعة الفل أتت ، ووضعت في يـدي عقـداً ، وانتظرت نقودها.

دسست يد بالريال ، وبجرأة لا أعرف كيـف أتتنـي طوقت عنقها.

لم تمانع لكنها بدت شاردة ، ويدي تمـس شـعرها الناعم الجميل. تأملت النمش ، وبحثت عن كلمات يمكـن أن تقال في هذا الجو الرومانسي الجميل.

كانت هي الأخرى تبحث. كنا خائبين. لا هي تعرف ولا أنا أقدر. سألتني : هل تحب الإسكندرية؟

انسابت كلماتي لينة بلا عناء : أحببتها اليوم فقط.

مددت يدي فأمسكت بيدها.سرنا بمحاذاة السور نتأمل لحظة الغروب. كنت أرغب في تقبيلها. وكنت أشـعر بهـا تريد ذلك.

قابلت بنات وشبان يتضـاحكون. وجـدتني مـثلهم أضحك ويملأني السرور بلا سبب. وهي تبتسـم فـي رقـة متناهية.

قلت لها وأنا أمد لها يـدي بقطـع النعنـاع التـي اشتريتها: بل أحب غيط العنب أكثر.

هل قبلتها؟ لا أعتقد لأنها قالت لي وهي تـودعني : هل نسيت شيئاً؟

جاءت العبارة فحملتنا ، وكل العسـاكر ، وعربـات الجيب. كل غارق في أفكاره. وأنا أستعيد وجهها. هل قبلتها؟

(١٣)

في تبة أبي وقفة بسيناء تمركزت السرايا المعاونـة للكتيبة ١٨ مشاة. حين وصلنا علمنا بانتقال النقيـب أحمـد عادل إلى المنطقة المركزية بالقاهرة.

فور عودتنا قابلنا الملازم أول متولي عطـا ، سـلم علينا ، وعرفنا بنفسه. وأسند إلى أحمد طـاهر حكمداريـة الطاقم الثالث ، بينما انتقلت للطاقم الثـاني كحكمـدار لـه. وأصبح رزق بحكم أقدميته حكمداراً للطاقم الأول.

كانت الرحلة مرهقة وصعبة ، فلا علامـات علـى الطريق ، والمدقات الجيرية متشابهة ، الطريـق الأسـفلتي جارت عليه هبات الريح فغطي بالرمال تماماً.

أنت في منطقة منعزلة. أمامك البراح : تعرجات من تبات رملية ، وحولك كلما التفتت حقول الألغام ، وخنـافس تتحرك ببطء في كل اتجاه ، وسحالي كسولة خضراء تـدفن نفسها في الرمال.

فئران جبلية بنية اللون تخطف علب السـجائر مـن الملاجئ ، وتقرضها بالأركان. والمطاردة غيـر المتكافئـة

حيث المخابئ صعب العثور عليها. استسلم الجميـع لغـدر الفئران ، وخفت حدة المطاردة.

المياه لا تصل بالعربات ، وليس ثمة عين كتاك التي بالدفرسوار. قلت لرزق أداعبه : لن تجد لك صاحبة في هذا المكان القفر.

حين هم بحمل جراكن المياه ، وسرت خلفه ومعـي عبد الرحمن حباص. تلكأ أمام دبابة إسرائيلية مضروبة أسفل المدق.

راح كعادته يبحث فيها عن شيء ينفعه. صاح عبـد الرحمن :لا تضيع وقتنا. المسافة طويلة ، والرجوع صعب.

ترك الجراكن ، واختفى بجسده داخل برج الدبابـة. عاد ببعض الطلقات التي لم تنفجر ، وبخوذة تغطي الأذنين ، ثم قطع من الشاش داخل عبوات من البلاسـتيك ، وعلـب مربى قديمة.

قلت له : إرم ما بيدك. لن تنفعك هذه الأشياء.

فجأة وجدناه مرتمياً على الأرض يتلوى. كان عقرباً صغيراً أخضر اللون لا يكاد يُرى. تحرك بسـرعة ناحيتنـا مشرعاً ذيله الذي يلدغ.

رحنا نضربه بالجراكن التي في أيدينا ، ونحن نقاوم فزعنا بالصراخ. لكن ضربات الجراكن لم تكن مؤثرة.

جرى حباص وعثر على قطعة حجر هوى بها على الجرم الضئيل ، وسمعنا صوت طقطقة. خلعت السلك الـذي كنت أربط به مجموعة الجراكن التي معي. ربطـت أعلـى الساق كما تعلمت في كتب العلوم. حملنـاه وعـدونا نحـو السرية الطبية.

رآه الطبيب الملازم يسري ، فصاح بنا : هذا ثـامن مصاب منذ حضرنا.

سألنا عن الموقع الذي لُدع فيه. أشرنا بأصابعنا ناحية الدبابة التي نمت على جنزيرها المعطوب بعض الأعشـاب القصيرة. أجلسه على طاولة من الصاج الأبيض وراح يشرط مكان اللدخة. ويضغط بكل قواه حتى يتقاطر الدم الفاسد.

عدنا لنملأ الجراكن ثانية ، وجاء معنـا المغـاوري. قتل لأبي الزوائد عبد الرحمن حباص : يستحق اللدغة !

استاء من عبارتي : يا رجل. تقل هذا.

ضحكت وأنا أستعيد ذلك اللقب الغريب الذي أطلقناه على عبد الرحمن. كنا ساعة التعيين يقف مندوبو الفصـائل

والسرايا المعاونة لأخذ الأنصبة تبعاً للقوة الموجـودة بعـد خصم الإجازات. وكان يتبقى في النهاية بعض فائض الطعام لا يؤبه له. يقوم نوبتجي التعيين بتوزيعه علـى المنـدوبين كيفما اتفق.

كان عبد الرحمن حباص يصر كل مـرة علـى أن يتولى مهمة إحضار التعيين لسرية الهاون ، يحل الأروانات الجماعية ، وشيكارة الجراية الفارغة ، ويظل يحملـق فـي المدق مترقباً قدوم عربة التعيين التي تقوم بتوزيع الأنصـبة على نقاط الكتيبة.

وقبل أن تبدأ عملية التوزيع يصـرخ كالمسـعور : الزوائد.. الزوائد.

وكان يقصد بذلك فائض الطعام الـذي يتبقـى بعـد التوزيع. ومرة بعد مرة أسـماه العسـاكر : أبـا الزوائـد. والتصق اللقب به ، حتى غاب اسمه الأصلي ولم يعـد أحـد يعرفه إلا بأبي الزوائد ، وهو بهذا اللقب مسرور.

يتهمنا بالتفريط في حقوقنا : أنا أنتزع كم نصيبكم من فم الأسد.

قلت لعبد الرحمن : لماذا لا تكف عن التدخين؟

فيما يبدو لم يكن لديه مـا يشـغله سـوى إشـعال السجائر. قال إنها عادة اكتسبها في الجيش. وأنه حين يقـوم من النوم يبحث عن سيجارة ليمتص دخانها على الريق قبـل الإفطار. فهذا أم لأن دمه يروق ويستطيع أن يركز.

سألته : في أي شيء تركز يا حبلص؟

مط شفته السفلى ، أشار بيده : أنظر أمامك.

كان عصفور قد ضربه الحر ، وارتمى على ظهره ، يرفس بساقيه الرفيعتين الهواء. لم يحاول أن يمسكه. اقتربت منه وجعلت من جسدي ظلاً. أدرت غطاء الجـركن حتـى خلعته ، ورحت أصفي ما تبقى من قطرات ماء فـي راحـة يدي ، وأرشها على ريشه.

انتشى ، لكنه لم يقدر على الطيـران. حملـه عبـد الرحمن وبلال الرمل تحت شجيرة صبار ، فـي الظـل أودع الطائر المسكين.

قلت لنفسي : عقرب وعصفور. ما أوسع الفـارق؟

قلت لنفسي ما يشغل فكري.

قال حباص وكان دمنهورياً يحفظ القرآن ، ويتحـدث أحياناً مع المتعلمين من أمثالي بلغة عربية سليمة تخلو مـن اللحن : كل ميسر لما خلق له.

قلت له : أطربتنا يا مولانا.

ملأنا الجراكن ، واستعان بنا رجل الشرطة العسكرية مكرهين على تحميل عدد هائل من الجراكن لسيارة وحدتـه العسكرية.

سرنا في العودة كالأسرى ، منكسي الرأس ، نحمـل فوق الطاقة ، وعقولنا يكاد يتلفها الحر. مررنا في خطـوات متثاقلة بالشجيرة ، فلم نعثر على العصفور.

صاح حباص فرحاً : لقد انتعش وطار.

قلت متأسياً : أو طوحت به الريح قبل أن يفيق.

قال أبو الزوائد : جائز.

ما أبأس أيامنا حين تهب العاصفة الرملية فتنتقل تباباً وتغير معالم المكان. تمطر الذرات الدقيقة الصفراء ملاجـئ الأفراد ، وحفر الذخيرة ، ودشم الاستطلاع في المقدمة. هنا يمكن للأبل أن تعبر الصحراء. تغلق جفونها وتمضي بأقـدام لها خف لا يغوص في الرمال.

أما البشر المعذبون مثلنا. فنسمع طيلة الليل هبات الرياح ، وصوت ارتطام الذرات المتتابعة بأجساد الملاجئ وحدباتها ، بمواسير المدافع ، وأعمدة التنشين.

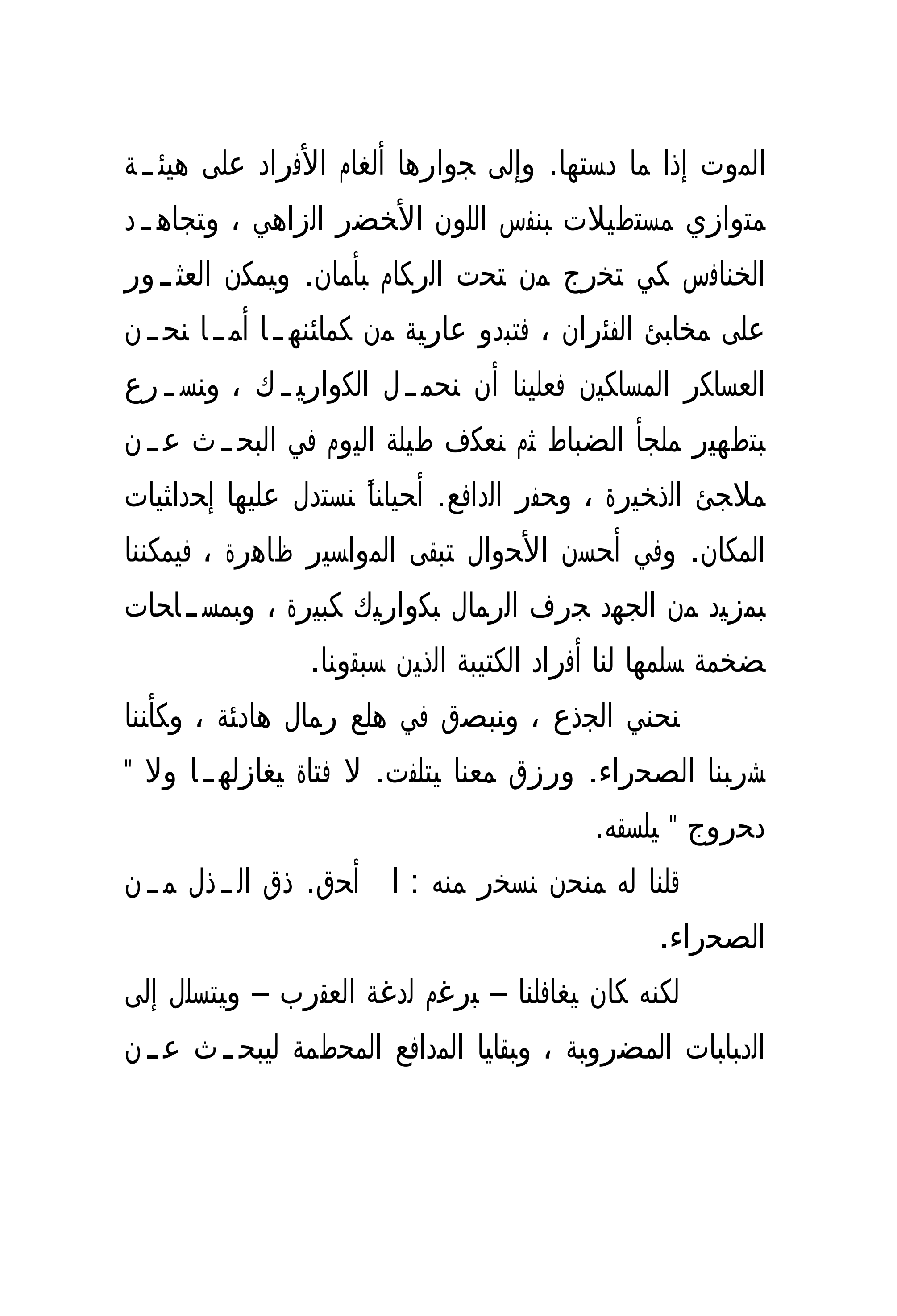
يختفي الجميع ما عدا أفراد الخدمة ، وبعد كل فترة ، يزحفون على ركبهم ، ويحفنون بأكفهم الرمال ، ليوسعوا الفتحات حتى لا يختنق النائمون.

ما أصعب نوبة الكينجي ، وما أطولها. أنت تحاور الرمال. تسألها أن تكف عن إرسال العواصف في امتدادها المخيف.

نضع " الزلاط " حول وجوهنا ، وبالرغم من ذلك نظل لأيام نبصق ذرات الرمال ونمخطها. أقف في الخلاء ساعة الخدمة ، ونظارتي أمسحها كل حين حتى أستطيع أن أرى الطريق.

وحين يأتي الصبح ، يزحف أفراد السرية ، ويخرجون أجسادهم بصعوبة بالغة من داخل الملاجئ. يكتشفون أن المكان اختلفت معالمه تماماً.

نجد حقول الألغام قد انكشفت تماماً ، وظهرت الرصاصات بعلبها الدائرية ، ونبصر اليايات التي تشيع



الموت إذا ما دستها. وإلى جوارها ألغام الأفراد على هيئـة متوازي مستطيلات بنفس اللون الأخضر الزاهي ، وتجاهـد الخنافس كي تخرج من تحت الركام بأمان. ويمكن العثـور على مخابئ الفئران ، فتبدو عارية من كمائنهـا أمـا نحـن العساكر المساكين فعلينا أن نحمـل الكواريـك ، ونسـرع بتطهير ملجأ الضباط ثم نعكف طيلة اليوم في البحـث عـن ملاجئ الذخيرة ، وحفر الدافع. أحياناً نستدل عليها إحداثيات المكان. وفي أحسن الأحوال تبقى المواسير ظاهرة ، فيمكننا بمزيد من الجهد جرف الرمال بكواريك كبيرة ، وبمسـاحات ضخمة سلمها لنا أفراد الكتيبة الذين سبقونا.

نحني الجذع ، ونبصق في هلع رمال هادئة ، وكأننا شربنا الصحراء. ورزق معنا يتلفت. لا فتاة يغازلهـا ولا " دحروج " يلسقه.

قلنا له منحن نسخر منه : ا أحق. ذق الـذل مـن الصحراء.

لكنه كان يغافلنا – برغم لدغة العقرب – ويتسلل إلى الدبابات المضروبة ، وبقايا المدافع المحطمة ليبحـث عـن

أحذية مطاطية تحمل حروفاً عبرية ، وأحياناً بعـض قطـع العملات الفضية. قلنا له : ماذا تفعل " بالشيكل " يا رزق.

قال وهو يحكم قبضته ويلوح بهـا فـي وجوهنـا : سترون يا أغبياء.

انقض عليه أبو الزوايد عبـد الـرحمن حـباص ، وانتزع منه تلك النقود ، ورماها بعيداً فغاصت في الرمال : نقودهم حرام علينا.

جرى رزق إلى المكان الذي غاصت فيـه النقـود ، وراح ينبش بأصابعه دون جدوى.

أوسعه رزق سباً وضرباً : مالك أنت يا دمنهوري يا " زفت " !

حين علم الملازم أول متولي بـالأمر اسـتدعاهما. وأعطى كلاً منهما خمس خدمات فوق نصيبهما.

لا شيء يمكنك أن تفعله هنا سوى تأمل الخنـافس ، والغيظ لدرجة الموت من حركتها البطيئة ، وسـحالي أشـد منها بلادة. أما الفئران النشطة فلم تعد تخافنا. لقد اسـتفأرتنا قبل أن نستأنسها. وأصبح لها اليد الطولى في المكان. ما نكاد نخرج في طوابير التمام حتى تعبث بقصاصـات الـورق ،

وعاب السجائر ، والجراية ، حتى حبات الفلفل الأخضر التي عاد بها محمد عامر من ايتاي البارود. حتى وضعنا أصابعنا في الشقوق.

زارني محمد حمام وسلمني خطاباً من أمي. عرفت ذلك من خطها المنمق الدقيق. فضضت الرسالة ورحت أقرأها. انتابتني راحة نفسية هائلة فطويت الخطاب.

قلت لمحمد : فات الكثير ولم يعد إلا القليل لتخرج إلى حياتك المدنية.

قال وهو يزفر بضيق وداخل صدره شيء محبوس : معك حق.

ارتفع الرمل فجأة ليضرب وجوهنا ويدميها. قلت له: هيا ندخل الملجأ. لن تستطيع العودة قبل أن تهدأ العاصفة.

في الظلمة الخافتة ، برغم الغبرة التي تكسو الوجوه أدركت أن ثمة ما يخفيه.

سألت بلا مراوغة : ماذا بك؟

كوم بيده بعض عيدان الكبريت التي راح يحطمها بأصابعه ، حدق في الخوذات المعلقة بأسياخ الحديد.

نطق بعد تردد : البقاء . قلت مأخوذا : من؟

قال وهو يعرف مقدار الصدمة : ابن خالك محمد !

عم روحي إحسـاس غريـب ، واجتـاحني فـيض نوراني، وكأنني أحلق في الأعالي.

هل صعد الدم إلى عقلي فجأة ، وتشعب في خلايـا الرأس ، فاعتقدت أنني أطير في فضاء المكان غيـر مبـال بالريح التي راحت تلطم وجهي؟

قلت مستفسراً : لقد كان موفور الصحة ، وفي عـز شبابه.

قال معقباً : أصابته سكتة قلبية وهو يلعب الطاولـة بالمقهى !

ليس للموت أسباب. كلنا إليه راحلون. تمددت داخل الملجأ على سريري ، وقد اختنقت بالبكاء. قلت له إن عمتي هي زوجة خالي. وأن المصيبة مصيبتان.

هذه العمة كم تحبني وتحنو علي منذ رحل أبي فـي طفولتي. كيف يا ترى تواجه موت ابنها؟

قال وهو يحدق في الظلمة التـي مـلأت الملجـأ ، وللعساكر الذين ظلوا مستلقين على أسرتهم يتابعون الحـديث

بلا رغبة في النطق بكلمة : آلاف الأمهـات واجهـن هـذا الموقف.

قلت مسلماً أمري : لكنها عمتي التـي أزورهـا فتخفف عني همومي !

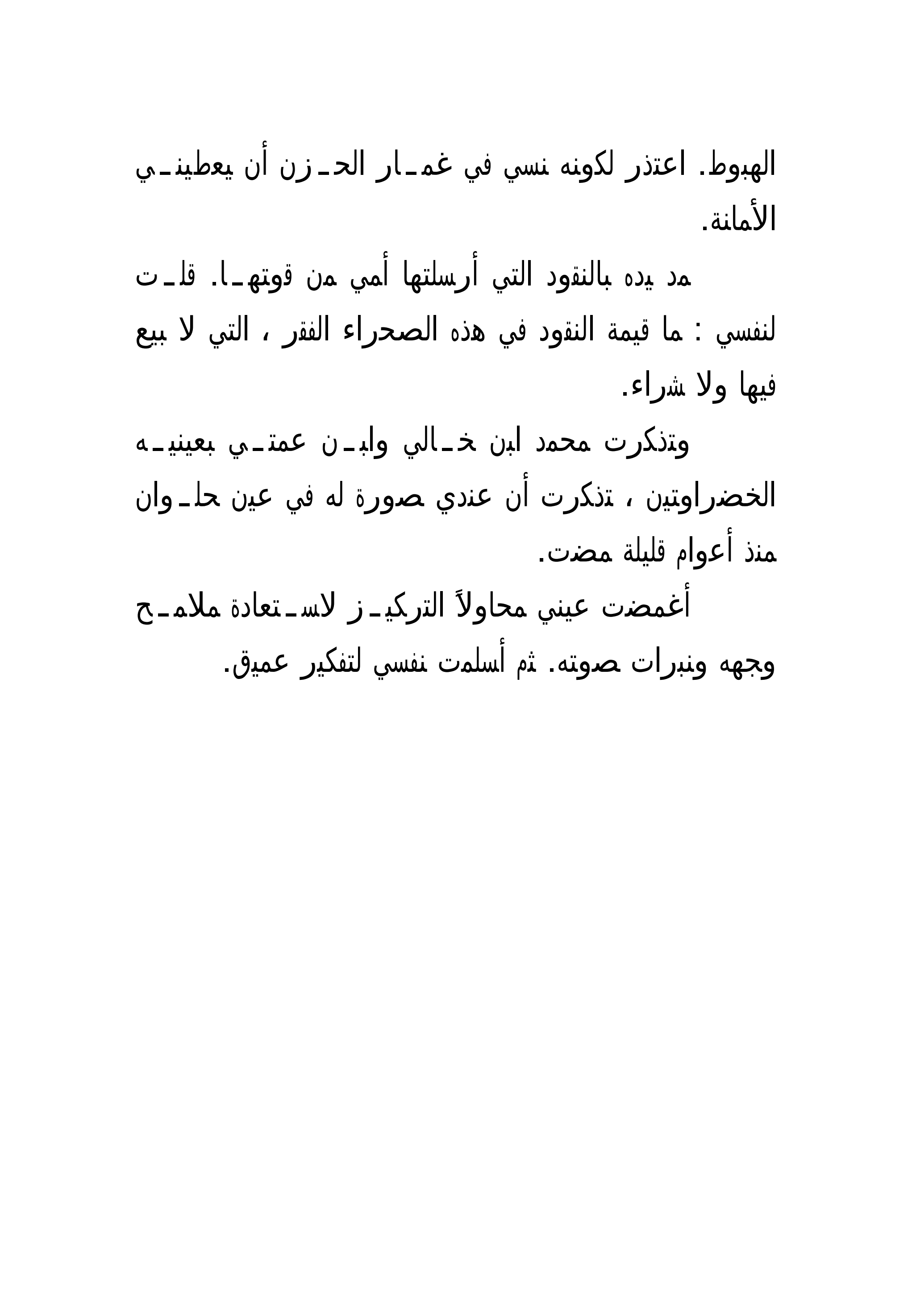
فجأة كفت العاصفة عن الهبوب ، وحين زحفنا على أيدينا وركبنا لنخرج من الفتحة الضيقة لم نسـتطع. كانـت الرمال قد زحفت ناحية أسرتنا. أخذنا نحفر بأصابعنا ونوسع الفتحة.

قلت لنفسي وأنا متلبس بالحكمة – التي أنفر منهـا – الصحراء وملاجئ العسكر. أيهما الموت وأيهما الحياة.

كانت الملاجئ التي تتنفس فيها بصعوبة على شـكل قبور ، وكأن الزي الكاكي هو الكفن لم يريحني هذا التفكيـر وأحسست باعوجاجة. قلت والهواء الراعش في الخارج لـه سطوته : لأدع الملك للمالك. اقتنص من اللحظة دفئهـا ولا تكن نكدياً.

خرجت لأودعه. ونسيت أن أسأله : كيف حال أمي؟

حين صار كنقطة صغيرة أسفل التبة ، راح يشير لي بيده أن أنزل. صرت في مواجهته ولم أبذل مجهوداً يذكر في



الهبوط. اعتذر لكونه نسي في غمـار الحـزن أن يعطينـي الأمانة.

مد يده بالنقود التي أرسلتها أمي من قوتهـا. قلـت لنفسي : ما قيمة النقود في هذه الصحراء الفقر ، التي لا بيع فيها ولا شراء.

وتذكرت محمد ابن خـالي وابـن عمتـي بعينيـه الخضراوتين ، تذكرت أن عندي صورة له في عين حلـوان منذ أعوام قليلة مضت.

أغمضت عيني محاولاً التركيـز لاسـتعادة ملامـح وجهه ونبرات صوته. ثم أسلمت نفسي لتفكير عميق.

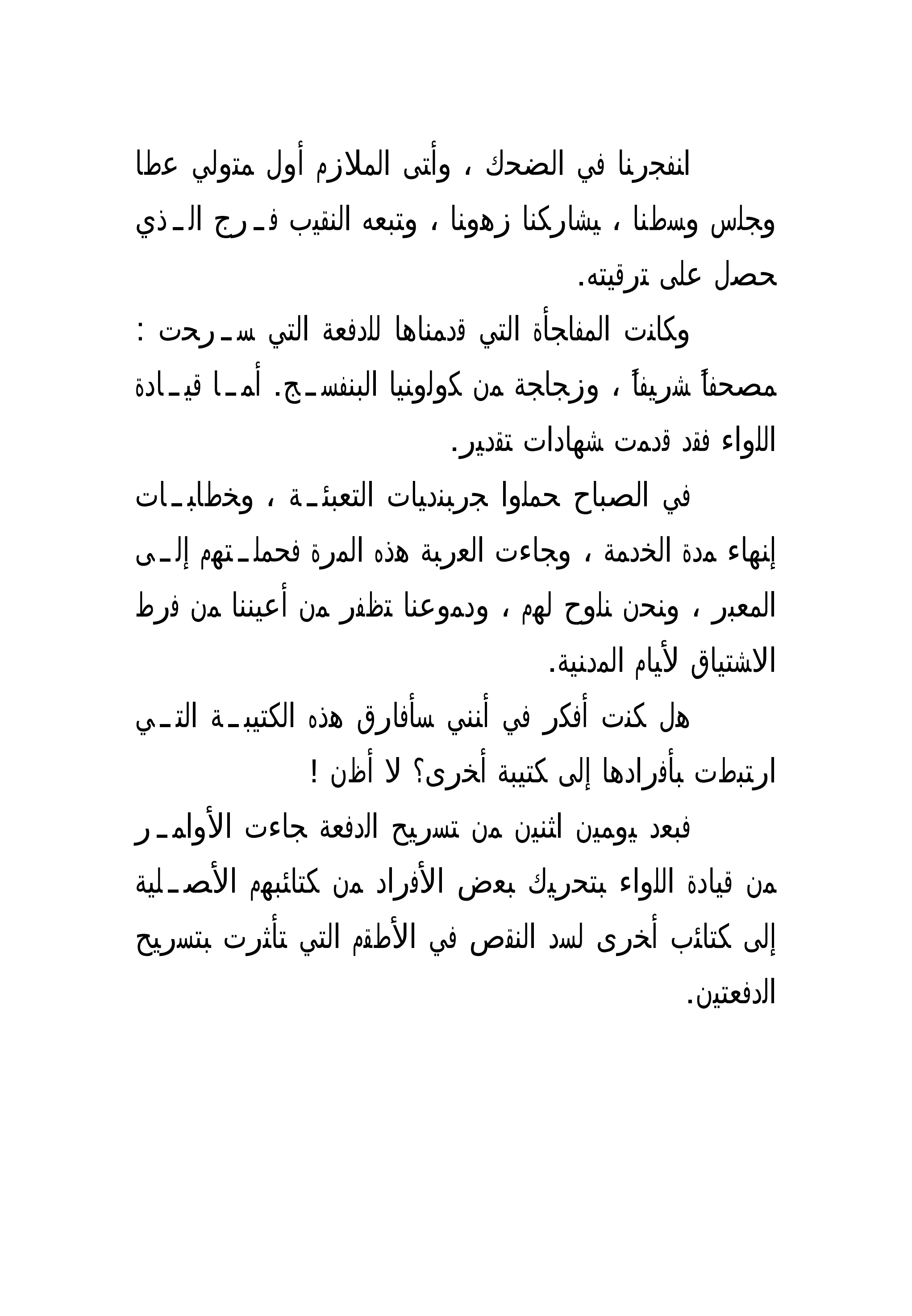
(١٤)

تم تسريح الدفعة الثانية من الجنود الـذين أمضـوا مدتهم بالخدمة العسكرية. كان وداعهـم حـاراً مـن رفقـة السلاح، ومنا نحن الذين نعيش معهم على السراء والضـراء سواء في الدفرسوار أو في أبي وقفة.

اشتعل الحماس في صدورنا ، وأمسكنا الأروانـات ورحنا ننقر عليها بأصابعنا ، أما السيد جابر الذي لـم تفلـح معه إجراءات الرفت فقد خرج مع دفعته بعد انقضاء المـدة العادية في ١/ ٧/ ١٩٧٥.

امتثل لصيحاتنا ووقف أعلى التبة بين دشم المـدافع يرقص ، وساقه يغز بها قليلاً ، لا يحاول أن يخفي عرجه ، بل يسخر منه ، نصفق على واحدة ونصـف ، والأروانـات نسمع صوت صداها في الخلاء. قال له رزق : وا عليـك وسط ولا أعتى الراقصات !

استمع إلى هذه الجملة فلكزه في صدره بعد أن مـال عليه : اسكت يا شيخ طبلاوي.



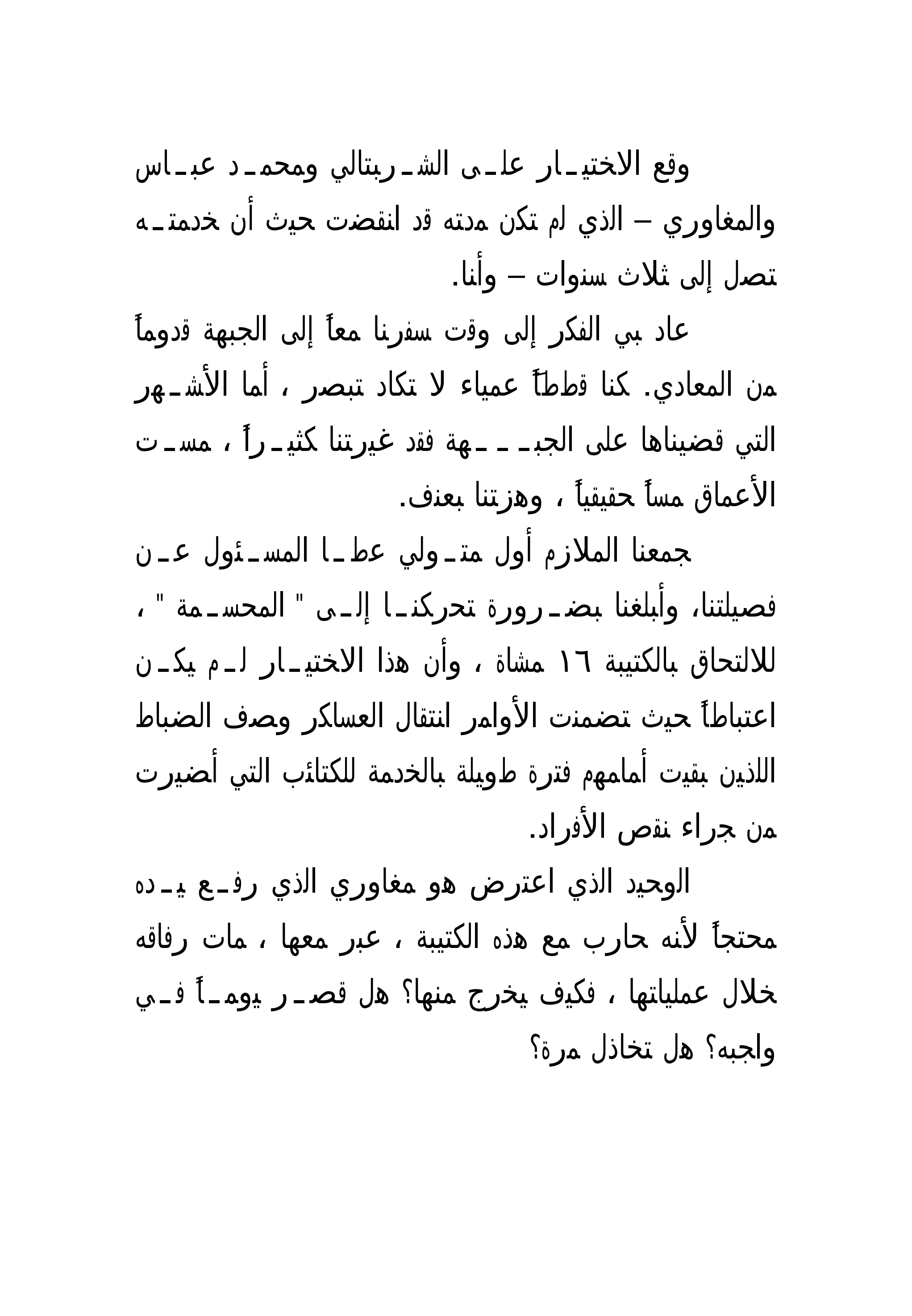
انفجرنا في الضحك ، وأتى الملازم أول متولي عطا وجلس وسطنا ، يشاركنا زهونا ، وتبعه النقيب فـرج الـذي حصل على ترقيته.

وكانت المفاجأة التي قدمناها للدفعة التي سـرحت : مصحفاً شريفاً ، وزجاجة من كولونيا البنفسـج. أمـا قيـادة اللواء فقد قدمت شهادات تقدير.

في الصباح حملوا جربنديات التعبئـة ، وخطابـات إنهاء مدة الخدمة ، وجاءت العربة هذه المرة فحملـتهم إلـى المعبر ، ونحن نلوح لهم ، ودموعنا تطفر من أعيننا من فرط الاشتياق لأيام المدنية.

هل كنت أفكر في أنني سأفارق هذه الكتيبـة التـي ارتبطت بأفرادها إلى كتيبة أخرى؟ لا أظن !

فبعد يومين اثنين من تسريح الدفعة جاءت الأوامـر من قيادة اللواء بتحريك بعض الأفراد من كتائبهم الأصـلية إلى كتائب أخرى لسد النقص في الأطقم التي تأثرت بتسريح الدفعتين.



وقع الاختيار على الشربتالي ومحمد عباس والمغاوري – الذي لم تكن مدته قد انقضت حيث أن خدمته تصل إلى ثلاث سنوات – وأنا.

عاد بي الفكر إلى وقت سفرنا معاً إلى الجبهة قدوماً من المعادي. كنا قططاً عمياء لا تكاد تبصر ، أما الأشهر التي قضيناها على الجبهة فقد غيرتنا كثيراً ، مست الأعماق مساً حقيقياً ، وهزتنا بعنف.

جمعنا الملازم أول متولي عطا المسئول عن فصيلتنا، وأبلغنا بضرورة تحركنا إلى " المحسمة " ، للالتحاق بالكتيبة ١٦ مشاة ، وأن هذا الاختيار لم يكن اعتباطاً حيث تضمنت الأوامر انتقال العساكر وصف الضباط الذين بقيت أمامهم فترة طويلة بالخدمة للكتائب التي أضيرت من جراء نقص الأفراد.

الوحيد الذي اعترض هو مغاوري الذي رفع يده محتجاً لأنه حارب مع هذه الكتيبة ، عبر معها ، مات رفاقه خلال عملياتها ، فكيف يخرج منها؟ هل قصر يوماً في واجبه؟ هل تخاذل مرة؟

كان يبكي بكاء مستمراً حتى تصـورت أن وجهـه تورم. هزه الملازم أول متولي ، وخفف عنه الأمر : أوافـق على بقائك معنا. لكن هات لنا زميل آخر يمكنه أن ينتقل إلى ك ١٦.

رفع رزق يده وقال أنه يحب كل أفراد سريته ، لكنه من أجل صديقه المغاوري يمكنه أن يذهب إلى الجحيم.

صفقنا ، وصفر بعضنا ، لكن أحمد طـاهر كشـفه وصاح في وجهه : بل من أجل عيون البدوية يا " نمس " !

نظر إليه رزق بضيق ، وحسم الملازم أول الموقف بالموافقة على هذا التعديل.

انصرفنا على أن نعد مهماتنا على وجـه السـرعة وقبل الساعة ١٧٠٠.

في الخامسة كنا نهبط التبة ، وقد وقف أفراد السرية يلوحون لنا. كم كان الوداع مؤثراً وصادقاً ، لقـد انحـدرت دموعهم ، وهم يحتضنوننا ، ولم تكن هناك رقصات أو أغن لأننا لم نسرح. كانت ضمات رقيقـة ، وقـبلات خشـنة ، ووعود من القلب باللقاء في أقرب فرصة ، الفئـران ذاتهـا

خرجت لوداعنا ، وأطلت بأنوفها الدقيقة تتشمم الجربنديات ، ونحن نسندها على المنحدر ونسلم سلامنا الأخير.

مررنا بالدبابة التي خرج منها العقرب. قلت لرزق : هل نسيت هوايتك القديمة؟

صاح في وقد توجته الحكمة : لا يلدغ مـؤمن مـن جحر مرتين.

قال أحمد طاهر : لكنك لست بمؤمن !

جمد الدم في عروقي حين أبصرت حيـة تتلـوى ، وتفح فحيحاً مزعجاً. كانت المرة الأولى التي تقع فيها عيناي على هذا الصنف من الثعابين.

قال أحمد طاهر مداعباً رزق : خرج أصدقاؤك فـي وداعك.

قلت وأنا أسرع الخطا : هيا بنا نبتعد !

قال عباس : إنها تصعد التبة. إما أن نقتلها أو نحذر الزملاء.

رد رزق بعصبية : سنتأخر.

عنفه محمد عباس : لا يهمك سوى نفسك.

ألقى أحمد طاهر جربنديته ، انتزع كوريك الفـرد ، وبدربة راح يحاورها ، ثم انقض على الرأس وظل ، يضربه مرات متتالية حتى هشمه.

قلت له ، سعيداً بفعله : يبدو أن لـك خبـرة بهـذه الزواحف القاتلة.

كان له وجه طفل ، وكان الخجل يكسو وجهـه مـع عبارة الإطراء التي نطقت بها : في قريتي نتقابل كثيراً مـع هذه الحيات. ونجيد التغلب عليها. لكن فحيح تلك الحية ليس له مثيل.

قلت له : سينفعك هذا العمل عنـدما تفـتح مكتـب محاماة. ستضرب الرأس قبل الذنب !

ممرنا على السرية الطبية ، سـلمنا علـى المـلازم يسري الذي علم برحيلنا ، فصمم على استضافتنا ، وصنع لنا الشاي بيده.

سألنا أن نستريح قليلاً ، وأخبرنا أن ك ١٦ مشاة في مكان وسط بين الصحراء والحقول. فهي بقعـة لا تضـاهي الدفرسوار جمالاً ، لكنها ليست جدباء مثل أبي وقفة.

قلت أستشيره : هل يمكنني أن أطلب نقلي في عمـل كتابي بالقاهرة لأنني كما ترى أضع على نظارة طبية؟

هز رأسه غير مشجع فكرتي : بل أبق بالجبهة. لقـد مرت عليك نصف المدة ، فلا تتعب نفسك فـي إجـراءات طويلة تتطلب سفراً ومشقة !

كنت قلقاً فقط من المناورات الميدانية التي كنا نرتدي فيها معدات " الكيما " ، فحين تصدر الأوامر بأن هناك غازات سامة نشرع بارتداء معاطف المطاط ، والقفازات الطويلـة ، ونضع على وجوهنا الأقنعة الواقية.

وكم كان غريباً أن أجدني محتاراً فكيف يمكننـي أن أضع القناع الذي يلتصق بجلد الوجه على نظارتي الطبية؟

كنت اخلع النظارة وأطلب من أي زميل أن يمسـك بيدي ويقودني خلال فترة الغاز. ونحن نهرول من موقع إلى آخر وفي أحيان كثيرة نحتمي خلف الدبابات فـي احتلالهـا المصاطب المجهزة.

لم ترق لي هذه الفكرة ، وبدا لي تصـرفي معيبـاً ، وفي آخر مشروع مع كتائب الفرقة بوادي الملاك ، وحـين رُفع العلم الأحمر دليل وجود غازات سامة ارتـديت القنـاع

الواقي ثم وضعت النظارة الطبية فبدا شـكلي فـي وجـوه الآخرين مضحكاً ومثيراً للسخرية.

في تحركنا لاحتلال تبة معادية لمحنـي المـلازم أو فرج – قبل ترقيته – سألني وهو يغالب ضحكه : ماذا تفعل يا عسكري؟

كاد يستلقي على ظهره من شدة الضـحك وسـحب الدخان البيضاء المنبعثة من قنابل الفصيلة المعاونـة تمـلأ المكان ، وأنا أجيبه : أريد أن أرى !

رائحة الفنيك في دشمة الملازم يسري. مد يده بلفافة من القطن الطبي وزجاجة صغيرة من صبغة اليـود : قـد تنفعكم.

حدثناه عن الحية التي قتلناها. لم يعبأ بالأمر : هـذا شيء عادي في تلك الجهة.

حين اقتربنا من رشاشات الـ م. ط وجدتـه فـي انتظاري.

قال حمام : كنت ستذهب قبل أن أراك !

نفيت الأمر تماماً : بل جئت لسلم عليك.

قال رزق بمرح : أخذونا لحماً ورمونا عظماً !!

وضع الشربتالي يده على فـم رزق : أنـت أكبـر المستفيدين من هذه التنقلات. لقد جاءت على هواك.

ابتسم رزق لمحمد حمام : قل لهم ماذا كنـت أفعـل بالحرب. هؤلاء البلهاء يظنون أننا كنا نلعب. لو رأوا يومـاً من الذي رأيناه لشابت شعورهم.

قال محمد عباس في احتجاج : لا تقارن نفسك بأحد. أنت " مارشال " ، لكن كن في حالك.

قلت لمحمد حمام : هل رأيت أحمد عبد ربه؟

أجابني في تخوف : زميلك في الـ م. د؟

أجبت : نعم. هل هناك غيره؟

زم شقيقه ثم بصق في الأرض : ألم تعلم. لقـد داس على لغم الأفراد. ونقل مستشفى القصاصين.

أُخذت وامتقع لوني. راح يشير بيده معتذراً : يبـدو أنني لا أنقل لك سوى الأخبار السيئة.

قلت أخفف عنه : أبداً لكنني من مدة لـم أره. هـل حالته سيئة؟

قال يعنف نفسه : لم استطع الحصول على تصـريح بزيارته. هذا يتطلب الكثير من الإجراءات.

سلمت عليه بفتور ، وانحنيت على الأرض أنتـزع بعض الحشائش الصفراء الذابلة وامضغها في غلٍ.

ها هو واحد ممن عرفت يصادفه حظ عاثر ، وهـو الوحيد الذي جمعتك به صداقة من سرية الـ م. د.

فهل يؤدي به حظه التعس. غمغمت : كـل شـيء باطل ، وقبض الريح.

سألني أحمد طاهر : أليست الألغـام داخـل حقـول محددة ، وحولها أسلاك شائكة؟

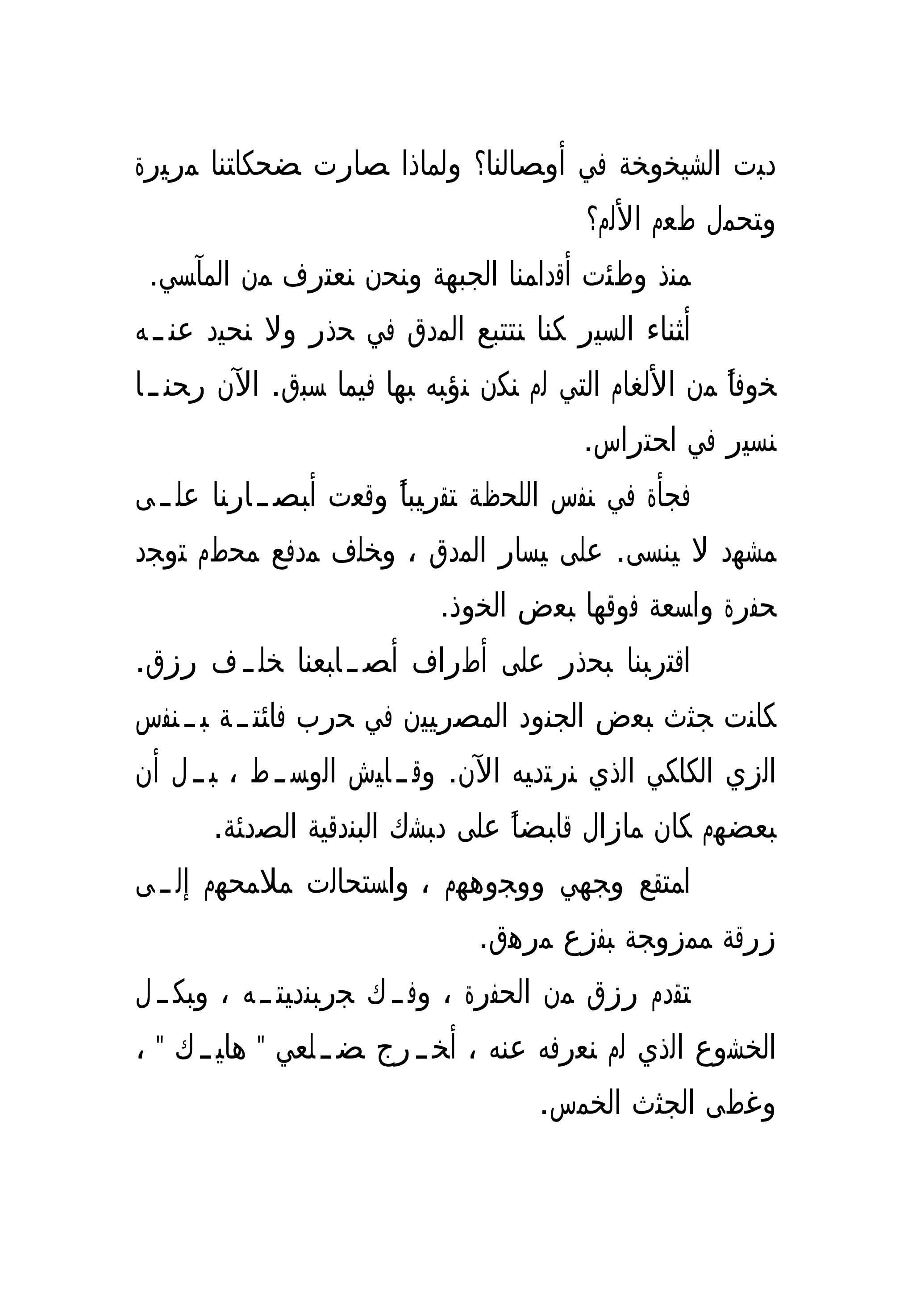
قلت : هذا ما أعرفه. فهل كان يسير لـيلاً و أخطـأ الطريق؟

ضحك رزق على سذاجتنا : والريح.. أليست قـادرة على زحزحة الحجر من مكانه؟

صاح فيه أحمد طاهر أن يسكت. لكنه واصل حديثه المزعج الاشي بسخرية لاذعة : في بعض الأحيـان يمكـن للريح أن تنقل التباب أن تزيح دبابة من مكانها !

قال محمد عباس : لعلها دبابة من كرتون.

تضاحك احمد طاهر معه ، وكنت أفكر في مسـألة اللغم. سألت نفسي رغم الضحكات الموجعة من حولي : هل



دبت الشيخوخة في أوصالنا؟ ولماذا صارت ضحكاتنا مريرة وتحمل طعم الألم؟

منذ وطئت أقدامنا الجبهة ونحن نعترف من المآسي.

أثناء السير كنا نتتبع المدق في حذر ولا نحيد عنـه خوفاً من الألغام التي لم نكن نؤبه بها فيما سبق. الآن رحنـا نسير في احتراس.

فجأة في نفس اللحظة تقريباً وقعت أبصـارنا علـى مشهد لا ينسى. على يسار المدق ، وخلف مدفع محطم توجد حفرة واسعة فوقها بعض الخوذ.

اقتربنا بحذر على أطراف أصـابعنا خلـف رزق. كانت جثث بعض الجنود المصريين في حرب فائتـة بـنفس الزي الكاكي الذي نرتديه الآن. وقـايش الوسـط ، بـل أن بعضهم كان مازال قابضاً على دبشك البندقية الصدئة.

امتقع وجهي ووجوههم ، واستحالت ملامحهم إلـى زرقة ممزوجة بفزع مرهق.

تقدم رزق من الحفرة ، وفـك جربنديتـه ، وبكـل الخشوع الذي لم نعرفه عنه ، أخـرج ضـلعي " هايـك " ، وغطى الجثث الخمس.

ثم أخرج كوريكه الصغير ، وراح يغطي الحفـرة. بكل الصمت وكأننا خرس رحنا معه نغطي الحفرة ، وفـي النهـ ـاية غرسنا عصى وفوقها تلك الخوذ الحديديـة التـي فقدت لون طلائها !

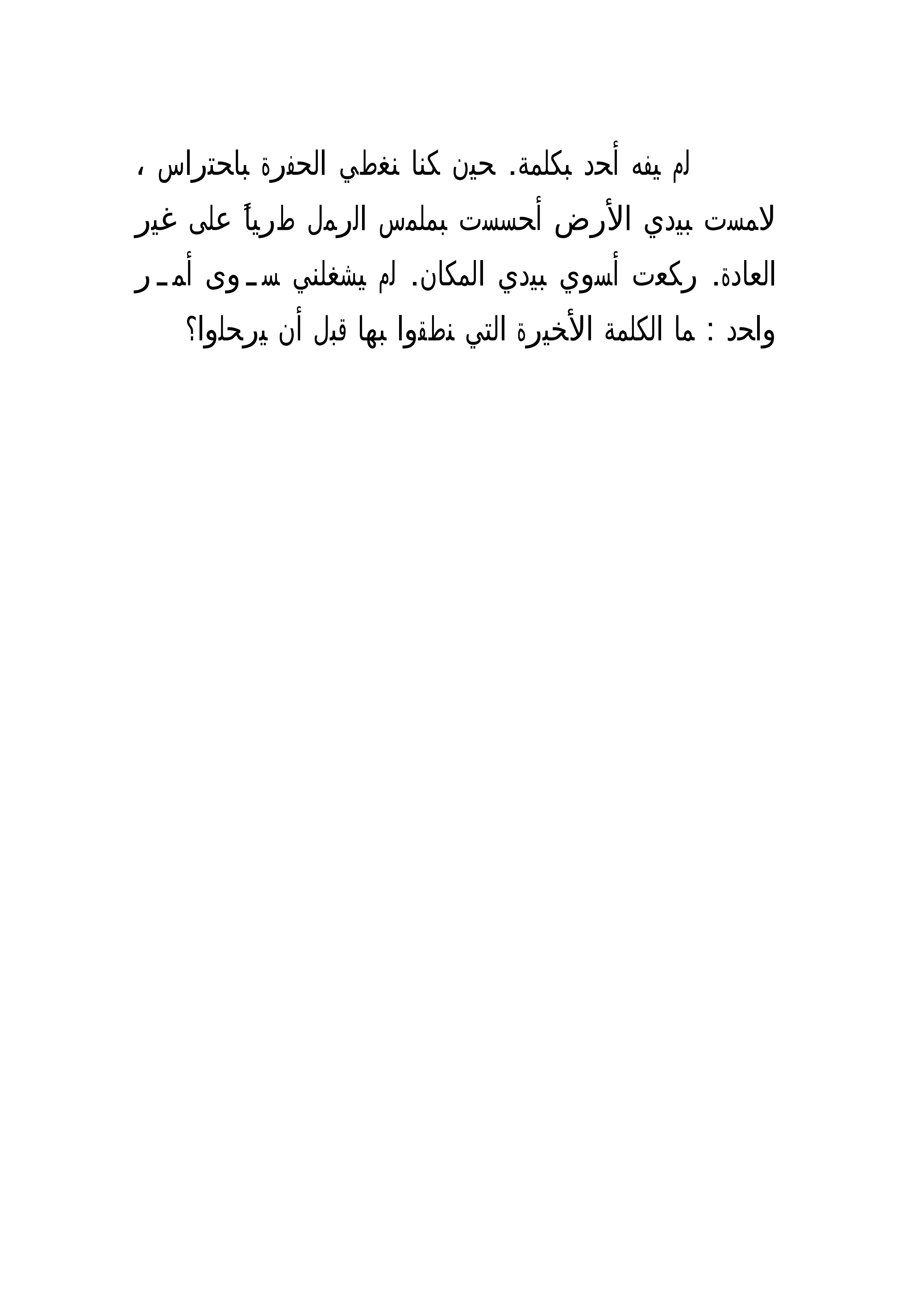
تقدمنا أحمد طاهر الشربتالي وأخرج مـن صـدره مصحفاً صغيراً ، وراح يتلو بعض السور ، قرأت الفاتحة ، وأحسست يرزق يئن ويبكي. يبدو أن هذا المنظر قد خـدش الذاكرة. تركناه حتى انتهى. أخرج منديله الميـري ومسـح دموعه.

سرنا صامتين حتى ابتعدنا عن المكان. قـال رزق : هؤلاء الشهداء كشفتهم العاصـفة وشـالت الرمـال فـوق أجسادهم.

قلت مبهوتاً : أرأيت وجوههم. أقسـم أنهـا لأنـاس فارقوا الحياة منذ قليل.

قال أحمد : هكذا الشهداء.

قلت لنفسي وأنا أمشي خلفهم في تباطؤ وتؤدة : في " المحسمة " لن تزعجنا هذه المناظر التي تفتت الكبد.



لم يفه أحد بكلمة. حين كنا نغطي الحفرة باحتراس ، لامست بيدي الأرض أحسست بملمس الرمل طرياً على غير العادة. ركعت أسوي بيدي المكان. لم يشغلني سـوى أمـر واحد : ما الكلمة الأخيرة التي نطقوا بها قبل أن يرحلوا؟

(١٥)

ها نحن في " المحسمة ". علـى يسـارنا صـحراء صخرية موجعة ، وإلى أقصى اليمـين حقـول البرسـيم ، وفحول الجاموس ، وبيوت الفلاحين ، وبقايا سـاتر ترابـي قديم، وترعة الإسماعيلية التي يستحم فيها الجنود حين يمكنهم الفرار من الحراسة المشددة حول نطاق الكتيبة.

استقبلنا العساكر القدامى بفتور. كنا مثقلـين برحلـة عذاب مترعة بمناظر روعتنا وهزتنا من الأعماق.

لقد شربنا الكأس حتى الثمالة. ما الذي لم نره بعـد. كل شيء جربناه ، ورأيناه ، واقتربنا منه. تسلل حتى النخاع فينا : حفر الشهداء ، لدغات العقرب ، فحيح الحية ، هبـات العواصف الرملية الدامية ، التقاتل من أجل رغيف يابس من الجراية ، الصراع طلباً لكوب مـاء ، الاسـتحمام بنصـف زمزمية في البرد القارس ، حمل القاعدة الفولاذيـة مسـيرة كيلومترين ، نوبات الحراسة في ظلام الليل ، الاحتلال مـع أول ضوء رأس التبة ، النزول إلـى الإجـازات ، انتظـار

المعدية بالساعات ، لحظات العشق القصار ، فراغ الصحراء، مناوشات الفئران ، زحف السحالي البليدة.

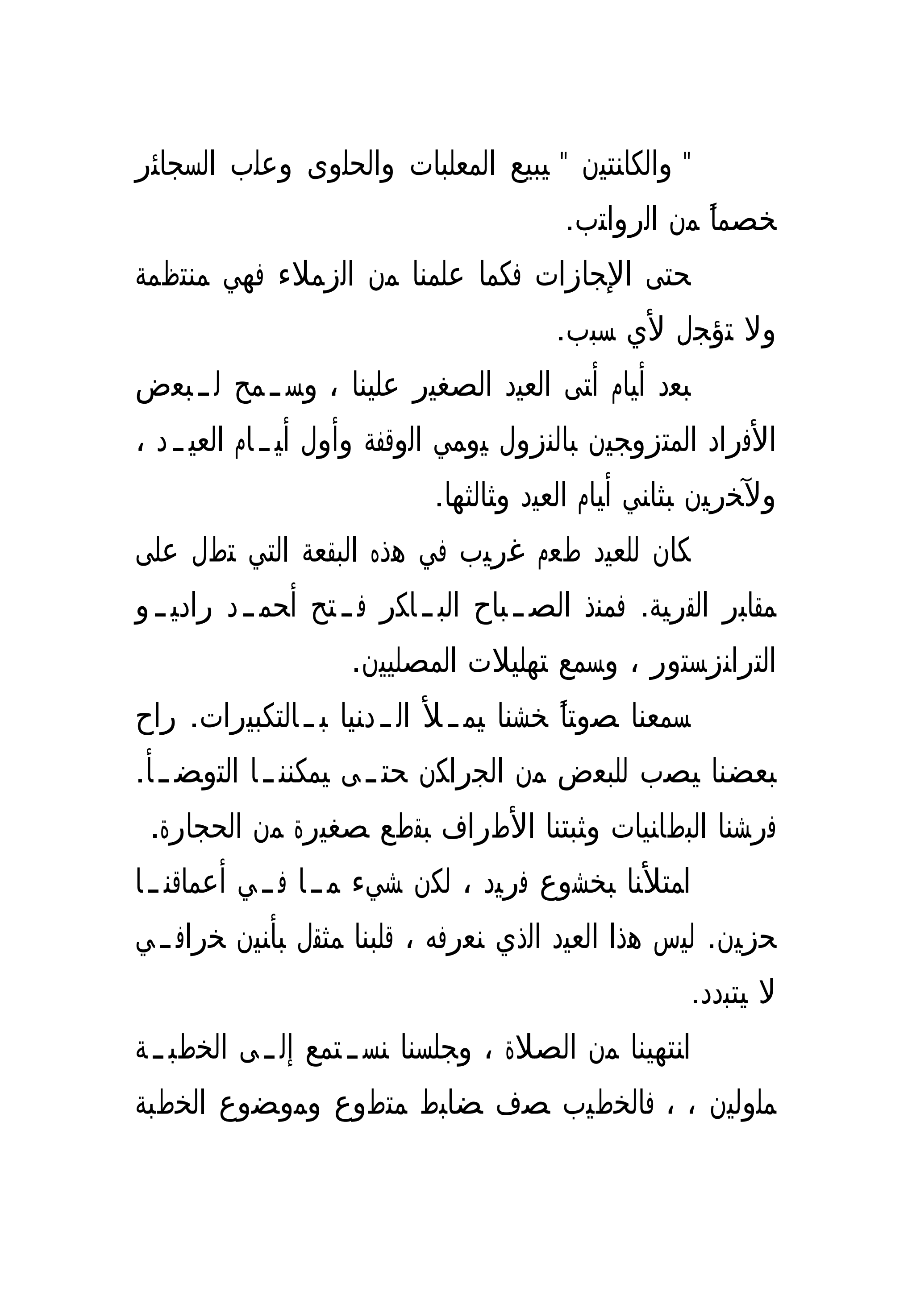
تذكرت أحمد عبد ربه ، وسألت الصول عبد الخالق أن يسمح لي بزيارته في مستشفى القصاصين.

وعدني الرجل بذلك في اقرب فرصة ، لأن هناك ترتيبات عديدة لاستيفاء بعض البيانات حول الأفراد الذين انتقلوا من الكتائب ١٨ و ١٧.

كلفني – وقد توسم في خير بعد أن رأى نظارتي الطبية – بكتابة بعض البيانات والكشوف في ملجأ الأفراد.

ملاجئ الأفراد كما عهدتها مليئة دائماً بقطع الصابون وعلب الشاي أما هذا الملجأ فلم يكن يخفي شيئاً في الأكمنة والمخابئ والملاجئ التي أجيد اكتشافها. أدركت أن كل شيء متوفر ، وانكبت على إعداد البيانات المطلوبة في همة.

كان الاسترخاء هو الطابع العام الذي يسود الحياة في هذه الكتيبة ، فباستثناء طوابير التدريب الصباحية ، واصطفاف التمام في نهاية اليوم لا توجد منغصات. فالمياه تأتي إلى الكتيبة في فناطيس هائلة وبكميات وفيرة ، والطعام لا يتأخر دقيقة عن موعده ، وهو يأتي ساخناً.



" والكانتين " يبيع المعلبات والحلوى وعلب السجائر خصماً من الرواتب.

حتى الإجازات فكما علمنا من الزملاء فهي منتظمة ولا تؤجل لأي سبب.

بعد أيام أتى العيد الصغير علينا ، وسـمح لـبعض الأفراد المتزوجين بالنزول يومي الوقفة وأول أيـام العيـد ، ولآخرين بثاني أيام العيد وثالثها.

كان للعيد طعم غريب في هذه البقعة التي تطل على مقابر القرية. فمنذ الصـباح البـاكر فـتح أحمـد راديـو الترانزستور ، وسمع تهليلات المصليين.

سمعنا صوتاً خشنا يمـلأ الـدنيا بـالتكبيرات. راح بعضنا يصب للبعض من الجراكن حتـى يمكننـا التوضـأ. فرشنا البطانيات وثبتنا الأطراف بقطع صغيرة من الحجارة.

امتلأنا بخشوع فريد ، لكن شيء مـا فـي أعماقنـا حزين. ليس هذا العيد الذي نعرفه ، قلبنا مثقل بأنين خرافـي لا يتبدد.

انتهينا من الصلاة ، وجلسنا نسـتمع إلـى الخطبـة ملولين ، ، فالخطيب صف ضابط متطوع وموضوع الخطبة

عن الإسراف. كنا نسينا معنى هذه الكلمة تماماً إلا في مجال واحد وهو التعب خلال الخدمات الزائدة !

فجأة تقاطرت على مقابر القرية القريبة نساء ملتفات بالسواد ، وأطفال صغار بملابس العيـد الزاهيـة ، وبنـات يعقصن شعورهن في دلال ، ويضعن عقوداً بلورية ملونـة على صدورهن ، أما الرجال فيرفلون في جلاليب بـيض ، وفوق رؤوسهم طواقي الحجاز المشغولة.

جلست على برمـيل أمام ثكنات السرية أتأمل أهـل القرية ، الجميع قد أتى ليقوم بواجب الزيارة ، وكل يحمـل الأسبتة وسلال من خوص.

صاح فينا رزق : الحسنة.. الحسنة.

ثم اندفع يجري ناحية المقابر حافي القدمين ، عاري الرأس ، ونحن لا نفهم ما الذي أصاب عقله ، وجعله يسرع ناحيتهم وحول عنقه فوطته الميري.

عاد بعد قليل وقد جمع في الفوطة قطع من القرصة، والكعك والمنين ، وبعض التمر والخروب، وأعواد بخـور، ومشط كبريت.

قال وهو يخرج لنا لسانه : لن تمتد أيديكم لما معي. الذي يريد شيئاً يذهب إلى هناك.

كانت جموعهم قد التفت حول المقـابر ، وجلسـت النسوة مفترشات بعض ملاءات ملونة ، أمـا الرجـال فقـد قضوا وقتاً قصيراً يقرءون الفاتحة ثم وقفوا يثرثرون ، كانت أيديهم تضع أفرع الخوص ثم يواصلون أحاديثهم.

قال محمد عباس : سأذهب لأحضر بعض الكعـك. ألن يأتي أحد معي؟

ذهب معه بعض العساكر بجرأة غريبة وكانوا مـن الأفراد الأصليين في الكتيبة. بقينا ننتظر رجوعهم ، بعـد أن أجهزنا أبريق الشاي.

عادوا بخير وفير ، وضعوه على البطانية ، ورحنـا نمضغ في تلذذ ما أتوا به ورائحة السمن البلدي تملأ المكان. أما أعيننا فقد كانت مسمرة على الأضـرحة التـي يـزداد زائريها !

السماء من فوقنا تبدو مزيجاً من الزرقة والاحمرار ، حيث تجاهد الشمس لتعلن سطوتها على القريـة ، وثكنـات الجنود ، والبشر المعذبين.

قلت لنفسي : يبدو أن عظامي هشة. ما الذي أوج قلبي إذا كان الموت والحياة متجاورين؟

كان عيداً غريباً مسح من ذهن كثيراً من الأوهام. صار وميض الجبهة الذي أطاح بتماسكي وأفزعني بأسراره أمراً مألوفاً. فالأجساد التي تطوحت ، وسكنت حفرة ضيقة في سيناء شبيهة بتلك التي وجدت كننا وضمخت بالعطر ، وشالتها الأكتاف داخل بغش خشبي ، وخلفه صفوف المشيعين.

هل يحتاج الأمر إلى شواهد وأضرحة من رخام وأهلة خضراء ، وأعواد خوص؟

حين ذهبت إلى مستشفى القصاصين ، وجدت الممرضات يضعن " الروج " على شفاههن ، " والبودرة " على خدودهن ، فرحات بالعيد. سألت عنه فأشرن بأيديهم الرقيقة إلى قسم العظام.

صار دوي المدافع الذي بحثت عنه طويلاً ، كي أدرك مغزاه، يصل على أذني خافتاً واعناً مكتوماً بينما أنين البشر المعذبين جلياً واضحاً.

إنكفأ طفل على وجهه في الممر وهو يعدو. في نفس اللحظة انحنت ممرضة لتحمله ، وانحنيت أن الآخر لأمنـع بكاءه. التقت النظرتان بغتة.

كانت تشبه سوسن ، نفس الابتسامة الحلوة ، والنمش الخفيف الذي خطف قلبي ، انبثق زجاج الأبواب المفضية إلى الحديقة ضوء أزرق له حمرة خفيفة ، انعكس على الأيـدي والجباه. بدت أكثر رونقاً. قالت لي : من تريد؟

قلت مستلمحاً وجهها : أحمد عبد ربه.

تقدمني نحو العنبر الذي كان يفوح برائحة المخدر ، وتنتشر في أرجائه المطهرات.

قالت قبل أن تدخل : لقد بتروا ساقه.

بقيت لحظات أستجمع شجاعتي ، سألتها وأنا أغالب ضعفي : منذ متى؟

قالت وهي تستنكر سؤالي : منذ أتى هنـا؟ ألسـت زميلاً له؟

هززت رأسي ولم أنطق.

في أقصى الممر تعلقت عيناي بصورة معلقة علـى الحائط لسفينة تقاوم الأمواج المتلاطمة ، رأيت خيوط الممر تغسل الصياد الذي وقف يجدف بابتسامته.

قلت بأسى : لا أريد أن أراه الآن.

استدارت عائدة ، وتبعتها إلى الممـر : ألـم تكـن تعرف؟

قلت وقد تبلورت أحزاني : لا يمكنني أن أراه هكذا؟

سألتني : ألست محارباً؟

قلت وأنا أنتفض : أبداً. لست محارباً؟

كان يبدو علي الإرهاق. انزعجـت للأمـر : هـل أحضر لك كوب ماء؟

قلت بصوت غلب عليه التعب : من فضلك !

ذهبت إلى حجرتها في نهاية الممر ، فتحت البـاب ، لمحت المعاطف البيضاء مدلاة ، ومعلقة علـى المشـاجب ، وسماعة طبية على منضدة من الصاج : تفضل.

شربت وكنت أعلم أنه من العار على الرجل أن يبكي في وجود امرأة. لا أعرف كيف ملكت نفسـي ، وانتزعـت ابتسامة لأطمئنها. حاولت أن أخفي بها تأثري وقلة حيلتي.

قال لي : هل أخبره بشيء.

قلت لها : وميض تلك الجبهة.. أتعبني.

نظرت إلي في دهشة. مدت يدها تختبر حرارتـي.

قلت بألم : لست مريضاً.

قالت : أي جبهة تعني؟

قلت وأنا أستدير لكي أخرج : ستعرفين.. ســتعرفين يا آنسة !